مكتبة الدراسات التاريخية
سَيفُ الدّوْلة
وعصر الحمدانيّين
بقلم
سامى الكيالى
دار المعارف بمصر

سَيفُ الدّوْلة

وعصر الحمدانيّين

مكتبة الدراسات التاريخية

سَيفُ الدّوْلة

وعصر الحمدانيّين

بقلم

سامى الكيالى



دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ٥ شارع ماسبيرو — القاهرة

الإهـــداء

كانت سورية ، قبل ألف عام ، أى بعد انفراط عقد الإمبراطورية الكبرى بتصدع ملك العباسيين فى بغداد – مطمعاً للزحفات البيزنطية ، ولكن بطولة الحلبيين الأشاوس الذين بذلوا دماءهم بسخاء فى الدفاع عن ذرى الوطن هى التى حالت دون تحقيق ذلك الحلم البيزنطى القديم .

فإلى روح ذلك « الجندى المجهول » الذى أنبتته تربة هذا الوطن المقدس – إلى ذلك الحلبى المغوار الذى كان أول من حمل رايات سيف الدولة ، أهدى هذه الصفحات.

لئن خُلق الأنام لحسو كأسٍ ومزمارٍ وطنبورٍ وعــودِ
فلم يخلق بنــو حمدانَ إلاَّ لمجــدٍ أو لبأسٍ أو لجــودِ

أبو فراس

ليس إلاّكَ يا علــىٌّ همامٌ سيفهُ دون عِرْضِه مسلولُ
كيفَ لا تأمنُ العراقُ ومصرٌ وسراياكَ دونهــا والخيــولُ
لو تحرّفتَ عن طريق الأعادى ربطَ السّدرُ خيلَهم والنخيلُ
ودرى مَنْ أعزّه الدفع عنه فيهما أنه الحقيرُ الذليــلُ
أنتَ طولَ الحياةِ للرومِ غازٍ فمتى الوعدُ أن يكونَ القفولُ
وسوى الروم خلفَ ظهرك رومٌ فعلى أىّ جانبيكَ تميــلُ
قعد الناسُ كلهم عن مساعيـ ـكَ وقامت بها القنا والنُّصولُ
ما الذى عنده تدارُ المنايــا كالذى عنده تدارُ الشَّمولُ

المتنبى

اجتمع لسيف الدولة بن حمدان ما لم يجتمع لغيره من الملوك ، كان خطيبه ابن نباته الفارقى ، ومعلمه ابن خالويه ، ومطربه الفارابى ، وطباخه كشاجم ، وخزان كتبه الخالديان والصنوبرى ، ومداحه المتنبي والسلامى والوأواء الدمشقى والرفاء والنامى وابن نباتة السعدى والصنوبرى وغير ذلك .

الثعالبى

مقدمة

بقلم
الدكتور إسماعيل أحمد أدهم

فى نفوس الناس اليوم صورة جديدة عن التاريخ . وهى صورة على الرغم مما فيها من الغموض والإبهام، فإنها صادقة الدلالة على التطور الذى حدث فى نفوس الناس فجعلهم لا يطمئنون إلى اعتبار التاريخ مجرد الرواية للماضى وتدوين حوادثه كما كان يفعل القدماء من مؤرخى العرب ، وكما هو الحال فى الآثار التى تمتّ إلى التاريخ بصلة، والتى انتهت إلينا من مؤرخى العصور الوسطى من كتّاب الإسلام .

على أن هذه الصورة الجديدة ، تعود بأصل من جهة . لتغير مفهوم التاريخ فى الغرب . ماشتها من جهة أخرى أسباب فى الشرق الأدنى فجعلتها تأخذ من هذا التغاير بطرف . وأهم هذه الأسباب : التحول الحادث فى الشرق الأدنى ، ونقطة التحول يقظة العالم الناطق بالعربية بعد فترة خمسة قرون ذهب يغط فيها نوماً . وكان تحركه نتيجة تفاعل حضارته التى خرج بها من ماضيه والتى تحجرت مع الزمن فى صورة جامدة — مع الحضارة الأوربية التى كانت تغزو الشرق بقوة . ومن هنا كانت التيارات المتباينة التى أخذت تجتاح جوّ الشرق الأدنى . والتى كانت تسمح بإقامة بيئات ثقافية مختلفة ، وهكذا كان هذا العصر فى تاريخ الشرق الأدنى فترة من الزمن تسمح للعبقريات أن تظهر ، وللأذهان الألمعية أن تبدو وقد أخذ الصدأ الذى تراكم على أهل المشرق ينجلى تحت تأثير مدنية الغرب الجارفة .

وكان يقابل أسباب الانتفاض الخارجية ، أسباب ماشتها من الداخل ، قامت على أساس إحياء تراث الماضى وبعثه للحياة بقوة من جديد . فحدث أن

حمل الفكر العربى الحديث صوراً من الماضى ، ولكن معروضة فى قالب جديد يتكافأ والحياة الثقافية التى أخذ بها المحيط الشرقى . غير أن هذا القالب كان شكلياً فى العلوم ، لأن العقلية التى خلص بها رجالات الشرق الأدنى من أسباب محيطهم الشرقى أيام طفولتهم كانت تفعل فعلها فيهم ، ولم تكن لتجعل أذهانهم لتستقيم لها أسباب عقليتها من الذهنية الغربية الحديثة .

ولما كانت الذهنية العربية الخالصة غير تاريخية فى تجليها الزمنى من حيث تأخذ الأشياء جنباً إلى جنب دون أن تعنى بالتفاصيل ، ودون أن تعمل للنفوذ إلى ما وراء أشكال الأشياء لترى رابطة الاتصال الداخلى بينها ، وحد التطور الزمنى فيها . فإن غزو الأساليب الغربية للعالم العربى نجحت فى أن تغلف الذهنية العربية بطرائقها الشكلية تغليفاً انتهى إلى حد أخذ الذهنية العربية الحديثة بالطريقة الوصفية فى كتابة التاريخ ، لأنها تمثل مرحلة من مراحل تطور الذهنية التاريخية من الحالة التدوينية للحالة الفلسفية التى هى مقدمة لتناول التاريخ تناولا علمياً تحليلياً .

١

لا يخرج التاريخ عن حد العرض للماضى ، ماضى الكل الاجتماعى المتدرج فى الزمن ، ومنحى العرض هو الذى يقوم التاريخ بتلك الطرائق المختلفة والمذاهب المتباينة ، فالوقوف عند حد تدوين حوادث الماضى بعد نقدها وتمحيصها يقف بالتاريخ عند الحالة التدوينية الانتقادية ، كما أن الرجوع بصفحات من الماضى إلى الحياة ، وإبرازها فى إطار فنى يقفان بالتاريخ عند الحالة الوصفية ، فإذا ما تعارضت بعض التأملات الفلسفية فى خيوط الشبكة التاريخية التى تحاك من حوادث تروى ، ووقائع تقص ، وأمور تدون ؛ ونجح المؤرخ فى أن يقع على البواعث والقواسر والأسباب التى يستطيع بها أن يعلل حوادث التاريخ التى يعرض لها ، بحيث يخرج منها بصورة فيها ألفة واتساق ، مستمداً تعليلاته من طبيعة الحالات فى العصر الذى يؤرخ له ، فإن التاريخ يرتقى إلى الحالة الفلسفية . وتلك خطوة أولى ينتهجها المؤرخ لينتهى بها عن طريق من

طرائق التحليل والتحقيق العلمى إلى الحالة العلمية .

والمرحلة التى أخذ بها الشرق العربى فى فهم التاريخ ، مرحلة تنقلية من الحالة التدوينية إلى الحالة الفلسفية ، وهكذا اختلط عند الشرقيين بعض مناحى الطريقة الوصفية ببعض وجهات الطريقة الفلسفية ، فأنت تجد بعض كتب التاريخ الحديثة التى ظهرت بالعربية فى هذا الجيل والجيل الذى انصرم بقيام الحرب الكبرى تعرض لبعض الحوادث والوقائع التى ذهبت طىّ التاريخ فى صورة تتعارض فى شبكتها المتصلة بعض التدبر فى استقصاء الأسباب وربط النتائج لها . وهكذا خرجت هذه الكتب لا هى آخذة الأسباب بالطريقة التدوينية الصرفة التى تقرر وقائع التاريخ كما هى ، ولا بالطريقة الفلسفية المحضة التى تعلل حوادث التاريخ تعليلا يستمد مقوماته من طبيعة الحالات القائمة فى العصر الذى يؤرخ له.

هذا فضلا عن أن الطريقة التدوينية الانتقادية لم يعرفها كتاب العربية من حيث تمحيص حوادث الماضى وتنقيدها ، فهذا التمحيص والانتقاد لا يمكن أن يستقيم للمؤرخ إلا بنظرة فلسفية تتغلغل فى صفحات الماضى وتستمد من طبيعة الحالات القائمة فى الماضى صورة تقيمها فى ذهنها يمحص على أساسها المؤرخ ما يعرض له من حوادث العصر ووقائعه تلك التى روتها الكتب الإخبارية والحوليات الزمانية .

على أنه بجانب هذه الحالات المتخالطة فى فهم التاريخ عند الشرقيين ، قامت الحالة الوصفية فى صورة مستكملة أسبابها ، ذلك أنها غير محتاجة لصدق الحدس Intuition التاريخى وقوة المنطق التاريخى ، لأنها تتقوّم بأصول أدبية ومبادئ فنية صرفة . وقد نجح بعض كتاب العربية — نذكر منهم طه حسين فى كتابه « على هامش السيرة » ومعروف الأرناؤوط فى كتابه عن « سيد قريش » فى أن يبرزوا فى إطار فنى بعض صفحات الماضى ، ذلك أن الطريقة الوصفية فى التاريخ تعود إلى أصل أن المؤرخ مصور تخط ريشته لأهل زمانه الصور التى تنعكس من مرآة نفسه من مراجعة لحوادث الأزمان الغابرة ، تلك الأزمان التى لم نعرف من حقائقها ، إلا بقدر ، يتسق مع ما تركت من أثر فى نفوس المؤرخين

لها . فالمؤرخ الوصفى – كما يقول البحاثة مظهر – يستمد من خيالات غيره ومن انفعالات غيره ومشاعر غيره ليستخرج صورة جديدة تستحيل إليها نفسه ويكون خطؤها أو صوابها راجعاً إلى خطأ نظر الذين صوروا ذلك العصر أو صحته . من هنا فقط يمكننا أن نفهم حقيقة الاتجاه الوصفى فى كتابة التاريخ ، ذلك الاتجاه الذى أخذ به الأستاذان « سبنسر » و « سيلى » ودافعا عنه . ذلك أن التاريخ فى نظر هذا المنحى فى تناول التاريخ لا يخرج عن كونه – كما يقول اللورد ماكولى – « صفحات من الزمن تتعاقب عليها صور الجماعات البشرية بكل وقائعها وحوادثها وانفعالاتها ، وهى من هنا لا تخرج عن كونها كالمنظر الذى تراه فى صفحة السماء يوماً ، يستحيل عليك أن تراه بذاته يوماً آخر بما فيه من اختلاف الصور والألوان والأشكال . ومن هنا يصبح أهل الشهادة لحوادث التاريخ كأهل الشهادة لمناظر الطبيعة ، إن رأوها وتناولوها بوصف وأخذت عنهم ذلك الوصف أو تلقيت عنهم تلك الصورة لتقيس عليها أو لتستنتج منها أو لتقارنها بغيرها من الصور التى تقع تحت الحس ، فإنما أنت تنظر بنظر غير نظرك ، وتنعكس على مرآة نفسك صور وانفعالات وبواعث وعواطف ومشاعر قد تشعر بما يناقضها لو نظرت إليها بعين نفسك وتحت تأثير مشاعرك وعواطفك وانفعالاتك الخاصة » .

على ضوء هذا الكلام – الذى يقرره الأستاذ ماكولى ويلخصه عنه البحاثة مظهر – نرى أن كاتب التاريخ من الناحية الوصفية يحاول أن يتغلغل قبل كل شىء فى روح العصر الذى يؤرخ له ، ويتعمق فى درس حوادثها تعمقاً فنياً حتى يتسنى له أن يخلق فى ذهنه جوا قريباً من الجو الذى كان عليه العصر الذى يؤرخ له ، ثم يندمج الكاتب فى هذا الجو الذى خلقه بعد أن يستوعب كل ما يستطيع استيعابه من حالات العصر الذى يسبق الفترة التى يؤرخها وحالات العصر التى أعقبت طى ذلك فى أكفان الزمان ، ليخلص من جماع ذلك بصورة أقرب إلى الفن التصويرى منها إلى الدرس التحليلى والنظر التأملى الذى هو قرارة المنحى الفلسفى فى كتابة التاريخ .

على أن قيمة مثل هذا الاتجاه فى كتابة التاريخ فنية محضة تقوم على أساس تنبيه العواطف والانفعالات البشرية ، ذلك باعتبار أن الإنسان يعيش فى حاضره محفوفاً بذكريات الماضى والأمس ، من حيث كون الحاضر مجموع الماضى الذى أسلم نفسه لهنيهة لها صورتها الشكلية المستجدة ، ولهذا كانت روح الإنسان ـ عادة ـ محلقة فى أجواء الماضى ، تستعيد صورها بذكرياتها الحلوة والمرة ، واجدة فى ذلك العزاء عما فى الحاضر ، منفسة عما فى نفسها من المشاعر المكبوتة .

وهذا يفسر لنا نجاح هذه الطريقة فى كتابة التاريخ لا عند الشرقيين فحسب ولكن عند الغربيين أيضاً ، ولهذا تجد بعض فنانى الغرب يعرضون لبعض صفحات الماضى ، يبرزونها بصورة أدبية ترضى ناحية الفن أكثر مما ترضى ناحية البحث الانتقادى والتحليل العلمى والتأمل الفلسفى . وهذا لا يمنع أن يتعارض فى خيوط الشبكة التاريخية التى يكون المؤرخ الفنان قد تناولها ، بعض البحث الانتقادى وبعض التحليل العلمى وبعض التأمل الفلسفى ، ولكن فى العموم لا تجد عناية مباشرة بهذه المسائل ولا عناية بتفاصيل العصر الذى يكون قد عرض له المؤرخ الفنان ، لكونه يأخذ من العصر صورته الحية ويلج بك بواسطة اللمسات التصويرية المحكمة التى لا تكاد ترى بالعين إلى التفاصيل التى يهيئها فى ذهنك عن طريق الإيحاء الذى تبعثه فى نفسك استجابتك لعوامل الحياة التى تضطرب فى تضاعيف العصر وأجواء ذلك الزمان .

على أن هذه الطريقة الوصفية إذا اتصلت من الماضى بشخص ، انقلبت إلى فن التراجم ، وهذا الفن لا يفترق فى شىء عن الطريقة الوصفية إلا فى أنها أخص منها من حيث تدور فى الترجمة عن بطل أو إنسان مبرّز فى التاريخ ، عائدة به إلى الحياة التى كان يحياها ، مشعرة الإنسان بهذه الحياة ، وعلى قدر نجاح المترجم تكون مقدرته على الترجمة واستيعابه لفن الوصف التاريخى .

٢

من بين الكتب التى تعرض للتاريخ من الناحية الوصفية كتاب « سيف الدولة وعصر الحمدانيين » لصديقنا الأديب السورى الكبير الأستاذ سامى الكيالى . وهو كتاب يترجم لسيف الدولة ويؤرخ لعصر الحمدانيين . وقيمته ترجع لما يخلقه فى ذهن القارئ من الجو الذى يشعر فيه بأنه آخذ بطرف من عصر الحمدانيين وعلى مشهد من سيف الدولة فيختلجه من الإحساسات والمشاعر ما كان يختلج فى ذلك العصر لما يدور بسيف الدولة من وقائع ترفعه وحوادث تهبط به ، وسيف الدولة بعد ذلك جلد على الزمان لا يتأثر بصدماته إلا بقدر ، حتى يعاود بقوة شخصيته الجهادَ مهيئاً الأسباب للارتفاع .

وسيف الدولة مؤسس الدولة الحمدانية أحد أبطال التاريخ ، صاحب شخصية حافلة بالحياة والنشاط ، وذو نواح متعددة تتراقص على جنباتها المغامرة والشعر والسيف والقلم والبطولة والأدب ، فهو ؛ من هنا ، من الشخصيات التى تثير الإعجاب وتسترعى النظر ، مرّ بتاريخ العرب فى فترة كانت الفوضى تقتلها فنجح فى أن يلجم الفوضى وأخرج منها نظاماً وخلق من ضعف العرب قوة ، وصمد لقوات الروم وقاد جموع العرب لمحاربة البيزانس يذود عن دولته التى أقامها بحد سيفه ، وهو فى هذا كله يذود عن العرب والإسلام .

وقد عاش فى زمنه شاعر العرب أبو الطيب المتنبى وكان على صلات قوية به ، وكانت هذه الصلات تلبس حسب الظروف لبوسها ، على أنها فى العموم كانت قوية تجليها للنظر ما قاله المتنبى من الشعر فى سيف الدولة ، وهو يشكل أهم جانب من شعر شاعر العرب الفذّ . ولقد غطت شخصية المتنبى بعبقريتها الفذة شخصية سيف الدولة ، حتى ذاع فى الناس أن سيف الدولة خلد على الزمن بما قاله فيه أبو الطيب من الشعر الخالد . وكان أن انتبه جمهور أدباء العربية وكتابها إلى أن واجب الوفاء نحو تاريخهم أن يحتفلوا بأعلامه ، فكانت

من هنا فكرة الذكرى الألفية لشاعر العربية الفذ المتنبي ، فكتب الدكتور طه حسين كتابه الأدبي القيم عن المتنبي ، ووضع الأستاذ محمد محمود شاكر بحثه النفيس عن المتنبي ، ودرس المستشرقون حياة أبي الطيب من مناهجهم ، وتلفت الأستاذ سامي الكيالي فرأى أن حياة المتنبي قد درست من جميع نواحيها ، ولم يترك الباحثون فيها له مجالا للبحث ، والرجل طموح يريد أن يستحدث ضرباً جديداً في دراسته للمتنبي فرجع بباصرته للوراء واتخذ من صلات المتنبي بسيف الدولة تكأة يقيم منها أساس بحثه ، ولكن هذه الصلات يمكن أن تدرس من ناحية المتنبي ، ومثل هذا الدرس أدخل في حياة المتنبي منها في حياة سيف الدولة هذا ؛ والأستاذ شاكر قد طرق هذا الموضوع البكر ببحث نفيس. إذن، فليمل إلى الناحية الأخرى ، ناحية سيف الدولة ، ويفكر في أن يدرس شخصه ويستقصي أخبار عصره ، ويضع بحثاً عنه يرجعه به إلى الحياة بعد ألف سنة . وهنا يصطدم بالفكرة الذائعة عن أن المتنبي هو الذي خلد سيف الدولة بما قاله فيه من الشعر الرائع ولكن حياة البطل العربي كما انكشفت له تجعله متردداً في الجزم بهذه الفكرة : وهنا يقف موقف الحيرة يتساءل :

أترى المتنبي مديناً بشهرته إلى سيف الدولة أم أن الأمر بالعكس ؟ أم كلاهما عصاميان قد ربطت بين قلبيهما العظمة فتلاقيا على ضفاف العاصي ، وما إن تقدم الشاعر إلى الأمير بقصيدة من قصائده الغر حتى تعارفا وظلا في صحبة بعضهما هذه الفترة من الزمن حتى فرق الدهر بينهما أو قل نفث الحساد سمومهم في شعبات قلبيهما فترك الشاعر أميره ؟

يقف الأستاذ سامي موقفاً وسطاً في هذا الموضوع : فالأمير الحمداني عنده هو الذي ألهب شاعرية المتنبي بغزواته وحروبه وعطاياه وهباته ، وهو بهذا يمهد السبيل لذيوع اسم المتنبي وخلود ذكره بهذا العطف الذي حباه به وبتفضيله على غيره من الشعراء ، وهذا الذي جعله يرسل الكلم المطرب وتتفجر الحكمة ريانة من جوانب قلبه وطوايا نفسه .

غير أن هذا الموقف يميل به بعض الميل إلى جانب سيف الدولة ، وهو في

هذا مدفوع بفكرته أن يتناول حياة سيف الدولة ببحث ، وما دام سيف الدولة موضوع البحث وركنه ، فالشاعر العربى الفذ يمر فى إطار من حياة الأمير الحمدانى يستمد منها لعبقريته وسائل الظهور ، وهذا الميل يظهر فى كلام الأستاذ الكيالى حين يقول :

« لقد نشأ على هامش الدول الإسلامية أمراء كثيرون ، واتصل بهم شعراء كبار نفحوهم بشعر قوى وبعاطفة رزينة . فما كانت تلك القصائد لترفع بأولئك الأمراء إلى المكانة السامقة التى تربع عليها سيف الدولة فى صدر التاريخ . . . ومرد هذا على ما أعتقد ، عظمة سيف الدولة . والشاعر مهما عمد إلى المبالغة فى رسم صفات ممدوحه فهو لا يستطيع أن ينأى عن الحقيقة . . وفى حياة سيف الدولة حقيقتان بالغتان : مغامراته الفذة كأمير خاض مئات المعارك الدامية فى حروبه مع الروم ، ونفسه الكبيرة التى تراقصت على أشعة ضوئها مئات السجايا النبيلة التى حار الشعراء فى رسم صورها ووصف ألوانها ، هاتان الحقيقتان هما اللتان أيقظتا مئات المعانى الجديدة فى نفس المتنبى ... وإذن ، فلسنا نبتعد عن الواقع إذا هززنا هذا الاتجاه الذى يردده بعض مؤرخى الأدب بأن المتنبى هو الذى خلد سيف الدولة وأنه لولا المتنبى لكان الأمير الحمدانى نسياً منسيًّا ! فسيف الدولة لم يشتر قصائد شعرائه بالمال ، بل كانت أعطياته صدى حقيقيًّا لتذوقه الأدب وإكرامه لرجال الأدب لأن من يحاول أن يبتاع ضمير الشعراء بماله يكون فى حاجة إلى المجد والعظمة ؛ أما سيف الدولة فكانت العظمة والمجد بعض نثار بردتيه ، لهذا نحب أن ننصف سيف الدولة من ظالميه دون أن نغمط الشاعر المتنبى — مالئ الدنيا وشاغل الناس — ، ولا غضاضة إذا قلنا إن المتنبى كان مديناً — إلى حد ما — بشهرته إلى سيف الدولة بن حمدان » .

على أن هذا الميل لا يكاد يستبان ، وإذاً يمكننا أن نقول إن الأستاذ سامى الكيالى كان موفقاً كل التوفيق فى الموقف الذى اتخذه ، وهو موقف يشهد له بصحة النظر ونفوذ البصر والاقتراب من الواقع .

وهكذا اتخذ الباحث لنفسه طريق بحثه ، مستنزلاً الموضوع فى شىء من

الدقة والواقع ؛ مستمداً هذه الألفة والاتساق اللذين كشف عنهما بحدس صحيح من طبيعة العصر الذى عاش فيه الأمير الحمدانى وشاعر العرب .

٣

استقامت الفكرة إذن — فى ذهن الكاتب — فحاول أن يخلعها حية فى البحث الذى يكتبه عن الأمير الحمدانى. فكتب طرفاً من طفولة الرجل وصباه ، ثم عاد يمهد لها بإلمامة عند الحمدانيين والأحوال التى كانوا عليها ليبين طبيعة الموقف الذى واجهه سيف الدولة حين خرج للحياة من صلب الحمدانيين يضع أساساً للدولة الحمدانية التى قامت فى التاريخ فى أرض الشهباء . ولكن هل يصح أن يطلق على النظام الذى أقامه سيف الدولة ، والبقاع التى دانت له اصطلاح الدولة ؟ وهل يجوز أن يقال عن الأراضى التى دانت لآله فى الجزيرة ، إنها دولة ؟

يقرر المؤلف جواز هذا الأمر بعد تحقيق جدلى ، ومن هنا يتحدث عن الدولة الحمدانية ، وينتهى منها بمحاولة سيف الدولة أن يقيم أسس دولته الجديدة فى أرض بكر بعيدة عن آله ، وعن لوثات الأعاجم ودسائس المتغلبين .

لقد هداه ضميره إلى أرض الشهباء . وهنا فصل تعارضت فى شبكة حوادثه بعض الصور الفنية والتأملات الفلسفية .

وهو فى هذه الفصول يأخذ بيد سيف الدولة ، هذا الأمير الحمدانى — من ربوع آله فى الجزيرة ، متنقلاً معه حتى ينتهى به إلى دخوله حلب ، منتزعاً إياها من حكم الإخشيديين حكام مصر وولاتها . وهو يعرض لك الحوادث التى مرت بالأمير الحمدانى فى حلب حتى وطد سلطته فيها . وإذا بك بمعرض من فتوحات سيف الدولة وحروبه ، وهو يصور الأمير الحمدانى فى شجاعته وقسوته ، ودهائه ورقته وحزمه تصويراً حياً ، وهو يظهر شخص الأمير سيف الدولة فى حافل مناحيها والدوافع التى كانت تضطرب فى طوايا نفسه فتميل به إلى الحركة ،

والأهداف التى يرمى إليها ، حتى إذا انتهى من قصة حياة الأمير العربى التى تتقاب بين رفعة وذل وعلو وهبوط ، أراك أواخر أيام الرجل وقد انتهت بمأساة ، مثلهُ فى ذلك مثل أبطال التاريخ التى تنتهى حياتهم فى فاجعة أو فى صورة أشبه بالمأساة ، حيث تتحطم بهم آمالهم أو تخونهم أهدافهم ، مثل الإسكندر الذى يموت فى روعة الشباب فى بابل ، أو قيصر الذى يقتل فى روما ، أو نابليون الذى يقذف به فى جزيرة « سنت هيلانة » أو يبقى وقد صدم فى آماله ، وهجره أصدقاؤه وتقطعت بينه وبين أنصاره الأسباب ، تحفه الخواطر المزعجة والأفكار المرعبة حتى يدانيه أجله مثل سيف الدولة .

وقد مضى الباحث فى بحثه لا يبتعد عن المصادر التاريخية إلا بقدر يسترسل فيه مع التخيل لاستكمال الصورة التى يرسمها ، أو التصوير الذى يخطه ، وهو فى هذا الاسترسال فى التخيل لا يذهب فى عوالم من الإيهام ، ولا يحلق فى سماوات الخيال ، وإنما يبدو قريباً من الواقع من حيث يملأ به الثغرات التى تركها مؤرخو ذلك العصر فى حياة الأمير الحمدانى .

وفى ذيل تاريخ حياة الأمير الحمدانى لحق يتناول صلاتهم مع آل بويه فى فصل وكلام عن صلات المتنبى بسيف الدولة فى فصل آخر ، ثم فصول أخرى سريعة عن بعض الشخوص التى مرت فى إطار حياة الأمير الحمدانى فقوّمت تاريخه ، وكان على جذب ودفع مع شخصه . وموقف الأستاذ الكيالى من مختلف هؤلاء موقف الحيدة ، وإن كان هنالك بعض الميل نحو الأمير سيف الدولة ، غير أن هذا الميل لا يكاد يستشفه البصر من كتاباته إلا بصعوبة .

* * *

تستشف ، وأنت بمعرض من حياة الأمير الحمدانى كما أجلاه الكاتب المحقق الأستاذ سامى الكيالى ، تداخل قوة شخصية سيف الدولة والظروف التى أحاطت به فى حياته وفى تلوين حياته بهذا اللون الذى غمس الكاتب فيه ريشته ثم لعب بها على الصفحات التى تتجمع بين دفتيها سيرته ، فإذا بقصة حياته تبدو فى نبضاتها وخلجاتها وما لازمها من التوفيق والنجاح وما أصابها من الفشل والسقوط

كل هذا ، وأنت إزاء الدراسة التى وضعها الأستاذ الكيالى هذه الدراسة التى اشتملت على أسباب تتسق مع الطبيعة التى ركب عليها الأمير الحمدانى فأوصلته إلى ما وصل إليه . وهو فى هذا شبيه بعصبة المغامرين أمثال نابليون وموسولينى وهتلر .

غير أن شخصية الأمير الحمدانى كما جلاها الكاتب فى الدراسة التى وضعها شخصية مغامرة ، قل ما تشاء عن ذكائها وشجاعتها ودهائها ، وانطباع ذهنيتها على الحيلة والحيطة والتدبير وحسن البلاء فى الملمات والاقتدار فى الساعات العصيبة ، غير أن روح المغامرة من جانب تجعلها تجازف مستسلمة للقدر ، وهكذا اختلطت شخصية الحيطة مع المجازفة والتدبير والاستسلام للقدر ، فكان من ذلك مزيج ، هو الذى يكوّن تاريخ حياة الأمير الحمدانى ويقوّم من جهة شخصيته .

على أن المزيج والخليط من المعلوم والمجهول ليس بالشىء الذى ينفرد به سيف الدولة . إنما هو خاصة من خصائص المغامرين ، الذين يحركون التاريخ من حيث تحركهم وقائعه ، ويخلقون حوادثه من حيث يمضون فى الطريق إلى أهدافهم . ولم يكن الأمير الحمدانى غير واحد من هؤلاء . يرتفع ويهبط ، وهو جلد على الزمان لا يتأثر بهبوطها إلا بقدر ، ليعاود بقوة شخصيته الجهاد ، مهيئاً الأسباب للارتفاع ، ومقتنصاً المقوّمات ليبلغ هدفه ، وهو بعد ذلك كله ذلك الإنسان الذى يخونه التقدير — مهما أحكمه — ذلك من حيث يتعامل مع المجهول فيستسلم للغيب وما يمكن أن يكون مخبأً فى طياته ، وإذا به بعد رفعة يهبط ويذهب طىّ التاريخ بعد أن ترك فى صفحته سيرة منشورة ، تتعارض فى خيوطها آمال تحطمت ، وعظمة بدت ثم اختفت ، وبطولة لمعت حيناً ثم سرعان ما خبت .

٤

هنالك بعض الانقسام فى شخصية الأمير الحمدانى سيف الدولة . وشخصيته فى الواقع كما نراها منحلة فى شخصيتين متباينتين كل التباين : الشخصية الأولى شخص الذكر **Animus** والشخصية الثانية شخص الأنثى **Anima** ، وهذا الانحلال فى شخصية الرجل سبب من أسباب عظمته التى خلدته على الزمن بين أبطال العرب ، ويمكن للباحث أن يلمس هذا الانقسام فى الشخصية عند الأمير الحمدانى فى حبه اقتناص الفرص ، وتصرفه فى الأحوال ، وامتلاكه الظروف وتوجيهها من جهة واستسلامه من جهة أخرى للغيب وللقدر . على أن هذا الانقسام الملحوظ فى شخص سيف الدولة ، ملحوظ أيضاً فى أشخاص جميع المغامرين من الأحياء الذين ذهبوا طيّ الزمن . على أنه من المهم أن نلاحظ أن روح الرجل **Animus** من شخص الأمير الحمدانى كان يتقوّم بها جهاده وجلاده وروحه الحربية كما كانت تتقوّم بروح المرأة **Anima** من شخصه روحه الشاعرة وطبيعته الفنية ، والشخصية الأولى شخصية الرجل تبدو لك قوية من سيرة الأمير الحمدانى بينما شخصية الأنثى تبدو ضعيفة بجانبها ، على أن هذا الضعف يعود بأصل إلى تغلب شخص الذكر فى روحه على شخص الأنثى .

أما شخصية الأمير الحمدانى سيف الدولة كما أجلاها الكاتب المحقق الأستاذ سامى الكيالى فأهم شىء فيها توكيده ظهور جانب الشخصية على جانب الظروف والأحوال. على أن هذا التوكيد منه يحتاج لإبراز شخصية متعاملة مع الظروف فى صورة تخلق الحوادث وتوجد الوقائع : ذلك أن شخصية الأمير الحمدانى ، عن طريق التعامل مع الشخصيات الأخرى ، مدفوعة إلى ذلك بطبيعته التى ركبت عليها ، تخلق مجرى السيرة التى تركها فى مجرى التاريخ . على أن الكاتب يمضى فى كتابه مغلباً طريقة العرض ، وهذه تتسق مع منطق الحوادث لا منطق الشخصيات ، ومن هنا كان عيب ملحوظ بين توكيد المؤلف لظهور جانب الشخصية فى كتابه

وإظهاره الشخص فى معرض من حركة الحوادث .

على هذا يمكننا أن نتكلم عن منحى إبداع الكاتب فى السيرة التى كتبها عن الأمير الحمدانى . فى أنها تتقوّم بفن الحوادث ، تسودها طريقة العرض فتتشابك الحوادث والوقائع فى صفحة تتعارض فى شبكتها الشخصية التى تقص سيرتها . وهذه الطريقة لا تلقى ظلا كبيراً على الشخصية التى تقص سيرتها ولا تقيم لها إطاراً ولا تتقوّم بالتصوير الذى يجعلك ترى العصر والرجل بمشهد من نفسك وبمرأى من بصرك .

على أن هذا المنحى فى الإبداع يلوّن الكتاب بلون خاص من حيث يتسق مع طريقة التفنن فى العرض ومنحاه . ذلك أن فن الحوادث يتطلب حركة عالية كثيرة الأصوات ، ظاهرة النبرات . واضحة الخلجات ، وهذا ما تلمسه فى الكتاب خصوصاً فى وصف الكاتب حيث يحمّل الأسلوب حركة ، ويعطى اللوحة سعة ، ويعمل على التناسب فى الخطوط والألوان .

غير أن الحركة فى الأسلوب ، والسعة فى التصوير تحتاجان أن تكون الخطوط والألوان قوية رغم تناسبها ، ظاهرة رغم اتساقها ، وتكاد تكون هذه من أخص ما يميز أسلوب الأستاذ الكيالى فى دراسته هذه ، وفى كتابه « شهر فى أوربا » الذى أصدره فى أعوام خلت .

هذه الحركة فى الأسلوب ، والسعة فى اللوحة ، والقوة فى الألوان ، والظهور فى الخطوط تذهب مع العاطفة المتقدة والمشاعر الفائرة ، فتعطى الكتاب طابعاً « رومانسيًّا » من جهة الشكل . والواقع ، أن الأستاذ الكيالى يتناول فى دراسته هذه شخص الأمير الحمدانى بحرارة ، وهذه الحرارة يسلطها على عصر الرجل وحياته فينبض بالحياة التى تغمرك وتجعلك تعيش فيها برهة من الزمان .

* * *

أسلوب الكتاب تنقصه الدقة التعبيرية وشىء من صقل الألفاظ ، والواقع ، أن هذا النقص يغطى عليه ما يتوهج فى الكتاب من عواطف ومشاعر ؛ والحقيقة أن المؤلف يشترك فى هذا الوضع التعبيرى مع كل كتاب سوريا ولبنان على وجه

عام ، ذلك أن الحيوية التى يمتازون بها ؛ والنشاط والحركة التى تتقوّم بها أرواحهم لا تترك لهم مجالاً للتأنى فى اختيار الشكل الذى يصوغون فيه المعنى والفكرة ، أو فرصة لصقل العبارة ؛ وهم فى ذلك على نقيض إخوانهم من كتاب مصر الذين تساعدهم طبيعتهم الساكنة وروحهم التى لها طابع الاستقرار ، أن يصقلوا عباراتهم ويصوغوا فى عقولهم من المعانى أو الفكر فى أشكال تمتاز بدقتها التعبيرية وطابعها المصقول ، فإن كان فى جهة مصر دقة التعبير وصقل العبارة ففى سوريا ولبنان توهج الشعور ، وغلبة العاطفة ، وبروز الروح ، وحركة الأسلوب ، وسعة اللوحة ، وظهور الألوان ، ووضوح الخطوط . وما كان بمستطاع الأستاذ الكيالى إلا أن يكون من جانب سوريا ولبنان نزولا على حكم مولده وأصله ومنشئه وثقافته .

خاتمة

أما وقد انتهينا من التقدمة إلى هذا الحد ؛ فلى أن أختتمها بكلمة عن صديقنا صاحب الدراسة .

الواقع أن الكاتب المدقق الأستاذ سامى الكيالى كاتب نابه على جانب كبير من النشاط . نجح فى أن يجعل حلب – عاصمة الحمدانيين على عهد سيف الدولة – مركز نشاط أدبى قوى ملحوظ من كل العالم العربى ، ومدار هذا النشاط كان ولا يزال مجلته الراقية « الحديث » التى خطت لليوم ثلاثة عشر عاماً (١) ، ولا شك أن هذا حدث عظيم فى تاريخ هذه المدينة التى غرق حاضرها فى لجة ماضيها والتى لم تكن مركز أى نشاط أدبى ملحوظ فى الأزمنة الأخيرة .

لقد كانت الروح الاقتصادية والنشاط التجارى تطغيان على كل شىء ، من حيث كانت تتمثل فيها روح المدينة . على أن هذا النشاط التجارى من حيث افتقد مقوماته الخارجية نتيجة للأوضاع السياسية التى قامت بعد الحرب العظمى فى الرقعة التى تمتد من صحراء بلاد العرب حتى آسيا الصغرى – قد تحوّل هذا النشاط ببعض أبنائها إلى الجانب الثقافى ، فكان أن أصبحت حلب فى السنين الأخيرة مركز نشاط أدبى وحملت مشعل الثقافة فى سوريا الشمالية . على أن ما شهدته مدينة حلب من ألوان النشاط الأدبى كان محوره الأستاذ سامى الكيالى الذى افتتح حياته الأدبية عقب الحرب العظمى بمقالات كان يرسلها على صفحات كبرى المجلات الأدبية المصرية . ولقد جمع منها باكورة آثاره فى كتاب « نظرات فى الأدب والاجتماع » ، ثم كان أن أصدر عام ١٩٣٥ كتابه « شهر فى أوربا » وهو عرض سريع لما تراءى له فى رحلته القصيرة الحافلة بمختلف الصور فى بلاد الغرب ، وفى هذا الكتاب يبدو فن الأستاذ سامى الذى يتميز بالحركة فى الأسلوب ، والسعة فى اللوحة ، والزخور فى الصور الفنية ، والإطلاق للمشاعر المترعة من الوجدان تفيض بالحياة والحرارة . وإذا نحن نظرنا إلى كتابه « سيف

(١) كتبت هذه المقدمة سنة ١٩٣٩ وقد واصلت المجلة رسالتها الأدبية ، وهى اليوم فى عامها الثالث والثلاثين .

الدولة وعصر الحمدانيين» وجدنا الأستاذ سامى الكيالى يكشف عن ناحية قوية من نواحى نشاطه .

وإذا كنت الآن أخلّى بين القارئ وكتاب الأستاذ سامى الكيالى فإنى أشعر بأن القارئ سينعم فترة من الزمن فى هذا الجو الفنى الذى خلقه المؤلف فى كتابه . وإنى أشكر لصديقى هذه الفرصة التى مهّد لى فيها أن أعيش فى كتابه، آملاً أن يجد القراء ما وجدته فى الكتاب من متعة ولذّة .

إسماعيل أحمد أدهم

توطئة

أترى المتنبي مديناً بشهرته إلى سيف الدولة أم أن الأمر بالعكس ؟ . . أم أن كليهما عصامي قد ربطت بين قلبيهما العظمة فتلاقيا على ضفاف العاصي وما إن تقدم الشاعر إلى الأمير بقصيدة من قصائده الغر حتى تعارفا وظلا فى صحبة بعضهما عشر سنوات كاملة إلى أن فرق الدهر بينهما أو قل نفث الحساد سمومهم فى شعبات قلبيهما فترك الشاعر أميره وقلبه يردد هذه الحرقات :

أزِلْ حَسَدَ الحسّادِ عني بكبْتهمْ ... فأنت الذى صيرتهم لى حُسَّدَا
إذا شدّ زندى حسن رأيك فيهمُ ... ضربت بسيفٍ يقطع الهام مُغْمدا
وما أنا إلاّ سمهريٌّ حملتَه ... فزيّنَ معروضاً وراعَ مسدّدا
وما الدهر إلاّ من رواةِ قصائدى ... إذاقلتُ شعراً أصبح الدهر منشدا(١)

يذهب البعض إلى أن المتنبي هو الذى خلّد سيف الدولة بقصائده التى قد تزيد على ثلث ديوانه ! . . وأنه لولا المتنبي لما دوى اسم سيف الدولة هذا الدوى القوى الذى يغيب فى طواياه الكثير من ذكرى أمراء الإسلام . . وقد يكون فى هذا بعض الحق . . أما نحن فلسنا من هذا الرأى . . نحن نذهب إلى أن الأمير الحمدانى هو الذى ألهب شاعرية المتنبي بغزواته وحروبه ، وبعطاياه وهباته ، وهو الذى ساعد على ذيوع اسمه وخلود ذكره بهذا العطف الذى حباه به، وبتفضيله على غيره من الشعراء فأبدع وأطرب وتفجرت الحكمة ريّانة من

---

(١) لم تكن هذه الأبيات هى آخر ما قاله قبل مغادرته حلب ، ولكننا اخترناها لأنها تصور منازع نفسه أصدق تصوير ، ويتفق المؤرخون على أن آخر ما أنشده من الشعر الميمية التى يقول فى أولها :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ... ماذا يزيدك فى إقدامك القسم

جوانب قلبه وطيات نفسه ! . . ثم أليس فى اصطفاء سيف الدولة للمتنبى الشاعر الذى قدمه إليه والى أنطاكية أبو العشائر الحمدانى ما ينم على ما كان يتقد به قلب أمير حلب من حب صميم عميق للأدب الزاخر بروائع الحكمة ، ومن إجلال خالص لشاعر عبقرى عرف كيف يذيع اسم أميره عالياً ويرتفع به إلى السماكين ! . .

لقد نشأ على هامش الدول الإسلامية أمراء كثيرون ، واتصل بهم شعراء كبار نفحوهم بشعر قوى وبعاطفة رزينة فما كانت تلك القصائد لترفع بأولئك الأمراء إلى المكانة السامقة التى يتربع عليها الأمير سيف الدولة فى صدر التاريخ. ومردّ هذا ، على ما أعتقد ، إلى عظمة سيف الدولة . والشاعر مهما عمد إلى المبالغة فى رسم صفات ممدوحه فهو لا يستطيع أن ينأى عن الحقيقة . . وفى حياة سيف الدولة حقيقتان بالغتان : مغامراته الفذة كأمير خاض مئات المعارك الدامية فى حروبه مع الروم ، ونفسه الكبيرة التى تراقصت على أشعة ضوئها مئات السجايا النبيلة التى حار الشعراء فى رسم صورها ووصف ألوانها . هاتان الحقيقتان هما اللتان أيقظتا مئات المعانى الجديدة فى نفس المتنبى . . وإذن ، فلسنا نبتعد عن الواقع إذا هززنا هذا الاتجاه الذى يردده بعض مؤرخى الأدب بأن المتنبى هو الذى خلد سيف الدولة وأنه لولا المتنبى لكان — الأمير الحمدانى — نسياً منسياً ! . ، فسيف الدولة لم يشتر قصائد شعرائه بالمال ؛ بل كانت أعطياته صدى حقيقياً لتذوقه الأدب وإكرامه لرجال الأدب. لأن من يحاول أن يبتاع ضمير الشعراء بماله يكون فى حاجة إلى المجد والعظمة ، أما سيف الدولة فكانت العظمة والمجد بعض نثار بردتيه ، لهذا ، نحب أن ننصف سيف الدولة من ظالميه دون أن نغمط الشاعر المتنبى — مالئ الدنيا وشاغل الناس — ولا غضاضة إذا قلنا إن المتنبى كان مديناً — إلى حد ما — بشهرته إلى سيف الدولة بن حمدان ، هذا الأمير العربى الذى لم تكن فروسيته وغزواته وحبه العميق للأدب موضع إعجاب المؤرخين العرب فحسب بل هزّت مناقبه وعبقريته المغامرة فى الحب والحرب مشاعر مؤرخى الإفرنج ، فخصوه بالكثير من بحوثهم ودراساتهم مما جعله فى

طليعة الأمراء الذين تحاك حول أسمائهم هالة مضيئة من المجد . .

يقول غوستاف سيشلمبرجر : « شغل سيف الدولة أذهان المؤرخين والكتاب والشعراء فى القرن العاشر فما إن تقرأ صفحة لمؤرخ بزنطى ، أو قطعةً لكاتب من كتاب ذلك العصر ، أو قصيدةً من قصائد شاعر من شعراء العرب أو اليونان حتى يستهويك الوصف والحديث عن هذا العدو الجذاب الذى حارب الإمبراطورية البيزنطية بفرسان كان نصفهم من شعراء البوادى وكان نصفهم الآخر من أمراء الحواضر . . »

ويقول الكاتب فى موضع آخر :

« لقد أقسم مؤرخٌ بزنطى زار حلب فى عصر سيف الدولة أن قصور الخلفاء فى بغداد وقصور ملوك الروم فى القسططينية كانت أقل بهاء من قصور سيف الدولة . وقال هذا المؤرخ إن الفنون على تباين أنواعها كانت مضطهدة فى عاصمة المسيحية . ولكنها كانت تنعم بتسامح كبير فى عاصمة الدولة الحمدانية . . وقد كان المصورون والمثالون من الروم يخرجون من ديارهم على كره منهم لأن قيصر قد أرادهم على هذا التشريد .. فكانت حلب تستقبل جميع هؤلاء ، وكان سيف الدولة يكرمهم ثم يستفيد منهم ويمتحن عبقرياتهم ثم يستغلها استغلالاً حسناً ويقبس من تحاسينها وتزاويقها ما يزيد فى تحاسين حضارة بلاده . . »

وقد يكون من الغضاضة بمكان الازدراء بمفاخرنا القومية وإهمال دراسة هذا الأمير العربى الفذ ولمن خصومه هذه المكانة التى يحسده عليها أكابر المغامرين ليس فى العصور القديمة بل حتى فى هذا العصر . .

فى الواقع ، أن سيف الدولة يختلف عن غيره من أمراء الإسلام بل يمتاز عنهم بمفاخر كثيرة : بفروسيته ، بتذوقه الرفيع للأدب ، بروحه الكبيرة التى كانت تحلم بالسيطرة وتأسيس مملكة عربية مترامية الأطراف ، بإيقاده نيران الفتح فى صدور فتيان العرب ، بغزواته وحروبه التى صدّت عاديات الروم عن بلاد الشام وأطراف العراق غير مرة ، وبمغامراته وحبه ، وبكرمه وعطاياه التى كان ينفح بها جيوب الشعراء فيهز قرائحهم هزّاً مثمراً ، ثم بهذه المجالس الأدبية التى

كان يرؤسها ؛ وبأشياء كثيرة نحب أن نعرض لها فى هذه الدراسة لنجلى بعض هذه المناقب المثلى المبعثرة فى كتب الأدب والتاريخ ولنربط بين هذه الصور وبين تاريخ حلب الأدبى فى العصر الرابع الهجرى . . بلى . . وإنا لنحب أن نرافق هذا الأمير فى مراحل حياته وأن نبعث بعض هذه الذكريات الدفينة من قلب التاريخ ففى تقصّى هذه المراحل ما يثير أمامنا الكثير من القصص المليئة بشتّى الصور التى نرى فى أصباغها هذه الألوان الجديدة التى كادت تغيب فى أحشاء العدم !

* * *

ولد سيف الدولة ، أبو الحسن ، على بن عبد الله بن حمدان التغلبى الربعى سنة ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م وفى رواية سنة ٣٠١ هـ فى ميّافارقين — أو مدينة الشهداء — أشهر مدن ديار بكر . . وهى المدينة القديمة التى يحدثنا ياقوت فى معجمه أحاديث طويلة عن ازدهارها بالأبراج الكنائسية وبصور القديسين وأقاصيصهم منذ عهد البيزنطيين ! . .

ولسنا نعلم شيئاً عن طفولة أميرنا ، ولكن هذا لايمنع أن نلمس صورها على ضوء الخيال والافتراض . . فى الواقع . . أن أميرنا الطفل لم يولد فى بيت زرى ، ولم يحتوه كوخ قد ازورّت فى جوانبه الأقدار . . كلا . فقد ولد فى بيت تشرق الشموس فى آفاقه وتفوح العطور من أجوائه ، ولا شك أن أباه قد رعاه هذه الرعاية الأرستقراطية التى جعلت عينيه تتفتح على مباهج الحياة ومفاخر المجد ، وأن تتطاول عنقه إلى صولجان الملك.. وتشاء الأقدار الباسمة أن تقترن ولادة سيف الدولة بارتقاء أبيه إمارة الموصل وأرض الرافدين ، فأية نشوة فرح هذه التى هزت قلوب الحمدانيين ؟ .. إن أميرنا الطفل فى غفوة عن هذه المباهج فهو فى سرير الطفولة ينعم بأحلامه الذهبية ، تهزه يد جواريه أو يدٌ رحيبة هى يد أمه الحنون التى تقرأ فى وجهه الصبوح مخايل الملك . وإذ تهز سريره تشعر كأنها تهز أعصابه ليشب سريعاً وليكون عضد أبيه فى رفع هذا البيت الحمدانى الكريم . .

يقول المستشرق أندره دايفتس متحدثاً عن طفولته فى روايته الطريفة التى

كتبها عن تاريخ حياته : « إنه منذ ما ابتدأ الأمير سيف بالمشى عرف الناس أنه سيكون الأكثر جمالاً بين أبناء حمدان ، وكان وجهه يبتسم كما يبتسم الياسمين فى الربيع ، وبرقت عيناه بنور النجوم ، وامتلأ قلب والدته انتعاشاً، وكانت ابتسامته تتفتح على الناس كما تتفتح براعم الأزهار عند الصباح . وكان ذكاؤه حاداً ومستغرباً . لهذا وضعه والده بين أيدى حكماء الموصل العظماء الذين لقنوه العلوم والشعر ، وكان يريد أن يجعله عالماً يفوق جميع علماء بلاطه ، إنما الله وحده يعرف ما يعرف . . وما قُدِّر يكون ! ! » .

إذن ، فلم يكد الأمير سيف يبلغ العقد الأول من حياته حتى أسلمه أبوه إلى العلماء والحكماء يدرّبونه ويلقنونه الحكمة وصنوف العلم ، وقد كان ذكاؤه الحاد خير مشجع له على أن يزدرد حكمة وعلوم ذلك العصر ، أى أن يأخذ من كل شىء بطرف ، وأن يهز قلبه الأدب والشعر أكثر من كل شىء . . وأن يكون لهوه فى القنص وركوب الخيل والرمى ، وأن تخفق قلوب الفاتنات بحبه ، وأن تكون أقاصيص الغزوات والحروب هى أشهى ما يستهوى فؤاده . .

ويشب أميرنا الطفل ، ويصحب أخاه إلى بعض الغزوات ، ويظهر شجاعة نادرة وإقداماً عظيما وصبراً على المكاره وبلاءً حسناً فى خوض المعارك ، ويذيع اسمه فى الموصل وأطراف الجزيرة ثم يسافر إلى بغداد وينعم بعطف الخليفة المقتدر وتزداد الأحاديث عن شجاعته ومغامراته ، ويشاهد عن كثب أو عن قرب هذه الاضطرابات التى انتهت بقتل أبيه وخلع الخليفة المقتدر فيزداد حنقاً وثورة ووثوقاً من نفسه وإيماناً بالله .

وسيف الدولة شاب عصامى ، وفتى مغامر ، ورجل تشعّ مخايل الفتوة من بريق عينيه ، أحس وسط هذه الزعازع العصبية أن الإمارة قد ألقت أعباءها على كتفيه ، فأقدم ولم يحجم ، ولم يخف تهجم الزمن وعبس الإقدار بل ادّرع للأهوال بنفس مليئة ، وقلب جياش ، وإيمان قوى ، وعزم يصارع الأحداث . .

ولو أن غير سيف الدولة ولد فى هذا العصر الذى كان يعج بالدسائس والاضطرابات وقد ضربت الفوضى رواقها فى كل بقعة إسلامية وأصبح الخليفة

ألعوبة بأيدى الأعاجم — لو أن فتى غير سيف الدولة جابه هذه الأحداث لابتلعته وطوت اسمه دون أن تفسح له صحف التاريخ ولو سطراً واحداً ! . . ولكن الأمير سيف عرف كيف يشق لنفسه طريق المجد ، وعرف كيف يثور على الاضطرابات ، وكيف يؤسس مملكة جديدة على أنقاض العروش والتيجان فما كاد يبلغ الربيع الثانى من حياته حتّى كان قد استولى على « واسط » وما جاورها ثم مال إلى الشام فامتلك دمشق بعد أن طرد الإخشيديين ، ومنها عاد إلى حلب فملكها عام ٣٣٣ هـ . وهنا ذاع صيته وسما مجده وخلد اسمه بين أعاظم أمراء العرب والإسلام . .

الحمدانيون

نحب قبل أن نعرض إلى حياة سيف الدولة وقبل أن يتناول بحثنا «الدولة الحمدانية» أن نخص هذا الفصل بالحمدانيين : من هم ؟ كيف نشأوا ؟ بمن اتصلوا ؟ كيف فرضوا أنفسهم على التاريخ ؟ ما هى الأحداث التى مرّت بهم أو مرّوا بها ؟ فى عهد منْ من الخلفاء كانوا ؟ ما شأن أولئك الخلفاء من العهد العباسى ؟ ثم ما هو لون السياسة فى ذلك العهد ؟ . . إن بحث هذه النواحى وكشفها على ضوء التاريخ سيساعداننا على بحث الدولة الحمدانية وتناول سيرة سيف الدولة بالإسهاب الذى نريد أن نعرض له . . . وإذ نتساءل فى صدر هذا البحث عن الحمدانيين.. منْ هم؟ من أين تحدروا ؟ إلى أية قبيلة يمتّون؟ يجيبنا المؤرخ الكبير ابن خلدون بقوله :

«ينتسب الحمدانيون إلى قبيلة تغلب ، وكان بنو تغلب بن وائل من أعظم بطون ربيعة بن نزار ، وكانوا من نصارى العرب الجاهلية لهم محل فى الكثرة والعدد ، وكانت مواطنهم فى الجزيرة وديار ربيعة ، ثم ارتحلوا مع هرقل إلى بلاد الروم ، ثم رجعوا إلى بلادهم وفرض عليهم عمر بن الخطاب الجزية فقالوا يا أمير المؤمنين لا تذلنا بين العرب باسم الجزية واجعلها صدقة مضاعفة ففعل ، وكان قائدهم يومئذ حنظلة بن قيس بن هرير من بنى مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، ثم كان منهم بعد ذلك فى الإسلام ثلاثة بيوت : آل عمر بن الخطاب العدوى ، وآل هرون المغمر ، وآل حمدون بن الحدث بن لقمان بن أسد [1] » .

وعلى هذا فالحمدانيون بطن من بنى تغلب بن وائل من العدنانية ، أى أنهم يتحدرون من أصل عربى صميم ، من العدنانية التى ولدت العربية فى كنفها ، وما زالوا يتنقلون بماشيتهم وأموالهم وخيامهم على حالة القبائل العربية من تهامة إلى

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٢٧ .

نجد إلى الحجاز إلى أرض ربيعة إلى ضفاف الفرات حيث نزلوا سهل الرقة الفسيح ، ومنها انتقل حمدان بن حمدون إلى الموصل . وكان حمدان جد الأمراء الحمدانيين رب قبيلة تنظر إليه بقية القبائل بالتجلة والاحترام . أنجبت عدة أولاد نشأوا نشأة عصامية وألقوا بأنفسهم فى ميادين المغامرة والحرب فانتصروا وخذلوا ، وكانت حياتهم تتصف بالعنف والقوة ولا تعرف الهدوء والسلم إلا لماماً . وقد رافقت نشأة الحمدانيين ضعف الدولة العباسية وغروب شمسها فكان الخليفة العباسى وهو يشهد تقلص سلطانه وضعف كيانه أشبه بهيكل عظمى يقنع من مظهره الخارجى بأن لا تمتد إليه يد التحطيم !

لقد سما العباسيون إلى المجد فى أول نشأتهم وظلوا عصراً كاملاً رمزاً للسيادة الفكرية والسياسية ، وما إن تهاونوا بالعصبية العربية وأفسحوا المجال للأجنبى الدخيل — للأتراك والفرس وللديلم والسلجوقيين — حتى بدأ الضعف يدب فى كيانهم فتمزقت سيادتهم واضطرب نظامهم ، وعمت الفوضى فى كل بلدة وصقع ، ونفذت عناصر الفساد إلى صميم الحياة فطبعتها بلونها القاتم ، وأصبحت الخلافة اسماً موهوماً والخليفة شبحاً ضئيلاً مما حدا بكثير من المؤرخين أن يتفقوا على أن كلمة الإسلام قد تفرقت فى دولة بنى العباس . ولسنا نريد أن نسترسل هنا بذكر الأحداث التى مرت بالدولة العباسية بعد ازدهار سلطانها مدة عصر كامل أى بذكر هذه العواصف التى هبت عليها فى أواخر القرن الثالث للهجرة حيث انتهت إلى حالة من الانحدار والضعف أدى إلى أن يستغل كثير من الأمراء هذا التفكك وأن ينشئوا لهم حواضر مستقلة وإمارات مختلفة انتهت بانحلال تلك الإمبراطورية الكبرى التى أورثها الخلفاء الراشدون والأمويون العالم الإسلامى . نعم ، لسنا نريد أن نسترسل بذكر هذه الأحداث ولكن هذا لا يمنع أن نشير إلى الأسباب التى يرددها صفوة المؤرخين من عرب ومستشرقين ومن عرض إلى الدراسات الإسلامية — إلى أن اعتماد بعض الخلفاء العباسيين — وفى طليعتهم المعتصم وابنه الواثق — على الأعاجم ، وإقصاءهم العرب عن حظيرة الملك ، والانتقاص من كفايتهم والشك فى إخلاصهم مما جعل أمراء العرب يمتعضون من هذا الإيثار

الذى مس عصبيتهم وكان — كما قدمنا — سبباً مباشراً لتدهور تلك الإمبراطورية العظمى وتمزق وحدتها تمزقاً مريعاً ! . .

والذى يمعن بدراسة أطوار الاضطراب التى وسمت العهد العباسى بعد سيطرة الأعاجم على الخلفاء يحس بالهلع يهزّ نفسه هزّاً مؤلماً .. ذلك لأن الأمر لم يقف عند سيطرتهم السياسية وتدخلهم الإدارى فى جليل الأمور وحقيرها . بل وصلت بهم الخساسة والكيد أن يتعمدوا إهانة الخليفة لا لسبب يدعمه المنطق بل لمجرد إعلان سيطرتهم وطمأنينة شهوتهم فى الحكم وجشعهم فى المال . ومأساة الخليفة المعتز ترينا لوناً قاتماً من ضعف الخلافة وتهلهل ثوبها الفضفاض . وخلاصة هذه القصة الحزينة أن قواده ، وجلهم من الأتراك ، تقدموا إليه يوماً يريدون مواجهته فاعتذر إليهم فلم يصغوا إلى اعتذاره وألحّوا بوجوب مقابلته فقابلهم فى قصره مضطراً — كأنه شعر بما يخبئون له من مكائد فأراد أن يردهم فلم يوفق — وما كادوا يدخلون عليه حتى تناولوه بالتقريع ثم بالضرب بالدبابيس حتى تمزقت ثيابه وسال الدم عن منكبيه ، ولم يكتفوا بهذا ، بل أقاموه مدة فى وهج الشمس تشوى حرارتها أقدامه . وكانوا يلطمونه أحياناً فيتقى اللطمات بيده .. ويزيد الطبرى الذى نقلنا عنه هذا الخبر أنه لما خُلع دفع إلى من يعذبه فمنع عنه الشراب والطعام ثلاثة أيام ، وقد وصل به الظمأ أنه طلب حسوة من ماء البئر فمنعوها عنه . ثم جصصوا سرداباً بالجص السخين لم يكد يحمى حتى أدخلوه فيه وأطبقوا عليه بابه فأصبح ميتاً واستحال رماداً ! .. وهذا بدون ريب أفظع أنواع التعذيب . وقد يسأل القارئ : ولمَ كل ذلك ؟ فيجيبنا الطبرى أن جند الأتراك قد طالبوه بأرزاقهم أى برواتبهم فلم يكن لديه المال الكافى لدفع هذه الرواتب فانتهت حياته بهذه المأساة الموجعة ! . . ولقد تكررت هذه المآسى بألوانها الداكنة المظلمة مع غير واحد من الخلفاء ، منذ عهد المعتصم حتى المتقى الذى خلفه القائد التركى توزون بعد أن سمل عينيه !

ولم يكن الخليفة سوى رئيس دينى لا أمر له ولا نهى ، ولا وزير يعتمد عليه ، وكل ما هو تحت سيطرته كاتب يدير له إقطاعاته وإخراجاته ؛ وقد لا نعدو

الحقيقة إذا التمسنا صورة الكثير من الخلفاء العباسيين فى عصر الاضطراب فى شخص السلطان محمد رشاد الخليفة العثمانى الذى كان سلطاناً بالاسم وكان الأمر كله بيد الاتحاديين ، ولكن الاتحاديين اكتفوا بالسيطرة والغلبة وتدبير شئون الملك دون أن ينالوا السلطان بالأذى لأنه أطلق لهم الحبل على غاربه ، أما الخلفاء العباسيون فكانوا — على ما يظهر — يقاومون هذه التهجمات من وراء ستار خفى ! . ولو أننا نتكلم عن بعض الخلفاء العباسيين فى هذه الفترة التى بدأت بزوال سلطتهم لكتبنا فصلاً فى المقارنة بين تفكك السلطنة العثمانية والدولة العباسية والأحداث التى رافقت سقوط المملكتين مما يجعلنا نردد هذه الكلمة التى أصبحت رمزاً تاريخياً لتشابه الأحداث وهى أن التاريخ يعيد نفسه ، أى أن صوره تتكرر بتوالى الأحقاب والأزمان !

* * *

شهد الحمدانيون هذه الأحداث التى هزّت الإمبراطورية الإسلامية هزة انتهت إلى انفراط عقدها وظهور دويلات وإمارات مستقلة على يد الأتراك والفرس والكرد وبعض القبائل العربية ، وشهدوا تقلص نفوذ العرب وذوبانه تحت سيطرة الدخلاء بشكل مزر فرأوا أن يقوموا بنصيبهم من حمل هذا العبء ، وأن يصونوا التراث العربى ، وأن يذودوا ما استطاعوا هجمات الروم عن الثغور الإسلامية . فجرّت المنافع المادية بعضهم إلى الهاوية حيث المطامع تثور وتغلى ، وارتفعت المبادئ السامية ببعضهم فكان دفاعهم عن العروبة والإسلام مجيداً . على أننا ونحن نتكلم عن الحمدانيين نجب أن نلم إلمامة بهذه الأحداث التى احتملوها خلال هذه الفترة التى ابتدأت عام ٢٢٢ هـ وانتهت أو كادت عام ٣٣٤ هـ حيث سما مجد الحمدانيين على يد الأمير المغامر سيف الدولة .

* * *

يرافق ظهور الأسرة الحمدانية ارتقاء المعتضد عرش الخلافة وقد تسلمها وهى على ما هى عليه من التفكك والانحلال ، أراد هذا الخليفة أن يرأب الصدع وأن ينهض بهذه المملكة الكبيرة وأن يعيد لها رونقها وبهاءها بكل ما فى نفسه من

حب الإصلاح وما فى شخصيته من سمات الحزم وقوة القلب وشجاعة الرأى ولكن هيهات هيهات أن يبلغ وطره وأن تتحقق أمانيه ! . . لقد كانت الجزيرة فى اضطرابها الدامى، وكان القرامطة يعيثون فى البلاد فساداً ويهزون العقائد هزًّا عنيفاً ، وكان التشاد بين الأتراك والعرب قد بدا لأول مرة فى عهد المعتضد ؛ وكان تخلى العباسيين عن العرب والتمكين للأعاجم فى شئون الملك سبباً مباشراً لأن يحافظ عرب الجزيرة وبالأخص بنو ربيعة وبنو مضر على استقلالهم . وكان أكثر هؤلاء العرب خروجاً على تلك الأوضاع الشاذة عرب بنى شيبان الذين أضرموا الثورة فى طول البلاد وعرضها مما اضطر الخليفة أن يطفئ لهيب هذه الثورة فوفق إلى إطفائها بكثير من الجهد . ثم أراد بعد أن أخضع بنى شيبان أن يهز هذا الاستقلال الذى أعلنه حمدان بن حمدون جد الأسرة الحمدانية فى قلعة ماردين. كان ذلك سنة ٢٨١ هـ فجهز المعتضد جيشاً كبيراً وسار به إلى ماردين . واتصل الخبر بحمدان فانهزم فى جوف الليل وترك القلعة إلى ابنه الحسين الذى دافع عنها دفاع الأبطال فلم يستطع الخليفة أن يستولى عليها ورجع بجيشه إلى الموصل وكتب إلى حمدان يطلب إليه الخضوع والاستسلام فأبى ، عندئذ جهز جيشه للمرة الثانية وناط أمره بغير واحد من كبار القواد الأتراك وسار هو على رأس هذه الحملة إلى ماردين مما اضطر ابن حمدان أن يستسلم هذه المرة وأن يفتح باب القلعة للخليفة الذى لم تكد خيوله تطأ أرضها حتى أمر بهدمها بعد أن نقل كل ما فيها من ذخائر ونفائس إلى بغداد . ثم رأى أن استيلاءه على القلعة لا يحقق أمانيه من إخضاع الحمدانيين فأرسل من يتعقب حمداناً ولكن أين هو حمدان ؟ هل اختبأ فى ركن مظلم كالخائف الرعديد ؟ لا . لقد ركب زورقاً كان له على ضفاف الدجلة وعبر به إلى الجانب الغربى أى إلى ديار ربيعة حيث نزل فى خيمة رجل من الخوارج واستظل بحماه دون أن يعلم من أمر هذا الخارجى شيئاً ، وظنه من هؤلاء الذين أعلنوا الثورة والعصيان على الخليفة مع أنه قد أعلن توبته واستسلامه إلى الخليفة من عهد غير بعيد . . . وبعد أن أجار حمدان وآواه نكث عهده وسلمه إلى الخليفة الذى زج به فى غياهب السجن .

إذن ، فسيرة جد الأسرة الحمدانية تبدأ بالثورة على السلطان وإعلان الملك والدخول فى معامع وقتال طويل ، ثم تنهى ثورته بالاستسلام وبدخوله السجن .

وظهر فى خلال هذه الفترة خارجى من القرامطة اسمه هارون الشارى ، وكان رجلاً مغامراً ، خاض عدة حروب ولديه قوة كبيرة ورجال أشداء استطاع أن ينتصر بهم على جيوش الخليفة مما أقلق باله وأقض مضجعه ، وبعد أن خذل غير مرة رأى أن يستعين بالحمدانيين أى أن يضرب الحديد بالحديد كما يقولون ! فمن هو الذى سيغامر بهذه الحروب ؟ ومن هو البطل الذى سيقضى على هذا الخارجى المتمرد ؟ رأى الخليفة بعد تفكير طويل أن الحسين بن حمدان هو خير من يقوم بهذه المهمة فندبه لحرب هارون ، ولكن جرح الحسين بن حمدان لم يلتئم بعد ، فتردد أولاً ثم رضى بعد أن اشترط على الخليفة ثلاثة شروط إن هو وفق فى مهمته. سأله الخليفة : ماذا تكون شروطك؟ أجابه على الفور : إطلاق سراح أبى ... وسكت. فقال له الخليفة : ثم ماذا ؟ فصمت دون أن يحير جواباً ، ثم قال للخليفة : إننى أذكر مولاى الخليفة بالشرطين الباقيين بعد أن أوفق فيما ندبت إليه ! . . وسار على رأس جيش من جنوده وأتباعه مع جيش آخر انتدبه الخليفة وعلى رأسه قائد تركى — وقد يكون من الذين حاربوا الحسين فى معركة ماردين — فما زال مع هارون الشارى فى حرب ضروس حتى ظفر به واقتاده أسيراً إلى المعتضد ، فسر الخليفة جداً وعرف للحسين بلاءه وبطولته فأمر حالاً بإطلاق سراح أبيه من السجن وطوق عنقه بالهدايا الثمينة وخلع على إخوته العطايا وأحسن إلى هذه الأسرة العربية إحساناً جعلها موضع رعايته وعطفه . . وقد يسأل القارئ وما هما الحاجتان اللتان لم يبح بهما آنئذ للخليفة ؟ فنستطيع أن نقول إنهما طويا فى نفسه دون أن يبوح بهما !

ودخل الأمراء الحمدانيون بعد فوزهم هذا فى طاعة الخلفاء وفى خدمتهم فتقلدوا المناصب الرفيعة ومنحهم الخليفة ولاية الموصل فاستقلوا بها ثم وسعوا نطاق حكمهم إلى ديار بكر والجزيرة وسورية مما سيجيء الكلام عنه مفصلاً فى الفصول الآتية .

وبوفاة المعتضد خلفه على سرير الخلافة ابنه المكتفى عام ٢٨٩ هـ وسار المكتفى على خطة أبيه من الثقة بآل حمدان والركون إليهم فى كافة الشئون لأنه رأى فيهم العنصر العربى القوى الذى يشارك الخلفاء فى شعورهم وأحاسيسهم . ورأى المكتفى أن يولى أبا الهيجاء على الموصل وأعمالها [1] فنزل هذا العطف من نفسه أعظم منال ورأى أن يشخص إلى بغداد على رأس جيش كبير ليقدم إلى الخليفة خضوعه ويشكره على هذا العطف الذى حباه به . ولم يكد يرأس حفلة عرض الجيوش بأمر الخليفة حتى شاع فى العاصمة أن الأكراد الهذبانية قد أغاروا على « نينوى » ونهبوها ، وكما استعان المعتضد بالحسين بن حمدان لتأديب القرامطة والخارجين استعان المكتفى بأخيه أبى الهيجاء لتأديب الأكراد الهذبانيين ، ورأى أبو الهيجاء أن الفرصة سانحة ليؤكد إخلاصه بتأديب الهذبانيين وإعلان سطوة الحكومة فى شخصه . والتقى بهم بعد أن عبر إلى الجانب الشرقى ولكنه لم يستطع أن يخضعهم لقلة جنوده وكثرتهم فاتصل بالخليفة وأنبأه بنتيجة المعركة وطلب منه الإمداد ليقضى عليهم نهائياً وما كادت النجدة تصل إليه حتى كان الهذبانيون قد تفرقوا شذر مذر وما زال يلاحقهم حتى أعلنوا خضوعهم واستسلامهم على يد أبى الهيجاء .

ويظهر أن هذا العطف الذى ناله أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان من الخليفة المكتفى قد أوتر صدر أخيه الحسين بن حمدان الذى كان فى خدمة المعتضد ، فاكتفى بأن يظل فى خدمة الخليفة على قيادة الجيش بينما أبو الهيجاء أمير مستقل فى الموصل . وفى عام ٢٩٥ هـ بويع المقتدر بالخلافة واشترك الحسين بالمؤامرة التى دبرت لخلع المقتدر ولكن الدسائس أحبطت هذه المؤامرة وانكشف أمرها ، ورأى الحسين أن يتوارى من وجـــه الخليفة ففرّ فى جنح الليل . وأراد المقتدر أن ينيط أمره بأخيه فكتب إلى أبى الهيجاء أن يجدّ فى طلبه ، ولم يستطع أبو الهيجاء أن يعصى أمر الخليفة ، أو أن الحزازات كانت بينه وبين أخيه على أشدها ، فتعقبه حتى أدركه فى جبل سنجار ، ولما ضاقت به

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٣٩٦ .

الدنيا توسط وزير المقتدر ليشفع له عند الخليفة فشفع به وعفا عنه ثم عاد فاحتواه فى قصره ببغداد .. ولأمر لا نعرفه نرى أن المقتدر قد سحب ثقته من أبى الهيجاء فعزله عن ولاية الموصل سنة ٣٠١ هـ ويتقبل أبو الهيجاء الصدمة بقلب رحب لأنه رجل شجاع وعصامى قوى فلم تعصف بنفسه رياح الذل والاستسلام فثار فى وجه الخليفة وعصى أمره ولم يستطع مؤنس المظفر الذى جهزه الخليفة لمقاتلته أن يخضعه فعاد بالخيبة والخجل مما ألجأ الخليفة أن يقلد أبا الهيجاء للمرة الثانية بعد عام واحد أى سنة ٣٠٢ هـ وهى السنة التى ولد فيها الأمير سيف الدولة ..

ولم يكد الخليفة يأمن جانب أبى الهيجاء حتى ثار الحسين وتمرد . وكأن رضا الخليفة على أحد الأخوين مدعاة لتمرد الثانى . . حاول أن يستميله فولاه على ديار ربيعة ، وانتظر المقتدر أن يكون الحسين كسائر الولاة أى أن يخص الخليفة بقسم وافر مما يجبيه من أموال ، ولكن الحسين فهم الولاية بمعناها الواسع ، فأعلن استقلاله المطلق وأخذ يجبى الضرائب دون أن يخص الخليفة بشىء فغضب عليه وبعث إليه جيشاً كبيراً بقيادة ابن رائق لإخضاعه وتأديبه ، ولكن جيش الحسين كان يزيد على العشرين ألف فارس فلم يوفق ابن رائق إلى التغلب عليه وإخماد ثورته ، وعاد خلال هذه الفترة مؤنس الخادم من محاربة المهدى العلوى فأمره الخليفة أن يلتحق بابن رائق وأن يتعاونا على إخضاع الحسين فوفق مؤنس وقاده أسيراً إلى المقتدر .

إزاء هذه الثورات التى تكررت لم يعد للخليفة أية ثقة بالحمدانيين فازور عنهم وألقى القبض على أكثرهم وزجهم فى السجن .

وظل الأمراء الحمدانيون مسجونين فى دار الخليفة حتى عام ٣٠٦ هـ حيث أطلق سراحهم ، ولكن الحسين ظلت نفسه تضطرم بالثورة على هذه الأوضاع وعلى ما مر به شخصياً فبدأت صلاته تتصل بغير واحد من زعماء البلاد وعرف الخليفة أن المؤامرة تدبر عليه وأن مثيريها الحسين بن حمدان ووزيره « أى وزير المقتدر » على بن الفرات وعامله فى أذربيجان وغيرهم فألقى عليهم القبض وأمر بقتل الحسين واكتفى بعزل وزيره وإقصاء عامله. وهنا انتهت

حياة الحسين بعد أن لعب أكبر الأدوار فى تاريخ الحمدانيين .

* * *

وكانت الاضطرابات قد ازدادت فى أنحاء المملكة وفى أطراف الموصل فرأى أبو الهيجاء بعد أن اعتزل الحياة ثمانى سنوات كاملة أن يجدد عهوده بالخليفة فأعاده أميراً على الموصل .. فعلامَ يدل هذا ؟ يدلنا صراحة على أن الخليفة لم يستطع أن يتخلى عن مساعدة الحمدانيين فى مجابهة الثورات والاضطرابات . وعلى أن الحمدانيين وقد عرفوا قوتهم ومناعتهم لم يتهاونوا بهذه المكانة ففرضوا أنفسهم على الخلفاء وكانوا يرقبون سير الحوادث بلباقة وحذر .

وتقبل أبو الهيجاء عطف الخليفة من جديد ولكنه لم يشأ أن يغادر بغداد موطن الدسائس والوشايات فظل فيها وبعث بابنه ناصر الدولة إلى الموصل لينوب عنه بقمع طغيان الأعراب والأكراد الذين أغاروا على المدينة وأعملوا النهب فى أطرافها فجمع رجاله وأخذ فى تعقبهم إلى أن تمكن من إعادة الأمن إلى نصابه . وما هى إلا شهور حتى تجددت هذه الفتن وقامت حروب أهلية طاحنة فى الموصل دعت إلى حمل السلاح . فاضطر أبو الهيجاء أن يترك بغداد وأن يدافع عن المقتدر ولكن دفاعه لم يجده نفعاً فوقع صريعاً فى إحدى المعارك . وعرف عندئذ المقتدر لآل حمدان إخلاصهم وجهودهم ونسى ما اقترفوه من هفوات ، وحزن كثيراً على أبى الهيجاء وأخلص الود لأبنائه وأقر لابنه ناصر الدولة ما كان لأبيه من ولاية وضياع وضمان .

وكان ناصر الدولة شديد الهيبة ، صلب الفؤاد على الخوارج وعلى العصاة فحمل عليهم حملات قوية وأخضع المتمردين واستمر على ولاية الموصل حتى عام ٣١٨ هـ .

* * *

وتاريخ ناصر الدولة فى الموصل تاريخ طويل لا نريد أن نقف عنده بإسهاب لأننا نريد أن نتخطى ذلك إلى شقيقه سيف الدولة . ولكن كلامنا عن الحمدانيين يضطرنا أن نمر مروراً سريعاً بالأحداث التى رافقت ناصر الدولة بعد مصرع أبيه — أبى الهيجاء — فى دفاعه عن الخليفة الذى عرف لآل حمدان إخلاصهم وعصبيتهم فأقر لأبنائه ما كان لأبيهم من ولاية وضياع وضمان وكان من

جراء هذا العطف أن استأثر ناصر الدولة أو قل احتفظ بما كان لآل حمدان من ملك ومال . جرّاه على ذلك هذا الانحدار الذى وصلت إليه الدولة العباسية فى عهد المقتدر الذى كانت خلافته كلها مخاز وسوآت . وكان الأمر لوزرائه الذين تصرفوا بالملك تصرف الجائر المستبد ، وشغل المقتدر عن كل ذلك بخليلاته اللواتى تحكمن أيضاً بعزل الوزراء وتنصيبهم بما كان يقدم لهن من الرشاوى والهدايا الثمينة التى تحقق أطماع الجسد ونزوات القلب ! . .

وفى عهد المقتدر أشرفت الدولة العباسية على الانحلال والموت بظهور سلطان المتغلبين فى أطراف المملكة والثغور ، وحسب القارئ أن يعدد هذه الدويلات التى أعلنت سلطانها فى أجزاء الإمبراطورية الإسلامية ليعلم ما وصلت إليه الحالة من خلل وتفسخ وانحدار . .

لقد قامت فى فارس دولة بنى بويه ، وبسط الإخشيديون سلطتهم على مصر وسورية ، وأعلن الفاطميون سيادتهم فى أفريقيا ، وساد الأمويون فى أسبانيا ، واستقل بنو سامان فى خراسان وما وراء النهر . والقرامطة بمنطقة البحرين وما صاقبها من ثغور وبلاد ، واستقر الديلم فى جرجان وطبرستان ، وأعلن البريدى حكمه على البصرة وواسط ، وقامت دولة الحمدانيين فى الموصل وديار بنى ربيعة وقسم كبير من أراضى العراق . وكانت المملكة الإسلامية تغلى غلياناً فى جحيم الاضطرابات والدسائس. كانوا ينهش بعضهم لحوم بعض ويحفرون مقبرة الإمبراطورية الكبرى بهذا التفكك الذى أطمع البيزنطيين أن يعيدوا الكرة على بلاد الإسلام فافتتحوا كليكيا وسورية على يد القائد البيزنطى الكبير نيقفور الذى اشتبك بمعارك دامية مع سيف الدولة على أبواب حلب مما سيصير تفصيله فى بحوثنا القادمة وكانت البلاد تواجه خطرين : خطر الانقسامات الداخلية وخطر هجمات الإفرنج الخارجية ، وشاءت الأقدار أن تتقد نيران هذه الاضطرابات وقد عقمت الأرض من منقذ جبار يقضى على هذه المطامع ، وظلت الأمور بين أيدى خلفاء هزيلين أقصى أمنياتهم من الحياة بعض هذه الأموال التى يدرها العمال عليهم لينعموا مرفهين برغد الحياة. ولكن هيهات أن تصفو الحياة فى زحمة هذه الأحداث! . .

* * *

وظهر بعد قتل المقتدر ، القاهر ثم الراضى الذى تربع على دست الخلافة سنة ٣٢٢ هـ . . وكانت خلافته ذات ثوب فضفاض . . وبدأت الفوضى تعلن عن نفسها بشكل مريع فى كل ظاهرة من ظواهر الحكم : فى جباية الأموال ، فى هذا التنافس بين العمال والوزراء ، أو بين الخليفة والأمراء ؛ كل واحد يطمع أن يملك أكبر رقعة ممكنة وأن يختزن أكثر مما تصل إليه يده ! ولمَ لا؟ ملك فسيح ومطامع لا يحدها أفق ، والأمر للقوة والسلطان ، وكان طبيعيًّا أن يرى سليل الحمدانيين أنه أحق من غيره بأن يرث بعض هذه الأرض المقسمة خيراتها بين الناهبين . .

واستقل ناصر الدولة بالموصل دون أن يعبأ بسلطان الخليفة فحبس عنه الأموال ولم يرسل إليه درهماً واحداً مما كانت تغله أرض الموصل من خيرات ، وكانت غلاتها وخيراتها موضع العجب والدهشة [1] فغاظ هذا الاستقلال الخليفة الراضى . ولكن هل كانت لديه القوة الكافية لتمزيق هذه السلطة التى طغت على كل شىء وحالت دون تسرب الأموال إليه ! . لا . . لقد رأى أن يكيده بسياسة المراوغة والضعف ، سياسة « فرّق تسد » فاستدعى عم ناصر الدولة أبا العلاء ابن سعيد بن حمدان الذى كان يحبه ويثق به دون آل حمدان كلهم وأغراه بإمارة الموصل . إذن ، فليتقدم العم لقتال ابن أخيه ! . . ونحب أن نتساءل : أأصاخ أبو العلاء — فى حربه هذه — إلى رغبة الراضى فى قتال ناصر الدولة أم أن خيرات الموصل هى التى دفعته إلى هذا القتال ؟ وإذا كانت هذه الخيرات التى قد تغل الملايين ، أيقظت المطامع بين الأخ وأخيه ، والعم وابن أخيه ، وأغرتهم فى تلك العصور ليثيروها حرباً ضروساً ، فبديهى أن توقظ رائحة البترول ومنابع النفط فى عصرنا هذا نار المطامع فى قلوب الدول المستعمرة فتتنافس من طرف خفى أو جلى على امتلاك خيرات هذه الأرض !

---

(١) لقد كان المبلغ الذى تقدمه مدينة الموصل إلى الدولة العباسية سنوياً ينيف على عشرات الملايين من الدراهم ، وقد نقل ابن خلدون عن جراب الدولة أن الموصل وما بينها كانت تدفع فى أيام المأمون عشرين ألف رطل من العسل الأبيض وأربعة وعشرين ألف ألف درهم أى مليون وستمائة ألف دينار .

وسار أبو العلاء سعيد بن حمدان إلى الموصل ليعلن سلطة الخليفة ويجبي أموال الموصل ويزيح كابوس ابن أخيه ناصر الدولة ولكن ابن أخيه شجاع مغامر وصلب حديدي فى القتال فلم يكد يلتقى به حتى دبر له مكيدة أودت بحياته . ولما بلغ هذا الخبر مسامع الراضى تأثر جداً وعدّ الإهانة موجهة إليه شخصياً ! فسيّر إلى ناصر الدولة وزيره ابن مقلة مع جيش كبير استطاع أن يضايق ناصر الدولة الذى ترك الموصل مضطراً وتوغل فى الجبال .. وبدخول ابن مقلة الموصل بدأ بجباية الأموال ! . . وليلاحظ القارئ أن هم المتغلبين بالأمس —كهم المستعمرين اليوم — هو جباية الأموال وإرهاق الشعب بالضرائب واستثمار خيرات هذه الأرض المباركة سواء أكانت عسلاً أم بترولاً . وإن الطمع الإنسانى لم يتبدل وقد لا يتبدل ! وإن جباية الأموال هى هدف الجميع ومعبودهم المقدس فما أشد تعاسة الشعوب إزاء طغيان المتغلبين أو المستعمرين ! . .

* * *

ولم يدم الأمر لابن مقلة لأن أصحاب ناصر الدولة ابتدعوا حيلة لإقصائه عن الموصل ؟ فكيف؟ وما هى هذه الحيلة ؟ لقد اتصلوا بابنه فى بغداد واستكتبوه كتاباً كلفهم عشرة آلاف دينار ! ما مضمون هذا الكتاب ؟ لقد دعا الابن أباه أن يسرع بالسفر حال تسلمه كتابه إلى بغداد لأن مؤامرة تدبر له فى الخفاء بغية قتله ، فما أسرع ما يصدق ابن مقلة هذا الخبر؟ ولمَ لا يصدقه والكتاب من ابنه أولاً والبلاد تعج بالدسائس والاضطرابات وسيل جارف من المكائد والمؤامرات . وترك الموصل بعد أن ولى عليها أحد العمال الأكراد وجازت عليه الحيلة أو المؤامرة ولكن بيد مَنْ ؟ بيد ابنه الذى خدع أباه لقاء قبضه حفنة كبيرة من الأصفر الوهاج ! . .

وطارت الرسل إلى ناصر الدولة المعتصم بالجبال تخبره بالأمر فعاد حالاً على رأس كتيبة كانت تنتظره خارج البلاد وطرد العامل الكردى وأعلن ولايته من جديد .

خلال هذه الفترات كانت الحالة قد ساءت جداً فى بغداد فاستبد

العمال استبداداً مريعاً وأخذ الوزراء يستقيل الواحد تلو الآخر وضاقت الدنيا فى وجه الخليفة فاضطر أن يستوزر أحمد بن رائق والى البصرة وواسط فاستقدمه إلى بغداد وقلده إمارة الجيش وأضاف إليها إمارة الأمراء وناط به جباية الخراج فى جميع أنحاء البلاد، أى أن الخليفة بإعطائه السلطة المطلقة فى الإدارة والحرب كأنه قد انتدب عنه خليفة جديداً فى شخص ابن رائق ! ثم ماذا ؟ لقد أمر أن يخطب باسمه على جميع المنابر فانتفخت أوداج ابن رائق إزاء هذه السلطة الواسعة ورأى بدوره أن يستعمل نفوذه وسلطته فألغى الدواوين وصرف الوزراء وأخذ يدير وحده شئون الدولة ، أى أن الدكتاتورية التى لمسنا ألوانها الصارخة فى هذا العصر فى شخص ستالين وموسولينى وهتلر وبريمو دى فاليرا قد كانت متجسدة قبل ألف عام فى شخص ابن رائق ! . .

ولكن دكتاتورية ابن رائق لم تدم طويلاً — ومن شأن الدكتاتوريات أن تكون قصيرات العمر — لأنه ظهر متنفذ آخر فى شخص « بجكم » التركى الذى استطاع أن يغتصب رتبة أمير الأمراء من ابن رائق . ويرغمه على الانزواء ، فانزوى إلى حين . . وأذعن الخليفة لهذه السلطة الجديدة فى شخص « بجكم » الذى خرج مع الخليفة لمحاربة الحمدانيين، أى محاربة صاحبنا ناصر الدولة ، وسار « بجكم » إلى قتاله فى جيش كبير عام ٣٢٧ ﻫ واشتبكا فى موقع « الكحيل» بالقرب من الموصل بقتال طويل، اضطر ناصر الدولة بعد هذه المعركة الكبرى أن ينهزم إلى نصيبين ثم إلى آمد . . . ودخل الخليفة الراضى الموصل وأقام فيها مع « بجكم » مدة غير يسيرة حاولا كثيراً أن يظفرا بشىء من أموال الحمدانيين فلم يوفقا . . عندئذ عادا إلى بغداد ليهدئا ثورة ابن رائق الذى انتفض على أثر غيابهما ، وعاد ناصر الدولة بدوره إلى الموصل كما كان أولاً (١) .

* * *

وبوفاة الراضى خلفه المتقى ، وهنا عادت الصلات تتوثق من جديد بين آل حمدان والمتقى وزادت الصلات إلى المصاهرة فتزوج ابن المتقى بابنة

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٣١ .

ناصر الدولة وعادت للحمدانيين صولتهم وعظم سلطانهم وأخذت قوائم دولتهم ترتفع دون أن تزعزعها عواصف الدسائس والاضطرابات .

وظهر فى زحمة هذه الاضطرابات أبو عبد الله البريدى الذى طمحت نفسه للاستيلاء على بغداد فاستعان المتقى بجنوده الأتراك البجكميين – وهم جنود مأجورون – فلم يثبتوا مع الخليفة وانضم بعضهم إلى البريدى الذى تمكن أن يستولى على بغداد دونما حرب عنيفة . ولكن استيلاءه لم يدم طويلاً لأن الجنود الأتراك ثاروا عليه لإمساكه عن دفع رواتبهم فاضطر أن ينهزم وبانهزامه عاد الخليفة إلى بغداد بعد أن استدعى ابن رائق وقلده إمارة الأمراء للمرة الثانية ! ولكن البريدى جهز نفسه وهجم على بغداد أيضاً فاستنجد الخليفة بناصر الدولة الذى أرسل إليه أخاه سيف الدولة على رأس جيش كبير لم يكد يصل به إلى تكريت حتى التقى بالخليفة وابن رائق عائدين فرجع معهما إلى الموصل ، ولكن قدوم ابن رائق لم يرق لناصر الدولة فأوجس منه شرًّا لحزازات سابقة فلم يكد يدخلها حتى دبر له مكيدة أودت بحياته ففرح المتقى وخلع عليه لقب أمير الأمراء ، ولقّب أخاه عليًّا سيف الدولة . . .

وعاد المتقى إلى بغداد مع أمير الأمراء ناصر الدولة الذى كان تحت حوزته جيش كبير ، ورافقهما سيف الدولة ، ولم يقتربوا من بغداد حتى نزح عنها البريدى إلى « واسط » وقرر الحمدانيون أن ينتزعوها منه ، وشبت معارك دامية بين البريدى وسيف الدولة غُلب فيها الحمدانيون ثم انتصروا ، وجلا البريدى عن واسط إلى البصرة وعزم سيف الدولة أن يلحق به إلى البصرة ولكن قلة المال وفتور همة بعض قواده الأتراك جعله يعود إلى بغداد ، وقد مكث فيها مع أخيه ناصر الدولة سنة وبعض سنة ثم غادرها إلى الموصل .

وبتخلى ناصر الدولة عن إمارة الأمراء فى بغداد اختار الخليفة لهذا المركز أكبر قواد الديلم « توزون » الذى لم يكن سياسيًّا مرناً بل كان رجل حرب ودس ، فاستوحش منه المتقى وندم على هذا الاختيار وخاف على نفسه منه وتجسمت هذه الوساوس حتى اضطرته أن يترك بغداد إلى الموصل مستعيناً بالحمدانيين للقضاء

على طمحات هذا الديلمي الغريب ، ولكن « توزون » لحق بالمتقى يريد أن يرجعه إلى بغداد، أو أنه اتخذ التجاء المتقى إلى الحمدانيين سبباً لمناجزتهم القتال والاستيلاء على الموصل ، فنازله سيف الدولة وتغلب عليه أو كاد . وبعد معارك دامية دخل « توزون » الموصل غير عابئ بسطوة الحمدانيين الذين خافوه فالتجئوا مع المتقى إلى نصيبين ، وهنا بدأت وساطات الصلح بين هذا القائد الديلمي وبين المتقى وناصر الدولة على أن يضمن ناصر الدولة ما بيده من البلاد ثلاث سنين كل سنة بثلاثة ملايين وستمائة ألف درهم ، وعندئذ عاد توزون إلى بغداد ولم يعد معه المتقى بل آثر أن يبقى فى الموصل . ولكن نفسه حنت بعد مدة إلى بغداد فطلب من توزون الأمان فأمنه وأقسم له الأيمان أن لا يغدر به وأن يكون فى خدمته . ورأى سيف الدولة الذى يعرف نفسية « توزون » تماماً أن هذا الأمان هو لون صريح من الخديعة والمكر فحذره منه كثيراً ولكن المتقى لم يستمع إليه واطمأن إليه وسافر إلى بغداد فلقيه « توزون» بكثير من الاحترام حتى قبل الأرض بين يديه ولكن ما هى إلا أيام حتى دبر له مكيدة انتهت بسمل عينيه وخلعه عن الخلافة .

* * *

وبوفاة المتقى ارتقى سيف الدولة عرش حلب وبنى مجده السامق فيها بعد أن ترك أخاه يتابع دوره فى الاحتفاظ بأرض الموصل التى نزلها الحمدانيون الأول .

ودخلت الخلافة العباسية بعد وفاة المتقى تحت سلطة آل بويه الذين لعبوا دوراً كبيراً فى مصير العراق وكان لهم النفوذ المطلق والكلمة العليا واصطدم ناصر الدولة بحرب جديدة مع « بنى بويه » ظاهرها الاحتفاظ بالسيادة السياسية وباطنها الاستئثار بالمال .

* * *

وبينا كان سيف الدولة يؤسس ملك الحمدانيين فى أرض الشهباء بعد أن انهارت قوائم ملكهم فى الموصل فى أواخر أيام أخيه ناصر الدولة كان أبناء ناصر الدولة يتقاتلون على السيادة والمال وقد أساءوا إلى أبيهم وانضموا إلى غيرهم

من الطامعين فى هذه الأرض المباركة التى احتفظ بها أجدادهم الحمدانيون نحو أربع وسبعين سنة ، وكان خلافهم وقيام بعضهم على بعض مدعاة لأن يتقدم عضد الدولة البويهى ويطرد أبا تغلب ابن ناصر الدولة ويبسط نفوذه على البلاد ، وهنا تطوى راية الحمدانيين فى الموصل وديار بنى ربيعة لتخفق من جديد فى أرض الشهباء على يد سيف الدولة بن حمدان .

* * *

ونقف عند هذا الحد ، ونحسب أننا قد عرضنا بإسهاب غير ممل صورة صادقة للحمدانيين منذ نشأتهم الأولى حتى أواخر أيامهم فى الموصل حيث تبدأ حياة أميرنا سيف الدولة . وقد حرصنا أن نربط تاريخ الحمدانيين بتاريخ بعض الخلفاء أو بهذه الأحداث التى هزت الدولة العباسية وكان من أثرها أن ضعضعت كيان الإمبراطورية الإسلامية الكبرى . وقد أردنا بذلك أن نكشف لون ذلك العصر فى تمهيدنا لدراسة حياة سيف الدولة الذى شهد بدوره هذا اللون القاتم من هذه الحرب الرأسمالية فى شكلها الإقطاعى الفوضوى وخاض معامع كثيرة فى الدفاع عن سيادات باطلة وأطماع دنيوية لا تمت إلى المثل العليا بشىء . فهل كان راضياً عن هذه الأدوار الهزيلة التى مثلت على مسرح الحياة ولعب بعض أدوارها بحماسة ونشاط أم كانت نفسه ترتفع إلى آفاق لا ترتبط بهذه الدنيويات؟ هذا ما سنتناوله فى بحوثنا القادمة .

والآن وقد فرغنا من الكلام عن الحمدانيين فلنحاول أن نرسم صورة واضحة للدولة الحمدانية ليتاح لنا أن نلج غمار بحثنا بكثير من الدقة والوضوح .

الدولة الحمدانية

أكانت دولة بالاصطلاح الدولى المعروف ؟

أكان ثمة جند وملك وسلطان ؟

أكان هناك قوانين تُشرّع ونظامات تفرض وأسس أمة تبنى فى كنف تلك الدولة ؟

قد يكون من المفيد قبل أن نتساءل عن ذلك أن نبحث عن معنى « الدولة » ومدلولها على ضوء التعاريف الحديثة .

ما هى الدولة ؟

يعرفها رجال القانون بأنها : « مجتمع ثابت مستقل يملك بقعة معينة من الأرض ويعيش فى ظل سلطة منظمة أو هى شعب منظم خاضع للقانون » . . فهل هذا التعريف ينطبق على دول العصر الحاضر ؟ وهل يشمل هذه الدول الصغيرة التى تنبثق من جسم دول كبيرة ؟ أو هو تعريف عام يشمل جميع الدول المدنية التى تعاقبت على هذه البسيطة منذ عهد الرومان أو قبل الرومان حتى يومنا هذا ؟ نحسب أن لا حاجة لأن نلتوى عن القصد فالتعريف واضح لا غموض فيه وهو يفسر معنى الدولة بمراميها الواسعة سواء أكانت الدولة ذات سيادة أم كانت تحت انتداب وحماية .

لقد قامت بعد الحرب الكبرى دويلات كثيرة انفصلت عن جسم الإمبراطورية العثمانية فاستقل بعضها ولا يزال أكثرها تحت سلطات الانتداب[1] ، وحتى الدول التى استقلت قد ارتبطت بمعاهدات وبروتوكولات يرى أذكياء رجال السياسة أنها لا تزال فى حكم الدول الواقعة تحت الانتداب ، لأن هذه المعاهدات الدبلوماسية التى تعقدها الدول الكبرى مع الأمم الصغيرة والتى تعترف لها بسيادتها واستقلالها تكون ذات مظهر خلاب يمس العرَض دون الجوهر إلا فى بعض المظاهر الشعورية ! . . ومع هذا فإذا كان رجال التشريع لا يتحرجون أن يطلقوا على

---

(١) يلاحظ القارىء أن هذا البحث كتب قبل أن تتحرر أكثر البلدان العربية أى فى الفترة التى كانت خلالها واقعة تحت نفوذ الدول الأجنبية وسيطرتها .

هذه الممتلكات المنفصلة عن جسم الإمبراطورية العثمانية هذه الاصطلاحات التى تشير إلى صفاتها الدولية فأحرِ بنا — والدولة الحمدانية قد انفصلت عن جسم الدولة العباسية دون أن تقع تحت انتداب أو حماية أية دولة أخرى، بل كانت تتمتع باستقلال فعلى كامل — نعم ، أحر بنا أن لا نقف موقف المتردد فيما إذا كانت الدولة الحمدانية ينطبق عليها هذا التعريف الدولى الشامل الذى ألمعنا إليه . وعلى ضوء هذا التعريف نستطيع أن ندل على كيان الدولة الحمدانية بأنها كانت دولة ذات مجتمع ثابت مستقل ، عاصمتها مدينة حلب التى انضوت تحت سلطة أميرها الفحل سيف الدولة بن حمدان والذى كان فى حوزته جيش كبير كامل العدد والعدة ، حمى كيان دولته بحروب حامية الوطيس مع أعظم دولات ذلك العصر فاستولى على بلاد الروم واستولوا على بلاده كما أسر منهم مئات الآلاف من الجنود والقواد وأسروا منه نظير هذا العدد ففك أسرهم بماله وبأثمن ما لديه ، وكانت الحرب بينهم سجالاً ، كما كانت مقاليد الحكم وشئون الإدارة بيد عمال هم أشبه بالولاة يرجعون فى إدارة الملك إلى رأى أميرهم الحازم الشجاع ، وكان كل شىء ينمّ على أن الدولة كانت قائمة بكل مظاهرها الدبلوماسية المعروفة فى ذلكم العصر .

* * *

لقد مرّ بنا أن الحمدانيين نشأوا فى ديار بنى ربيعة وملكوا الموصل وما جاورها سبعين سنة ونيفاً ولكن هذه الديار لم تكن خلال هذه السنوات تحت سيطرتهم الفعلية فقد جلوا عنها ثم عادوا إليها وكانت مرتبطة ببغداد مقر الخلافة. وقد حاول الحمدانيون أن يعطوها شبه استقلال مركزى فوفقوا مرة وخذلوا مرات وكانت المطامع توقظ حماسة غيرهم من المتغلبين ، وكانت الدسائس تلعب ، دورها والحروب العنيفة تقوم بقوة ، وكانت الثورات تعلن فى وجه الخليفة الضعيف . . ومع أن هذه المآسى قد تكررت أكثر من مرة على مسرح الموصل فكان همّ أكثر الأمراء الحمدانيين الاستئثار بخيرات هذه الديار دون أن يلتفتوا إلى مفهوم الدولة وعزة الملك بمعناه الواسع الذى فهمه حفيدهم الأمير سيف الدولة .

خاض الأمير سيف الدولة الكثير من المعارك فانتصر وخذل ولكن نفسه الكبيرة التي عجنت بخميرة المجد كانت تعلو على هذه السفاسف التي يبدو بريقها واضحاً في صفرة المال ! لقد كانت الحرب الرأسمالية بين متغلبي ذلك العصر قائمة على ساق وقدم ، ومع أن الأمير لم ينج من رشاش هذه الحرب التي خاض بعض ساحاتها مسوقاً بعصبية عائلته إلا أن نفسه ارتفعت عن هذه الأوزار وسمتْ إلى ما هو أعلى وأسمى ، كان يدرِّب نفسه على المجد حين انضوى تحت لواء أخيه ناصر الدولة دون أن يكون هدفه في الحياة هذه المغانم التي كانت هدف الآخرين ، كان يتخذ المال وسيلة لرفع منار الأدب وصون وحدة العرب والذود عن كيان الوطن ... ولم يكد يبلغ الثلاثين من عمره — بعد أن خاض عدة معارك ودرس الحالة درس خبير مستقص — حتى رأى نفسه تجيش بخيالات ساحرة مغرية ، ما هذه الأحلام والخيالات؟ هي خلق دولة عربية جديدة وسط تلك البراكين المتقدة التي ألمعنا إليها في فصولنا السابقة . والتي رأينا في صورها غروب شمس الدولة العباسية وظهور أنماط مختلفة من متغلبي الأعاجم الذين كانوا السبب المباشر لزوال المملكة العربية الكبرى . نعم ، جاشت نفس سيف الدولة بهذه الأحلام المسكرة وسط سحب كثيفة دكناء من الأحقاد والمطامع وفوضى الاضطرابات التي كانت تغلي وتفور كالبراكين ، فالتفت حواليه يزرع ببصره وفكره هذه الممالك الشاسعة يريد أن يقيم أسس دولته الجديدة في أرض بكر ، بعيدة إلى حد ما ، عن لوثات الأعاجم ودسائس المتغلبين ! . .

أين ترى تقع تلك الأرض ؟

لقد هداه ضميره إلى أرض الشهباء . .

إن الموصل في حوزة أخيه ناصر الدولة وهو يجله ويعبده دون الله ، إذن، فليترك الموصل وديار بني ربيعة في يد أخيه وليتوجه إلى مدينة حلب . .

ترى لماذا اختار سيف الدولة هذه المدينة الجميلة الوادعة ؟

أفيها مناعة المدن الحصينة التي تصدّ هجمات العدو؟

أتحيطها هذه الجبال المنيعة الوعرة التي ترتد عنها الأبصار كليلة ؟

لا . . إنها تقوم على سهل منبسط فسيح قد تغنى الشعراء بجودة تربتها وطيب هوائها وجمال سمائها ، وفتنوا برياضها وبساتينها الغناء التى كانت تبز غوطة الشام بجمالها وفتنتها . وكانت قلعتها الأثرية التى تجثم فى قلب البلد ، وقد عرفت عمر الزمن وخلود الحياة ، موضع إعجاب ودهشة الفاتحين الغزاة . أتكون قلعتها الجبارة هى التى أوحت إليه أن يختار مدينة الشهباء ليزرع فى أرضها بذور مملكته الجديدة ؟ لعله نظر إلى أبعد من كل ما ذكرناه . . لعله رأى فى متاخمتها لأرض الروم ما حببها إليه ! لقد كان لزاماً على سيف الدولة أن يقيم فى أرض الشهباء وحدات جيشه ليقف حائلاً منيعاً دون هجمات جيوش البيزنطيين الذين كانوا يتطلعون إلى هذه الممالك التى آلت إلى العرب بعد أن فتحها الخلفاء الراشدون بثبت إيمانهم وصدق عزيمتهم . وكان البيزنطيون فى حرقة ممضة لزوال هذه البلدان التى كانت فى حيازتهم ، لذلك لم يتركوا فرصة دون أن يغيروا على هذه الثغور الإسلامية يحاولون استردادها . شجعهم على ذلك هذه الحروب الداخلية العنيفة التى كانت تثار بين المتغلبين والخلفاء فى سبيل امتلاك خيرات بلاد هى فى حوزتهم . لذلك رأى سيف الدولة أن يقف دون هذه الهجمات فبنى مملكته الجديدة فى أرض الشهباء التى كانت متاخمة لأرض الروم .

هذا السمو فى نفس سيف الدولة الذى ابتعد به عن المنازعات الداخلية ليحمى أرض الوطن هو الذى يحدونا أن نقدس فيه روح البطولة السامية . نعم ؛ لقد ارتفع بنفسه عن هذه الدنيات إلى ما هو أسمى وأنبل مقصداً . . إلى خلق دولة جديدة وصون هذه البلاد التى جبلت أرضها بدماء الفاتحين . . وما نحب أن نتوسع عند هذه الفكرة . فلهذا بحث طويل سنوفيه حقه حين نتكلم عن حروبه وغزواته . . وما نحب أيضاً أن نجرد سيف الدولة من بعض الهنات التى نلصقها بغيره من الأمراء المائعين الذين استطابوا الحياة السهلة اللينة فى مجالس اللهو والشراب وفى جمال القدود وخدود الملاح ولم يعرفوا قط للوطن حقوقه ! . . إنه كأمير جميل فى فتوة عمره وريـّق شبابه لم يكن يكره هذه اللذات بل لدينا ما يؤكد أنه عب من رحيقها المسكر حتى الثمالة . ولكن كان يفعل ذلك فى ساعات

راحته وهدوء ضميره أى حين. يرجع من معركة عقد له فيها النصر وتوجه الشعراء بمئات قصائدهم الغر . إنه فى مثل هذه الساعات كان يستطيب اللهو والشراب ويسبح فى بحر من اللذات حتى إذ جدّ الجد ودعاه داعى المجد انتفض انتفاضة الأسد وارتفع بنفسه عن هذه المغريات المسكرة .

هذا السموّ فى بطولته التى كانت تبحث عن أرض بكر تتسع ميادينها للكرّ والفرّ، وللقتال والسجال هو الذى هداه أن يختار مدينة « حلب» عاصمة لمملكته الجديدة، فاختارها وابتعد عن أتون المنازعات الداخلية التى كانت تعصف ريحها بشدة ليزج بنفسه فى حروب تعلى من شأن الوطن وترتفع باسمه إلى السماكين . لقد اختار الشهباء وهو عالم أنه سيخوض فى سبيلها عشرات المعارك الدامية . وكانت نفسه ترقص طرباً حين يدعوها نداء الكفاح فى سبيل الملك والمجد . . وواجب الوطن عند سيف الدولة هو أمجد فى المكرمات من هناءة نفسه . . وهذا الذى دعاه أن يعتمد عزيمته الكبرى بعد الله ويفرض نفسه أميراً على أرض الشهباء وما جاورها وأن يؤسس «الدولة الحمدانية» على أنقاض الإمارات الحمدانية التى أقامها أجداده فى أرض الموصل . ورسم الأمير لنفسه خطة وإن كانت جذورها تمت إلى الخطط القديمة التى بذرها الحمدانيون إلا أن أمنيته الكبرى كانت تتجلى فى خلق دولة عربية جديدة فكان ما كان مما سنشير إليه .

* * *

لقد كدنا نبتعد عن موضوعنا الذى خصصناه بالدولة الحمدانية ولكنا لم نبتعد إلا لنقترب من أساس الموضوع . ويحسن بنا أن نتساءل الآن بعد أن انتهينا إلى أن «الدولة الحمدانية » كانت دولة ذات سيادة فعلية — ما هى حدودها؟ أين ابتدأت ؟ وأين انتهت ؟ ما هى البلدان التى دخلت تحت حوزتها ؟ كم سنة عمرت ؟ هل كان قيامها بقيام سيف الدولة ثم زالت بوفاته ؟. .

دخل سيف الدولة مدينة حلب عام ٣٣٣ هـ ، دخلها فاتحاً بعد أن انتزعها من أحد قواد الإخشيد سيد مصر الذى جهز على سيف الدولة حملة كبيرة تحت قيادة كافور فلاقاها بالقرب من حمص ، ثم حاصر دمشق وتابع

سيره حتّى الرملة . وهنا ، وبعد قتال طويل ، رأى من المصلحة القومية أن لا يبتعد عن خطته المثلى فى الاحتفاظ بحلب ليرد الغارات الأجنبية فتصالح مع الإخشيديين على أن يحتفظ بسورية الشمالية وأن يترك مدينة دمشق للمصريين .

وكانت حلب فى عهد سيف الدولة عاصمة دولة تمتد من الموصل حتّى تكريت ومن عانة على الفرات حتّى البحر المتوسط مُشَكِّلةً على التقريب خطاً مستوياً يمر من جنوبى حمص . وكانت ممتلكات الدولة الحمدانية فى الشمال تمتد نحو منطقة كليكيا وملاطية وديار بكر حتّى مدينة خلاط الواقعة على بحيرة « وان » ، وكانت الأماكن المهمة عدا حلب هى أنطاكية وحماة وحمص وتدمر وقنسرين وإعزاز وكفر ناب ودولوق وتل بشير وسرمين وبالس ومنبج واللاذقية ، وطرطوس والرقة وأطنة وأرفة ومرعش وحران وديار بكر ، وملطية وحسن منصور وروم قلعة وما جاورها من هذه البلدان الّتى تقع على ضفتّى الفرات والدجلة وبعض شطئان البحر المتوسط .

لقد ظلت الدولة الحمدانية هذه مدة تنيف على السبعين عاماً . انتهت كما بدأت ضعيفة تارة وقوية تارة أخرى ، ولم يقو نفوذها وتشتد شوكتها إلا فى عهد الأمير سيف الدولة الذى رفع من شأنها وخلّد ذكرها وعرف كيف ينهض بها إلى السماكين ، وهذا يؤيد ما نذهب إليه دائماً من أن الفرد هو الذى يخلق الأمة وينشئ الدولة ، والأمير سيف الدولة هو الذى خلق الدولة الحمدانية وفرض اسمها على التاريخ .

حلب

حلب معقلى والمتنبى شاعرى
سيف الدولة

حلب مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات ، طيبة الهواء ، صحيحة الأديم والماء .
ياقوت الحموى فى معجم البلدان

أى حسن ما حوته   حلب أو ما حواها
سروها الدانى كما تد   نو فتاة من فتاها
الصنوبرى الشاعر

هى الخلد تجمع ما تشتهى   فزرها فطوبى لمن زارها
كشاجم الشاعر

* * *

من حق الأدب علينا ونحن ندرس حياة سيف الدولة ، وقد وصلنا بدراستنا عن الحمدانيين إلى حلب ، هذه المدينة الجميلة الوادعة التى تحتوينا والتى احتوته قبل ألف عام فزهت به وزها بها وأقام فى ربوعها للأدب دولة لا تزال تتعطر كتب التاريخ بذكرها — نعم . من حقنا أن نخصها بكلمة أو بفصل نأتى على موجز تاريخها توفيةً للبحث وخدمةً للتاريخ . .

وقد يكون من العسير جداً أن نأتى على تاريخ حلب بهذه الصفحات ولهذه المدينة تاريخ عريق فى القدم يقتضى الباحث أن ينقب ويرجع إلى العصور السحيقة ليكشف عن تاريخها بدقة وتمحيص وإمعان ، وأن يربط بين تاريخها القديم فى أيام الحثيين والفراعنة وتاريخها فى العصور الإسلامية . .

وإذا لم يكن هنا مجال هذه الدراسة الواسعة فلا أقل من أن نمر بتاريخها مروراً سريعاً وأن نقتصر على خلاصات تعطى قارئ هذه الفصول فكرة صحيحة غير مشوشة عن هذه المدينة المباركة التى جرى فى أراضيها الكثير من الأحداث

التاريخية سواء ما كان منها ذا علاقة بالسياسة والحرب أم بالأدب والفلسفة والعلم !

* * *

حلب ، عاصمة الحمدانيين ، أو حلب الشهباء كما غلب عليها هذا الاسم ، مدينة قديمة ترجع فى قدمها إلى أبعد حدود التاريخ . . بل هى كما يقول المستشرق الألمانى زوبرنهايم الذى كتب فصلاً ممتعاً عن مدينة حلب فى دائرة المعارف الإسلامية : « إنها من المدن القديمة القليلة التى لا تزال موجودة حتى الآن . . » أى أن كثيراً من المدن القديمة قد انهارت مع الأيام وأسدل الدهر عليها ستار النسيان إلا بعض مدن تاريخية قليلة منها هذه المدينة . وقد لا يعرف بالضبط من الذى بناها وأقامها فى هذه البقعة من الدنيا . . على أن أكثر المؤرخين يتفقون على أن الحثيين هم الذين بنوها . . وليس فى هذا أى نبوّ عن التاريخ إذا علمنا أن هذه المدينة قد جاء ذكرها كثيراً فى النقوش الأثرية والمدونات التاريخية القديمة التى ترجع لألفى سنة قبل الميلاد حيث كان الحثيون يقيمون على ضفاف الفرات بالقرب من مدينة جرابلس أو قلعة « قره مش » ينشرون مدنيتهم وينصبون تماثيلهم ويشيدون معابدهم ويقيمون المدن توسيعاً لملكتهم . . وكان من جملة المدن التى بنوها هذه المدينة التى رددت ذكرها النصوص البابلية والآثار الآشورية والنقوش المصرية القديمة وعرفت باسم حلب Hallab و Hallav وحلوان Hallwan . وقد كشفت الحفريات الحديثة التى جرت فى وادى الملوك مؤخراً بعض نقوش وكتابات أثرية رسمتها يد النقاشين بأمر رعمسيس الثانى على جدران الكرنك والأقصر وفيها ذكر صريح لهذه المدينة التى جرت فى أراضيها حروب دامية بين ملوك الفراعنة وملوك الحثيين انتهت بمعاهدات صداقة وود وولاء ، وعرفت المدينة بهذه النقوش والكتابات إنها « مملكة صغيرة خاضعة لملك الحثيين باسم ـــ حُلُبو ـــ » . على أن هذا الاسم قد أصبح « حلوان » فى عهد الآشوريين و « بيروا » فى عهد اليونان والرومان ثم عادت تحمل اسمها الأزلى فى عهد الفرس ، ونعتت بالشهباء لافتراضات مختلفة ليس هنا مجال بحثها ومناقشتها . . نعم ، ومع أن اسمها قد تطوّر خلال هذه الأجيال من حَلَب إلى

حلبو إلى حلوان إلى بيروا عادت تحمل اسم خَلَب بالصيغة الآرامية وحلب بالصيغة العربية التى عرفت بها من أجيال سحيقة حتى يومنا هذا . .

ويلاحظ القارئ أنه قد مرّ بهذه المدينة ما يقرب من عشر أمم كبيرة ذات نزعات مختلفة فى الدين واللغة والدم. من الحثيين إلى الآشوريين إلى المصريين إلى البيزنطيين إلى الفرس إلى العرب ثم الترك فالإنكليز فالفرنسيين؛ ومع هذا ، ومع كل ما مرّ بها من عادات وأخلاق وديانات وحروب وثقافات متباينة لا تزال هى هى المدينة الحالمة التى تصبر على ضغط الحدثان فتأخذ من كل أمة أظهر ما فيها من خصائص لتخلق فى نفسها هذه المناعة التى تقوى على مغالبة الزمان وأحداث القدر العاتى . .

ولعل إيمانها بالبقاء هو الذى جعلها تخلد على الأيام رغم ما مرّ بها من أحداث وصروف عاتية منذ عشرات الأجيال . وظلت أجمل مدينة زاهية فى سورية الشمالية كلها . . كانت حلب فى العهود القديمة مدينة كالمدن ، ولم تلمع وتزدهر بالعمران إلا بعد الفتوح الإسلامية حيث أصبحت أشبه بثغر عذب المرشف يتطلع إليه الروم ويحتفظ به العرب كأثمن قنية غالية . . نعم ؛ كانت فى عهد البيزنطيين مدينة كالمدن العادية لا ميزة لها على غيرها إلا كونها مدينة محصنة من الصعب جداً أن تمتد إليها الأيدى المغيرة الجائحة .. ولكن فتوحات العرب لم تكن ألاعيب وخدعاً بل كانت سيلاً ينهمر وناراً تلتهم وقدراً يجرى . . واخترق العرب هذه الحصون . . . كيف ؟ إنهم لم يحطموها ولم يدخلوا المدينة حرباً بل استسلمت إليهم وعاد السكان الذين نزحوا إلى أنطاكية خوفاً من بطش الفاتحين — إلى مدينتهم الوادعة بعد أن وثقوا من أن هذا الفتح يحمل فى أطوائه قبساً مشعاً من روح التسامح وينشر على أرضهم برداً وسلاماً لا ناراً ولا حمماً !

يقول مؤرخو الفرنجة إنه حين أخذت فتوحات العرب تمتد إلى هذه الربوع كانت حلب مدينة ذات طابع سورى لا يمت إلى البيزنطية بشىء . . كان يقطن بجوارها قبائل عربية قديمة . . وكانت هذه القبائل على رواية البلاذرى تقطن بالقرب من المدينة . فى مكان يدعى « حاضر حلب » ، يجمع أصنافاً من

التنوخيين وغيرهم من قبائل العرب التى كانت تنزح إلى المدينة فتجد مأكلها ومشربها حين يقل الكلأ وتجدب الأرض من انحباس المطر . . وكانت الروح العربية بسبب هذه الأواصر تغمر المدينة فى كثير من مظاهرها لذلك لما تعرض العرب لفتح حلب سنة ١٦ هـ بقيادة خالد بن الوليد لم يجدوا أدنى مقاومة جدية . .

وقد سلّمت المدينة إلى القائد أبى عبيدة بن الجراح صلحاً فى خلافة الفاروق فأمّنهم على حياتهم وأموالهم وصان كنائسهم ومعابدهم ولم يتعرض أحد إلى حرمة منازلهم وهذا الذى حبب هذا الفتح إلى نفوسهم فأسلم بدخول الفاتحين المسلمين رهط غير قليل من العرب حالاً وظل البعض على وثنيتهم وآخرون على نصرانيتهم حتى خلافة عبد الملك .

وأخذت المدينة تزهو وتنعم بحياة جديدة فى ظل الإسلام . .

وأخذ الناس يبنون البيوت ويقيمون القصور ويأنسون بحياة العمران التى استبحرت ليس فى قلب المدينة بل فى أطرافها حتى اختار غير واحد من الأمراء الأمويين الإقامة فى حلب وضواحيها ولم يتحرجوا أن يفضلوها على دمشق الفيحاء على ما فى ربوعها من جنان مخضلة هى صورة من جنان الخلد كما يصورها الشعراء . فبنوا فى المدينة وفى الضواحى قصوراً فخمة تهدّم أكثرها مع الأيام ولا يزال بعضها يشهد على بقايا آثاره الحدثان ! . . ويعدد مؤرخو العرب عدة قصور ممتازة منها القصر الذى أنشأه مسلمة بن عبد الملك فى ساحة الناعورة وعلى ضفاف النهر ، وقصر سليمان بن عبد الملك الذى تأنق جداً فى بنائه وزخرفته والذى هدم بأمر السفاح حين استولى العباسيون على حلب ! . وقصر الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى بناه على هضبة عالية من جبال الحص وعرف بقصر بخناصره والذى كان يستطيب النزول فيه كثيراً . . وقصر صالح بن على بن عباس فى بطياس شرقى حلب وغربى قرية النيرب ، وقصر هشام بن عبد الملك فى رصافة الرقة وقصور بنى حمدان وغيرهم مما أصبح جميعها أثراً بعد عين .

وظلت حلب بعد الفتح الإسلامى مدينة عربية مرتبطة بدمشق فى عهد الأمويين وببغداد فى عهد العباسيين إلى أن دخلت فى حوزة سيف الدولة فأعلن

استقلالها منفصلة عن بغداد . ولهذا يعتبر مؤرخو العرب والإفرنج معاً أن لتاريخ حلب — بعد أن أصبحت مملكة ذات سيادة — ارتباطاً وثيقاً بحياة سيف الدولة لا سيما فى موقفها المجيد بصد هجمات البيزنطيين الذين حاولوا استرداد هذه الربوع من أيدى العرب عشرات المرات فصدّتهم ولاقتهم بجيوش كثيفة قادها الأمير سيف الدولة الذى استطاع بفروسيته النادرة وإقدامه وحماسه وشجاعته أن ينقذ الموقف وأن يحفظ لسورية كلها خصائص المدن الإسلامية دون أن تعود لتذوب من جديد تحت حكم البيزنطيين ! . .

وإلى موقفها الحربى فى صون كيان سورية القومى من عبث الطامعين احتضنت هذه المدينة فى عهد سيف الدولة — خلال القرن الرابع الهجرى — أعظم الشعراء وأكبر الأدباء المبرزين وصفوة غير قليلة من القضاة وعلماء اللغة ومن الفلاسفة والموسيقيين فكانت منتدياتها وهذه الحلقات الأدبية التى غمرها الأمير بعطفه ملتقى لمناظراتهم ومناقشاتهم فى الأدب والشعر والفن والفلسفة مما عاد على آدابنا القديمة بثروة دونها هذه الثروة الأدبية التى عرفتها الآداب الفرنسية والتى كانت نتاج هذه المناقشات التى أثارتها صالونات الأدب فى عهد لويس الرابع عشر . . ولم تكن هذه المناقشات الأدبية ذات لون باهت فى ناحية واحدة بل كانت ذات نواح متعددة تغمرها أضواء مشعة لأن المتناقشين كانوا يمتازون بثقافة مزدوجة من فلسفة الإغريق وأدب العرب والإسلام . . ولن نتوسع هنا فى هذه الناحية لأن لهذا البحث مجالاً واسعاً نرجو أن نوفيه حقه بكثير من الإسهاب.

* * *

يحدثنا المستشرق غوستاف سيشلمبرجر الذى اعتمد فى بحثه عن حروب سيف الدولة على مؤرخين بيزنطيين رافقوا الإمبراطور نكفور فوكاس فى رحلته إلى حلب ، إلى هذه المدينة التى أسماها مدينة الفروسية والفنون ولم يتحرج أن يراها مدينة تشابه بيزنطية فى كل شىء — بأن الدهشة قد هزت قلب فوكاس من عظمة حلب — وهنا يقول المستشرق :

« ولقد دهش الإمبراطور نفسه عند دخوله عاصمة الأمير من فخامة المدينة

ورواتها ومن زخرف أسواقها وأناقة قصورها ، بل لقد شعر قيصر الرومان بالحسد من تفوق حلب على القسطنطينية ، وكان من حقه أن يشعر بالحسد لأن الفكر العربي الذى جاء وليد الفكر البيزنطى قد ابتدع شيئاً جديداً لم يألفه مؤسسو المدن والعواصم من قدماء الإغريق[1] » .

ويصف المستشرق أندره دايفتش مدينة حلب التى تراءت لسيف الدولة حين دخلها لأول مرة بقوله : « وتراءت للأمير المدينة بسطوحها المرمرية وقصورها الشاهقة وجوامعها التى تناطح مآذنها السحاب وقلعتها الضخمة الحمراء التى تشبه تاجاً من الأرجوان لهذه المدينة الشهباء » .

وكثير من كتاب الإفرنج المعاصرين لا يزالون يرون الشرق مجتمعاً فى مدينة حلب وأعجب ما يروقهم فيها أسواقها وجوادّها وجوامعها وقاعتها الأثرية الخالدة . وقد أوحت هذه المدينة الوادعة الكثير من الخيالات السحرية لشعراء العرب فخصوها بالكثير من مدحهم ووصفهم وحنّوا إليها حنين المشوق المتيم كالبحترى والصنوبرى وكشاجم الذى كان مفتوناً بأشجار السرو التى تغمر المدينة ولعل سروها الجميل وأرصفتها الرومانية وقصورها التى يمتّ طراز بنائها إلى بيزنطية هى التى أوحت إلى قيصر الرومان أن يرى وجه التشابه قريباً بينها وبين إستانبول فى ذلكم العهد . . ومن كبار شعراء العرب الذين أشاروا إليها إشارات لطيفة فى شعرهم المتنبي والمعرى والخفاجى وابن حيّوس وأبو فراس والوزير المغربى وابن العباس وكثير غيرهم ممن حملوا عاطفة صادقة نحو هذه المدينة التى التمسوا فى ظلال مغانيها ونضير ربوعها عبق أنسهم ونعيم لهوهم فحبتهم بما عندها من حب وحنو ولم تضنّ عليهم بأجمل وألذ الذكريات ..

وكتب التاريخ تصف بإسهاب ما كانت عليه المدينة فى عهد الأمير الحمدانى من مجد وزهو وعمران واستباقها المدن المجاورة لاحتضان ثقافة البيزنطيين وكل ما أخذه العباسيون عن حضارة الفرس والإغريق حتى أصبحت

---

(١) معروف الأرناؤوط فى « فتى العرب» .

بقية العواصم والبلدان كدمشق وبغداد تحسدها على مركزها المدنى الجديد وتتمنى او أن لها بعض صوره وألوانه ! . . ولكن هذا المركز الأثيل الذى تمتعت به فى عهد الحمدانيين لم يطل . . لأن المدن تزهو بازدهار الملك وسؤدد السلطان . . بلى . . وللمدن كما للأشخاص غفوات طويلة تسدل الأحداث على حيويتها ستار النسيان . وهذا ما منيت به حلب . . وكأن جهادها فى حمل عبء النضال القومى والتراث الفكرى حقبة من الزمن قد آد ظهرها أو كاد فآثرت الراحة والنوم بعد أن دخلت تحت حكم الفاطميين ثم العثمانيين ، وظلت مدينة لا تمتاز عن سائر المدن بشيء إلا بوداعتها وانزوائها عن صخب الحياة ، وبأحداث مرت بها مروراً سريعاً ليست ذات بال ، حتى كان القرنان السابع عشر والثامن عشر فانتبهت لمركزها الجغرافى وأخذت توثق هذه الصلة بين الغرب والشرق عن طريق التجارة الواسعة حتى أصبحت فى مدة قريبة أكبر مركز للترانسيت فى الشرق الأدنى ، فأمها تجار من أكبر عواصم الغرب فرنسيون وألمان وهولانديون وإنكليز وبلجيكيون وبندقيون وغيرهم وغيرهم ، حتى أصبحت العصب الحى لنمو التجارة وازدهار الصناعة وخلق صلات وثيقة بينها وبين أقصى الأناضول وحتى أبعد حدود العراق وفارس والهند . . وحسب القارئ أن يعلم أنه كان فى حلب سنة ١٧٧٠ م ثمانون محلاً للتجارة الأوربية لأصحابها ممثلون ووكلاء رغم بعد المسافات وعدم وجود هذه الوسائل والمواصلات التى نعرفها فى يومنا هذا ! .

وظلت المدينة فى ثروة ضخمة وبحبوحة من العيش واسعة حتى أضاعت قسما كبيراً من ثروتها فى منتصف القرن التاسع عشر بسبب الأحداث العظيمة التى مرت بها كالزلازل والأوبئة وهذا الاضطراب الذى كان يسودها من سوء إدارة الحكم وغيرها . . ثم استعادت مركزها فى مطلع القرن العشرين ونشطت نشاطاً عظيماً فى إبان الحرب العالمية الأولى والثانية أثرت من ورائه ثروة ضخمة ما لبثت أن تبخرت بكثافة الأيام والأزمة العالمية الخانقة التى تلتها فاستحالت مدينة منعزلة تشهد بقلب حسير زوال مجدها التجارى إلى أن نهضت فى الآونة الأخيرة تستعيد مجدها السابق .

على أن المؤرخين والأثريين حين يتحدثون عن هده المدينة يتناولون بإسهاب هذا الفن المعمارى البديع الذى تمتاز به عماراتها القديمة والذى هو خلاصة من تطور الفن الإغريقى والفن الإسلامى ممزوجين بشكل يجمع إلى الوضوح والإشراق هذه السهولة المعمارية التى تزيد فى جماله وروعته . . ولا يترددون أن يقولوا إن آثار حلب تعطينا صورة واضحة عن تطور الفن المعمارى فى الشرق .

وقد كانت المدينة منذ عهد البيزنطيين محصنة بجدران من أطرافها الأربعة حتى كانت تبدو بشكل مستطيل . وقد هدم هذه الجدران خسرو الأول الذى احتل المدينة فى أثناء مروره بسورية سنة ٥٤٠ ق . م . ولم يمس القلعة بسوء . على أن هذا الهدم الذى تناول الجدران قد أعيد ترميمه وظلت الجدران محافظة على شكلها الأثرى خلال العصور الإسلامية الأربعة وهذا الذى جعل سيف الدولة يقول عن حلب إنها معقله الحصين . . يؤكد ذلك ما رواه ابن بطلان المتطبب إلى هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابى حوالى سنة ٤٤٠ ﻫ وقد وصف المدينة وصف مشاهد عيان بقوله : « ودخلنا حلب من الرصافة فى أربع مراحل ، وحلب بلد مسور بحجر أبيض . وفيه ستة أبواب » . ولعل أعظم أثر بارز فى آثار حلب عدا جوامعها وأسوارها ومداخل أبوابها هو قلعتها التاريخية التى يحيط بها خندق واسع كبير . . ويظهر أن القلعة قد بنيت مع المدينة فهى تمت بقدمها إلى قبل الميلاد بألفى سنة تقريباً . وقد جاء ذكرها كما ذكرت المدينة فى الكتابات القديمة والنقوش الأثرية — المصرية والآشورية والحثية — ولا تزال حتى يومنا هذا جاثمة فى قلب المدينة كأنها عظة حية من عظات الخلود .

لقد مر بها الفاتحون ونزلها الغزاة وشهدت أروع المعارك التاريخية وسالت على جوانبها دماء واحتمى بها ملوك وظن الجميع أنهم ملكوها إذ اعتصموا بها ووضعوا جنودهم وحراسهم على مغالق أبوابها ومنافذ أسوارها ولكن هيهات هيهات !

ولا شىء فى حلب أجمل من القلعة فى فصل الربيع حين يكسو ظاهرها من القمة حتى سهل خندقها هذا الاخضرار الذى يزيدها فتنة وجمالاً . ومن يرتقى ذروتها العليا ويشرف على المدينة تظهر له بيوتها الجميلة ومآذنها المرتفعة وحدائقها

وسهولها الواسعة أشبه بفتيات جميلات التففن حول أب رحيم يفيض عليهن الحب والود والابتسام [١] .

وحلب ، اليوم ، مدينة تجنح إلى مظاهر الحداثة أكثر من جنوحها إلى القدم . العمران فيها آخذ بالازدياد . تتمتع بما تتمتع به المدن الحديثة من المظاهر الحيوية ، ولولا شح الماء فيما مضى [٢] لأصبحت بما حباها الله من

(١) يرجع تاريخ قلعة حلب ، كما رواه الأثرى الفرنسى بلوا دى روترو إلى خمسة آلاف سنة خلت ، اشترك فى بنائها كثير من الأمم أخصها بالذكر الحثيون والفرس واليونانيون والرومانيون والعرب . ارتفاعها ٣٧ متراً يضاف إليها ٢٢ متراً عمق الحفرة التى تكتنفها . شكل السور أضبارى . ارتفاعه ١٢ متراً، هدمته زلازل سنة ١٨٢١ ، يبلغ طول دائره ٩٠٠ متر . أجمل ما فيها يرجع عهده إلى القرن الخامس عشر ويحتوى على :

١ – رواق طويل له ست قواعد فرشت أرضه بالحصى المخططة .

٢ – طابق أولى فيه غرف جميلة تطل على المدخل .

٣ – وفى الأعلى غرفة واسعة ، مترامية الأطراف كان يسكنها أمراء حلب .

وينتهى ذلك الرواق إلى باب كبير ضخم منزو فى أحد الأطراف مما يزيده مناعة . وهو مصنوع من الحديد ، لم تقو عليه أيدى الدهر ولم ينل منه الأعداء فى جميع أدوار حياته . ينسب المؤرخون بناء هذا الباب إلى الملك الظاهر ، ولا تسير ثلاثة أمتار أو أربعة حتى يعترضك باب آخر يحرسه أسدان وإلى جانبه سلم يرتقى بك إلى السراديب الخفية الخاصة بالملك وحاشيته وتتلو ذلك غرفة اسمها « غرفة الدفاع » وفيها بئر عمقها ٢٤ متراً تتصل بمجارى الماء الملتوية تحت الأرض وإلى جانب هذه الغرفة فتحة سرداب عميق تنزل فيه ستين متراً فيصل بك إلى أروقة طويلة كثيرة الظلمة والارتفاع ، وبالقرب من هذه الأروقة مذبح لا يزال يحتفظ بمحرابه ، وتقف بعد ذلك أمام الباب الخامس وقد زينه العرب بأسدين ضخمين أحدهما يضحك والثانى يبكى . وتنتهى بعد ذلك إلى طريق طوله عشرون متراً صفت إلى جانبيه غرف أعدت للجند وللأسلحة وللخيل . وفى القلعة الغرفة الفارسية ، بنيت فى عهد الفرس وأصلحها العرب ، قبتها آية الفن الفارسى وهى مؤلفة من أحجار مربعة من الطوب تزيدها جمالا ورونقاً . اتخذت فى القرن الثالث عشر سجناً وهى واسعة جداً ويبلغ ارتفاع المئذنة بعد القلعة ٢١ متراً أما القصر فكان يقطنه أمراء حلب وخلفاؤها وعظماؤها بعد القرن الثانى عشر وأجمل ما فيه باب الجناح المعد للحريم .

(٢) ظلت حلب فترة طويلة تشكو قلة المياه ، كانت تسقى من آبار وقناة قيل إنها بنيت فى زمن الأشوريين والفرس . وقيل أيضاً إنها أنشئت فى زمن الملكة هيلانة أم قسطنطين الرومانى وإنها سميت باسمها ، وسواء صح هذا القول أم ذاك ، فالحقيقة التى لم يتسرب إليها الشك هى أن الرومانيين انصرفوا إلى العناية بالقناة ، وتعهدوا بالإصلاح ، وعملوا على توسيع شبكة التوزيع داخل المدينة البيزنطية ، ولكن الماء لم تزد كميته على كر الأيام والأعوام على الرغم من ازدياد عدد السكان . وعمل الأمويون على توسيع القناة فتم لهم ذلك فى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان ، وتحت=

هواء طيب وأرض بكر ونزعة إلى كل جديد من أجمل مدن الشرق .

هذا إجمال تاريخى عن حلب رأينا من الواجب الإشارة إليه توطئة لبحثنا عن دخول سيف الدولة هذه المدينة التى رافقت أحداث التاريخ وقامت بنصيبها الواسع – كما قلنا – من حمل التراث القومى والأدبى واحتضنت خلاصة طيبة من رجالات الفتح والفكر فأحبوها وأخلصوا لها الود والعطف كما غمروها بحبهم وعنايتهم فكان حظها فى عهد الأمير الحمدانى من ألمع الحظوظ وسمت بمجد فى المكرمات دونه السماكان .

=ضغط تضخم عدد السكان من جهة ، وجفاف طارىء من جهة أخرى قام الأمير سيف الدين الأرغون حاكم ، حلب فى عام ١٣٣٤ ميلادية بتحويل قسم من نهر الساجور إلى وادى قويق بطول أربعين كيلومتراً ، ولكن زلزالا حدث فى عام ١٥٤٤ هدم مجرى النهر ، ونزح قسم من السكان عن المدينة ، حتى كان عام ١٦٥٠ م حيث تبرع أحد أثرياء المدينة المسمى نعسان آغا فأعاد الساجور إلى مجراه الأول ، ولكنه ما لبث أن اندثر للمرة الثانية بسبب فقدان الصيانة . وفى عام ١٨٩٣ م انحبست الأمطار وأصاب المنطقة جفاف شديد واكتتب الأهلون فى إنشاء مجرى لمياه الساجور ولكنهم لم يوفقوا .

وفى عام ١٩١٤ – ١٩١٥ استجرت مياه عين التل واستهلكت بكميات ضئيلة ولغايات محدودة . ومنذ عام ١٩٢٥ نضبت مياه نهر قويق وجف النهر تماماً فى فصل الصيف بسبب استعماله فرى فى شمال الحدود السورية ، ونتيجة لانخفاض الطبقة المائية جفت الآبار ، وتدنى مستوى مياه عين التل وأصبحت الكميات التى تنضحها المضخات أكثر بكثير من التى توفرها الطبيعة . وبعد أن كان عدد السكان قبل خمسة وعشرين عاماً ٢٠٠ ألف نسمة ، أصبح يقارب الآن نصف مليون و وإلى جانب ذلك ارتفع مستوى المعيشة ونشط العمران ، وازدهرت الأعمال ، وراحت حلب تشكو الظمأ والجفاف من جديد ، وضجت المدينة بالشكوى ، فكان أن ولد مشروع جر مياه الفرات إلى حلب بموجب القانون الصادر بتاريخ ٢٩ أيار ١٩٤٧ ، وفى آذار من عام ١٩٤٩ جرى التعاقد مع شركة كبرى لتحقيق هذه الفكرة .

وفى خلال سنوات خمس ، أى سنة ١٩٥٥ تم إنجاز المشروع وشرب الحلبيون ماء فراتاً وما يزالون . . .

ومياه الفرات تؤخذ من قرية عاروضة التى تعلو ٢٨٨ متراً عن سطح البحر بعد ترسيبها بصورة ابتدائية وإزالة الأوحال منها ، ثم تدفع داخل قساطل معدنية إلى ثلاث محطات حيث تصفى تصفية نهائية وتعقم بالأزون آخر مخترعات الفن الحديث ، ثم تدفع مسافة ثلاثة كيلومترات إلى الخزان الرئيسى الذى يستوعب ٢٥ ألف متر مكعب ، وهو يعلو ٤٣٠ متراً عن سطح البحر ، ومنه تتفرع المياه داخل شبكة التوزيع .

هذا ، ويبلغ طول مجرى الماء من نهر الفرات حتى مدينة حلب ٩٥ كيلومتراً منها ١٤ كيلومتراً تقريباً قساطل حديدية و ١٤ كيلومتراً قناة كلها من البيتون المرجوج . (عن تقرير مصلحة مياه حلب)

دخول سيف الدولة إلى حلب

« كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء أوجههم للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرجاحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وواسطة قلادتهم » .

« . . وكان حضرته مقصد الوفود، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحط الرحال، وموسم الأدباء، وحلبة الشعراء . ويقال إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر . . . وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر . . شديد الاهتزاز لما يمدح به » .

الثعالبي فى « يتيمة الدهر »

لقد أشرنا إلى غروب شمس الدولة العباسية وما كان من ضعف الخلفاء واستبداد العمال وتغلب النزعات الأعجمية على الروح العربية الصميمة وانبثاق دويلات فى أطراف المملكة الإسلامية كان همّ رجالها أن يستأثروا بخيرات هذه الممالك وتوطيد نفوذهم الشخصي وإرهاق الشعب بضروب من العسف دون أن يفيدوا كيان الملك بشيء . . ثم تحدثنا عن هذه المهانات التى أصابت غير واحدمن الخلفاء العباسيين ،وبالأخص الخليفة المتّقى بالله، والتجائه إلى الحمدانيين الذين رعوه أحسن رعاية وصدّوا عنه عسف الديلم والترك غير مرة ، وكيف أن القائد التركى « توزون » لعب ذلك الدور الدنىء الذى بدأه بالخضوع بين يدى الخليفة ثم بالانتقاض عليه وسمل عينيه وخلعه عن الملك على أثر مؤامرة لعب فيها الكيد والدس وطغى فى إنجاحها المال وسلطان النساء ! . .

كانت هذه الفصول تمثل على مسرح الدولة العباسية التى تفككت أوصالها شذر مذر وسادها الاضطراب والفوضى فى كل بقعة من بقاعها . . وقد شهد أميرنا الشاب هذه المآسى فاربدّ وجهه واضطرب ، وإذ غاص فى أوحالها إلى الأعماق وأحسّ بالمهانة التى تحز فى كيان الدولة امتلأ صدره بالحقد من طغمة الأغراب المرتزقين الذين كانوا السبب فى تفكك هذه الإمبراطورية الإسلامية

العظيمة ، ورأىأن يتجه إلى بقعة يستطيع بما فى نفسه من قوة وعزم أن يعيد للدولة العربية بعض كيانها وأن يرفع للعروبة رايتها الخافقة بتأسيسه « الدولة الحمدانية » التى نستطيع أن نعتبرها دولة انبثقت عن الدولة العباسية كالإخشيدية سواء بسواء. وقد رأى أميرنا الشاب أن أرض الشهباء هى خير مرتع خصب لتحقيق أمنياته وآماله فنزلها على رأس جيش لا تتحدث كتب التاريخ عن مقداره وعدده ولكن هذا لا يمنع أن نقدره بعشرين ألف فارس أو ثلاثين بالاستناد إلى هذه الغزوات والحروب التى خاضها فى أراضى الرافدين حيث رد هجمات الديلم فكان تحت إمرته ما يقرب من هذا العدد أو يزيد . .

دخل الأمير هذه المدينة الوادعة وهو يحمل فى نفسه جيشاً من الآمال العظام . . وأى أمل أعظم من أن يقيم مملكة عربية تتحدث عنها الأيام بكثير من الزهو والفخر . وقد كان له ما أراد . . وهل كانت الحوادث الجسام فى التاريخ سوى أثر ميل شخصى ينبثق فى نفس قائد عظيم فيعمل على تحقيقه ولو أدى ذلك إلى حتفه وإلى تطويح شعب بأسره ؟ . . ولا نضرب الأمثال لأن الشواهد على ذلك كثيرة فى التاريخ القديم والحديث . ولو يئس سيف الدولة من أول صدمة ووهن عزمه وقبع فى أرض الموصل تحت كنف أخيه ناصر الدولة أو رضى باستقلاله بـ « واسط » وولايته على ديار بكر وميّافارقين — لما كانت « الدولة الحمدانية » ولما رأينا صورةحيةمن ازدهار الأدب فى عهد بنى حمدان— مع أن العصر كان موسوماً بطابع الفوضى والاضطراب — ولكانت غزوات الروم أتت على هذه البلاد فأعادتها بقاعاً رومانية لا أثر قطّ للعروبة فى ربوعها . . ولكن سيف الدولة ذو مضاء وحزم وعبقرية فاعتمد نفسه وصان هذه البلاد من هجمات الروم الجائحة ، واستطاع أن يلعب دوراً كبيراً فى صد غزواتهم وردهم إلى أراضٍ بيزنطية . . وإذا كانت صحف التاريخ القديم لم تتناول هذه النواحى بالدرس المفصل والإشادة بعظمة سيف الدولة فالواجب يقضى علينا أن نسجلها له اليوم بكثير من الفخار والتمجيد . .

دخل سيف الدولة الشهباء عام ٣٣٣ هـ فأعلن ملكه عليها فى حفلة

بسيطة ليس فيها أى مظهر من مظاهر الملك لأن وضعية البلاد الشاذة وتحفز الروم للهجوم والاستيلاء على هذه البقاع ثم هذه الانقسامات الداخلية التى كانت تهز البلاد هزًّا عنيفاً هى التى جعلته لا يهتم بهذه المظاهر العرضية .

وقد يكون من الفائدة — قبل أن نعرض إلى بدء حكمه فى حلب — أن نرسم للقراء بأية سلطة كانت تحكم هذه المدينة ثم نعرض إلى جوهر الموضوع .

لقد كانت هذه المدينة قبل دخول سيف الدولة إليها مسرحاً خصباً للمنازعات ، كانت تشهد هذه الاضطرابات فى أطراف المملكة الإسلامية فتألم وتثور فى نفسها شتى الميول والأحاسيس ، وكان يزيد فى ألمها هذا الطغيان الذى ينالها أحياناً من القبائل المجاورة وأخصها قبيلة « بنى تميم » التى هجمت غير مرة على البلد فعاث أفرادها فى الأطراف ونشروا ضروباً مختلفة من القساوة والظلم فشكت المدينة أمرها إلى الخليفة المقتدر الذى انتدب الحسين بن حمدان — عم سيف الدولة — وكان « بالرحبة » فسار إلى بنى تميم ولقى منهم جماعة بـ «خناصرة» فقاتلهم قتالاً شديداً وأسر بعضهم ولم يترك الشهباء قبل أن أزال جموعهم عن أرضها . . وإذ كان مؤنس الخادم والياً على مصر والشام من قبل الخليفة المقتدر أناب عنه فى حلب أبا العباس أحمد ابن كيغلغ ثم أبا قابوس الخراسانى ثم وصيف البكمترى الخادم ثم هلال بن بدر ثم أعاد الخادم وصيف ،وظلت حلب خلال هذه السنوات تحت ولاية أمراء أعاجم يمتّ بعضهم إلى العربية قليلاً وينكرها أكثرهم . . وكانت ولاية هذه المدينة مجال مساومة بين هؤلاء العمال فى عهد انتكست فيه الأخلاق وسادت الفوضى والأطماع ، هذا « طريف » الذى ولى حلب سنة ٣٢٤ هـ بلغه أن الخليفة الراضى قلد بدراً الخرشنى ولاية المدينة ، فما كان من طريف إلا أن اتصل بالوزير ابن مقلة ونفحه عشرين ألف دينار ليتوسط له لدى الخليفة لإبقائه والياً على حلب ! . . ولكن الخرشنى كان قد وصل إلى حلب . فما هو موقف « طريف » بعد أن توسط ابن مقلة ؟ وليست المواصلات بين حلب وبغداد لتساعد على الاتصال برقيـًا أو تليفونيـًا كما هو الحال فى عصرنا هذا لتدارك الأمر .

إذن ، فليصمد طريف لبدر الخرشنى وليعتمد على رجاله وحاشيته . وتقع بين الاثنين مشادة وقتال عنيف ينتهى بانهزام طريف واستيلاء الخرشنى على المدينة !..

هذا لون من ألوان الحكم الذى كانت تخضع له الشهباء فى ذالكم الحين ! وهو مثلٌ نسوقه ليعلم القراء ما قيمة الحكم فى ذالكم الوقت حيث كان الولاة يساومون على الولاية بمقدار ضخم من المال يدفعونه من جيبهم الخاص بأمل جمعه من جيوب الرعية بعشرات الأضعاف !

ثم دخلت المدينة فى حوزة الإخشيديين الذين ولوا عليها أبا العباس أحمد بن سعيد بن العباس الكلابى فلم يكد يتسلم ولاية حلب حتى استدعى قبيلته من نجد لتكون عونه فى الولاية والحكم . . وقدم بنو كلاب من نجد . . ولكن هذه القبيلة كانت بعيدة عن مظاهر المدنية أغراها ما فى بعض المدن من خير وفيض فأغارت على المعرة ، وكان قدومها مثار منازعات لم ترق للإخشيديين فأرادوا أن يسحبوا أبا العباس الكلابى فانسحب منها مكرهاً بدخول ابن رائق إلى حلب فى طريقه إلى دمشق لقتال الإخشيد الذى انهزم بعد أن انتهت المعارك بمقتل أخيه ، فأرسل خادمه وقائده كافوراً مع عسكر ضخم وجيش كبير انتهى بطرد ابن رائق والاستيلاء على حلب . . وكان ذلك سنة ٣٢٩ ﻫ وظلت بيدهم حتى سنة ٣٣١ ﻫ حيث تسلمها يأنس المؤنسى رغم نفسه ما فيها من القلق والاضطراب . . وانتهز الروم هذه الاضطرابات فحوموا حول حلب يريدون أن ينقضوا عليها ليدخلوها فى حوزتهم ويستمروا فى استرداد هذه البلاد قطعة قطعة كلما ساعدتهم الظروف . وبينا كانت هذه المدينة لا تعرف أهى تحت سلطة الخليفة أم تحت سلطة كافور الذى ولى عليها أبا الفتح عثمان بن سعيد الكلابى —وكان غير محبوب من عشيرته — اتصل إخوته بالأمير سيف الدولة واستدعوه إلى حلب لاعتزازهم ببطولته وأريحيته ، وإذ كان سيف الدولة يرغب فى ذلك كاشف أخاه ناصر الدولة بالأمر ثم تركديار بكر وميافارقين ورأس جيشه وسار إلى حلب فى أواخر تشرين أول عام ٣٣٣ ﻫ ليبدأ خططه فى تأسيس مملكته الجديدة .

* * *

لقد قدمنا هذه التوطئة لنعطى صورة صادقة عما كانت عليه هذه المدينة وما سادها من ألوان الحكم الذى هو – كما قلنا – أقرب إلى عهود الإقطاعية منه إلى السيادة الشعبية أو الحكم المطلق فى شخص ملك أو أمير ، وكيف أن سيف الدولة عرف أن يلم أطراف مملكته وأن يقضى على هذه الفوضى ويتخذ من نفوذه الشخصى سلطة مخيفة يبسطها على المتمردين فأعان إمارته دون ضجة ولا زعيق لينقذ المملكة من خطر الانقسامات الداخلية وعواصف الغزوات الخارجية .

ولكن هل استطاع أن يتوجه فور دخوله حلب إلى صد هجمات الروم المحوّمين حول البلد بعد أن طرد عنها الإخشيديين ؟ . . نعم . إن نيران المنازعات الداخلية لم تشغله عن صد الخطر الخارجى . . لقد وزع قسماً من جيشه فى أطراف المملكة وسافر على رأس حملة لمواجهة الروم فتوّج أول غزوة من غزواته بالنصر وردّ عن الوطن هذه الغائلة الأجنبية وعاد منتصراً ، فكان نصره وفوزه من الوسائل التى زادت فى بسط نفوذه المعنوى وأدخلت الرعب فى قلوب خصومه . وإذ دشن سيف الدولة أولى غزواته بانتصاره على الروم عاد لينفخ فى آذان الإخشيديين أن الفارس لا يزال فى الميدان . وما كان سيف الدولة ليريد هذه الحروب مع الإخشيديين الذين يرتبطون مع الحمدانيين برباط الإسلام الوثيق بل كان يحاربهم بقلب يقطر دماً لأنه كان يرغب لو أن هذه القوى تضافرت مجتمعة وانضوت تحت لوائه لصد هجمات الغزو الأجنبى ! وليعيد للإمبراطورية الإسلامية لواءها الخفاق ! . . ولكن ها هو ذا يرى الإخشيد قد جهز جيشاً كبيراً تحت قيادة خادمه وقائده كافور ويأنس المؤنسى الذى كان والياً على حلب . وإذن ؛ لا بد لسيف الدولة من لقائهما – وإن كان لما يستقر ويستريح من حروبه مع الروم – وسار نحو حمص واشتبك الجيشان فى « الرستن » فكانت الغلبة لسيف الدولة فأوقع بهما وبعساكرهما وأسر منهما أربعة آلاف جندى كما غنم جميع ما معهما ، على أنه لم يلبث أن اكتفى بالميرة والذخيرة وأطلق الأسرى . .

ورأى سيف الدولة بعد أن وصل بجيوشه إلى حمص وبعد أن اطمأن على الحدود بطرده الروم – رأى أن يتابع سيره ليستأصل شأفة الإخشيديين الذين أتعبوه فى بدء تأسيس مملكته بعد أن كان يأمل أن يكونوا عونه فى الدفاع عن حوزة الوطن من هجمات الأعداء الحقيقيين . لذلك صمم أن يتوجه إلى دمشق . . ويذكر المؤرخون أن سيف الدولة لم يوفق فى الهجمة الثانية لأن انكسار كافور فى الرستن حفز الإخشيد أن يمده بجيش كبير فجمع له قسما غير قليل من الجنود المرتزقة وهجم على سيف الدولة الذى رأى من الحكمة إزاء كثافة جيش الإخشيديين أن يتراجع ، وما زال يلاحقه كافور حتى اشتبكوا فى قتال مريع فى أرض قنسرين انكسر فيها سيف الدولة واتجه نحو الرقة . . فدخل الإخشيدى حلب خائفاً وعاث أصحابه فى نواحيها وقطعوا أشجارها الكثيرة وبالغوا بإيذاء الأهالى لميلهم إلى سيف الدولة الذى أحبوه وأنزلوه من أنفسهم منزلة كبيرة لإبائه وسمو نفسه ونبل غايته ، ولكن هل استطاع الإخشيد أن يحتفظ بحلب هذه المرة ؟ لا .. ولعله فكر بأن عمله هذا ليس فى مصلحة الإسلام أو أن سيف الدولة لن يصبر على ضيم ولن يتحمل هذا الانكسار فمد له يد الصلح واتفق الأميران على أن تكون حلب وأنطاكية وحمص لسيف الدولة ، ودمشق للإخشيد على أن يدفع عنها إلى سيف الدولة أتاوة سنوية ! أى كأنه اعترف ضمناً أن دمشق يجب أن تضم إلى ممتلكات الحمدانيين ! . . ولم يكتف سيف الدولة بالأتاوة لأن المال لم يكن مطمحه ولم تكن النزعات المادية غايته العليا بل كانت أمانيه تنحصر فى أن يوسع هذه الرقعة العربية مهما استطاع وأن يضم إلى سورية الشمالية دمشق وما حواليها ليعيد للإمبراطورية الإسلامية المتفككة الأوصال بعض كيانها المفقود وأثر مجدها الضائع ، فاغتنم فرصة انسحاب جيوش كافور إلى مصر لكفاح المغربى وقصد دمشق حيث استولى عليها وقلبه مطمئن . وللمرة الأولى وطئت قدما سيف الدولة عاصمة الأمويين ففتنته غوطتها الفيحاء ورأى فى هذه المدينة القديمة الجديدة التى خصها الله بفنون من السحر صورة من جنان الخلد ، وتطمع نفسه فى أن يمتلكها وأن يضمها إلى سلطة نفوذه.. وفى ساعة من ساعات الغروب كان

سيف الدولة يشرف من جبل قاسيون على غوطة دمشق . . وكان رفيقه فى نزهته هذه الشريف العقيقى . ويروق سيف الدولة منظر الغوطة الخلاّب الذى يحيل دمشق بأشجارها المتعانقة ساعة انحدار الشمس وراء الأفق الأرجوانى سرباً من فتيات جميلات قد ائتزرن بثوب لازوردى يخفق فى طياته هواء لطيف هو همس أحاديثهن ونجوى غرامهن ورسيس حبهن وهذه النزوات التى تزيد فى حرقة قلوبهن — بانت له دمشق كهذا السرب من الفتيات أو كقطعة من فراديس الحياة . . . وأميرنا الشاب شاعر بإحساسه وشعوره وعاطفته فقال للعقيقى والله ما تصلح هذه الغوطة إلا لرجل واحد .

قال له العقيقى : هى يا مولاى لأقوام كثير . .

قال سيف الدولة : لو أخذتها القوانين السلطانية لتبرءوا منها ؟

ولعله أراد من كلمته هذه أنه لو ضمت إلى ملك الدولة لما فاهوا بكلمة !

وأذاع العقيقى هذه الرغبة فى نفوس أهالى دمشق فأوجسوا منه شرًّا وخافوا أن يمتلك هذه الأرض لنفسه، ولم يدرك أحد رغبات الأمير الحمدانى التى ترمى إلى تعزيز المملكة العربية الفتية على أنقاض الدولة العباسية وأنه أحب أن يربط بين دمشق وحلب وأن يجعلهما جناحين قويين للدولة الحمدانية . لم يدركوا هذه الرغبات أو أدركها المتنفذون فخافوا أن تذهب أملاكهم وقوداً للدفاع عن حمى الوطن فاتصلوا بكافور وأفضوا إليه بمطامع سيف الدولة وطمحاته وطلبوا إليه العودة ليحول دون طغيان هذا الأمير الحمدانى الشاب، وإذ كان كافور لا يزال يحنّ إلى دمشق جهز حملة جديدة واتجه نحو « جلّق » حيث التقى بسيف الدولة واشتبكا بقتال غير عنيف ، وخاف سيف الدولة انتقاض الأهالى عليه بعد أن فسر المتنفذون رغباته بما يتفق ومصالحهم الخاصة فقرر أن يرجع إلى أحضان مملكته الجديدة ، إلى أرض الشهباء ليستقر فيها نهائيًّا .

وإنه لمن الغرابة بمكان أن يوجس الدمشقيون شرًّا من سيف الدولة لمجرد رغبة زلق بها لسانه هى فى اعتقادنا لمصلحة الوطن والإسلام معاً وأن يطمئنوا لسلطان

الإخشيديين فى شخص كافور الغلام الأسود [١] ويرتضوا عودته إلى دمشق ولم تكن سيرته ولا سيرة سيده الإخشيد لتزكو بحسنة من الحسنات بل عرف بظلمه واستبداده ومصادرته أموال الأغنياء واستصفاء أملاكهم سواء فى الشام أم فى مصر . . وكى نلمح إلى حكم الإخشيديين وأنه لم يكن أرأف بالرعية من حكم الحمدانيين نورد نص الكتاب الذى وجده الإخشيد فى داره بدون توقيع . . والكتاب يفسر ما نبض به قلب الشعب ويصور الحالة تصويراً واضحاً لا غموض فيه أضف إلى هذا أن سيف الدولة عربى من صميم العرب والإخشيد أو كافور نوبى لا يمت إلى العربية بنسب وتفضيل حكم الإخشيديين على الحمدانيين مسألة تدعو إلى العجب الكبير . . وهذه صورة الكتاب الذى وجده الإخشيدى بداره قبل مسيره من مصر إلى الشام .

« قدرتم فأسأتم ، وملكتم فبخلتم ، ووسع عليكم فضيقتم . وادرّت عليكم الأرزاق فقطعتم أرزاق العباد ، واغتررتم بصفو أيامكم ولم تفكروا فى عواقبكم ، واشتغلتم بالشهوات واغتنام اللذات ، وتهاونتم بسهام الأسحار وهن صائبات . ولا سيما أن خرجت من قلوب قرّحتموها وأكباد أجعتموها ، وأجساد عريتموها ، ولو تأملتم فى هذا حق التأمل لانتبهتم ، أوما علمتم أن الدنيا لو بقيت للعاقل ، ما وصل إليها الجاهل ، ولو دامت لمن مضى ما نالها من بقى ، فكفى بصحبة ملك يكون فى زوال ملكه فرح للعالم ، ومن المحال أن يموت المنتظرون كلهم حتى لا يبقى منهم أحد . ويبقى المنتظر به ، افعلوا ما شئتم فإنا صابرون ، وجوروا فإنا بالله مستجيرون ، وثقوا بقدرتكم وسلطانكم فإنا بالله واثقون وهو حسبنا ونعم الوكيل » . وقد ذكر المؤرخون أن الإخشيدى بقى بعد سماع هذه الرقعة فى كثير من الاضطراب والهمّ وسافر إلى دمشق فمات فيها سنة ٣٣٤ هـ .

---

(١) وكافور هذا عبد أسود ، خصى ، مثقوب الشفة ، عظيم البطن ، مشقق القدمين ، ثقيل البدن ، لا فرق بينه وبين الأمة . قيل سئل عنه بعض بنى هلال فقال رأيت أمة سوداء تأمر وتنهى ! وكان هذا الأسود لقوم من أهل مصر يعرفون ببنى عباس يستخدمونه لحوائج السوق وكان مولاه يربط فى رأسه حبلا إذا أراد النوم فإذا أراد منه حاجة يجذبه بالحبل لأنه لم يكن ينتبه بالصياح ! نعم . لغريب جداً أن يفضل أهل دمشق – فى ذلكم الوقت – هذا الأسود الخصى على أمير عربى كريم كسيف الدولة .

وعبارات الكتاب تنم عن حرقة وشكوى مرة من بطش الإخشيديين سواء فى مصر أم فى دمشق . على أن حكم سيف الدولة لم يوصم بهذه الوصمة وكل ما عمله أن جبى الخراج الشرعى وجعل يطالب الدمشقيين بودائع الإخشيدى التى أرادوا أن تكون لهم — على ما يظهر ، ثم أفضى برغبته أن تكون الغوطة له أى ملكاً للوطن فكلفته هذه الكلمة كثيراً وهبّ المتنفذون يحيكون الدسائس ويتصلون بكافور الذى استدعوه مع ابن الإخشيد ، وأحس سيف الدولة بهذه الدسائس فاستعدّ للقتال وجهز جيشاً من خمسين ألف فارس وسار إلى أرض فلسطين حيث تلاقى الجيشان فى « اللجون » فى جهة « نابلس » واشتبكا بقتال مريع جداً ، وإذ كانت جيوش الإخشيديين عظيمة رأى سيف الدولة أنه من الحكمة أن يتراجع حتى وصل إلى حمص واستنهض همم القبائل العربية فجمع عدداً كبيراً من بنى عقيل وبنى نمير وبنى كلب وبنى كلاب وخرج بهم من حمص وشخص عساكر الإخشيدية من دمشق فالتقوا « بمرج عذراء » على بعد ساعتين من دمشق فانتصر سيف الدولة أولاً ثم خذل ثم رأى أن يتراجع بفلول جيشه إلى حلب وأن يتخذها قاعدة ملكه ويستقر فيها نهائيًّا . وقد كان ذلك بعد أن عقد الصلح بينهما مجدداً على أن تظل حمص وأنطاكية مع حلب وضواحيها لسيف الدولة . .

* * *

وإذ استقر فى حلب رأى أن يبدأ أول أعماله ببناء قصره البديع فى أرض «الحلبة»، أى فى سفح جبل الجوشن، هذا القصر الذى خصه الشعراء بكثير من وصفهم لما حواه من دقائق الفن وبديع الزخرف ومختلف التصاوير والنقوش، وإذا كان الشعر العربى قد وصف هذا القصر وصفاً شاملاً دون أن يشير إلى دقائقه فإن مؤرخى الغرب قد فتنوا بروعته ووصفوه وصفاً أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة ، ولكن الذى يدرس تاريخ سيف الدولة وينفذ إلى طباعه وإلى مزاجه الشعرى وإلى بذخه وذوقه الفنى لا يستكثر عليه هذا القصر الذى يصفه أندره دايفتس المستشرق الفرنسى فى قصته عن الأمير سيف بقوله :

« وابتنى الأمير بواسطة الأسرى العديدين على ضفاف نهر قويق قصراً عظيما

دعاه « قصر الحلبة » فجاء بأحذق المهندسين وأمهر المصورين وأبرع البنائين والنجارين يعتنون ببناء وفرش هذا القصر على أفخم طراز وأبدع ما تضمه قصور أباطرة الرومان . .

« وعندما افتتحت أبواب القصر للمرة الأولى كان ذلك مثار الدهشة والإعجاب ؛ لأن الأبواب كانت من البرونز النحاسى نقشت عليها ألوف التصاوير المستغربة الجميلة ، وهى تدور على قواعد من الزجاج حتى لا تأتى بحركة ، وإذ تدخل الباب تواجهك قاعات متتابعة ملأى بالأعمدة المرمرية المزركشة والموشاة بالذهب والفضة ، وجعل المصورون رسوم الزهور فى أواسط القبب العالية حيث حفروا بين جهة وأخرى آيات من كتاب الله الكريم بأحرف كوفية جميلة وأبيات مختارة لأعاظم الشعراء بأحرف فارسية فتانة » .

ويزيد المستشرق الذى رجع فى وصفه هذا إلى مؤرخين رومانيين شهدوا روعة القصر بقوله :

« وكان للقاعة الكبرى خمس قبب بلون اللازورد يحملها ١٤٢ عموداً من المرمر المزركش بالفضة والذهب ، تنيرها ألوف من النوافذ الزجاجية الملونة ، وفى وسط كل عمود خرجت زهريات ملأى بالزهور والنباتات النادرة . وفى الوسط إفريز عظيم من خشب الأبنوس الموشى بالذهب جعل خصيصاً لجلوس الأمير ورجاله الأخصاء وحفر عليه رسم الأمير منتصراً على الصحراء » . .

ويسهب المستشرق بوصف السجاد الفاخر والدمقس الغالى ومحارق البخور التى تزين القصر ، ويبدع فى وصف البحيرات المنتثرة هنا وهناك فى حدائق القصر ، ثم يصف بكثير من اللباقة الحرم النفيس الذى كان يتسع لسكنى ثلاثمائة امرأة . ثم الحمامات التى كانت آية الفن والذوق الرفيع ، ويشير إلى المياه البلورية التى كانت تتدفق من فم اثنتى عشرة سمكة من الذهب الإبريز ويصل به وصفه إلى أن يذكر الإصطبلات ذات المعالف الرخامية لألف جواد وجواد » . . .

إن فى هذا الوصف لقوة تجعله أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة . ولكن هل هذا الخيال نثار من الهباء لا يرتكز على أساس وطيد ؟ . . كلا . . إن فيه كثيراً

من الحقائق . . والشعر العربى لم يهمل ذكر هذا القصر وبالأخص الشاعر المتنبى . . ونحن نعلم أن العقل العربى كان يعمد إلى التعميم دون الالتفات إلى هذه الدقائق التى وعتها الذاكرة الرومانية فنقلتها بصورة أوسع فى كتب التاريخ واتخذها مستشرقو اليوم مادة قوية لوصف أعم وخيال أوسع . يقول ابن الشحنة فى كتابه « الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب » حين يتحدث عن قصر الحلبة :

« بناه سيف الدولة بن حمدان بالحلبة عظيما وأجرى إليه نهر قويق وأطافه به — والحلبة محلة من ضواحى حلب من جهة الغرب وهى مكان صحيح الهواء ، حسن التربة ، مشرف على النهر وبه كروم وميدان بل ميدانان تقام فيهما حلبة السباق ويتصل بها مكان يقال له « الفيض » . وبعد ، فلولا أن كتب التاريخ تحدثنا بأن نيقفور فوكاس الأمير البيزنطى الذى اشتبك مع سيف الدولة أكثر من عشر مرات بقتال مريع انتهت آخر حروبه معه بهدم القصر وسبى أنفس ما فيه — لولا ذلك لكان اليوم عندنا فى الشهباء أثر فنى قل أن يكون نظيره فى الشرق ولكانت الألف سنة التى تصرمت عليه قد زادته روعة وجمالاً وقيمة أثرية نادرة . ولكنها همجية الحروب التى كثيراً ما تنم عن بداوة الطبع الإنسانى فى شخص أناس تحسبهم صورة حية لمدنية رفيعة وإذا هم مردة طغاة لا يبرد غليل انتقامهم إلا فى التجنى على أسمى ما يقدسه الفكر . . لقد غلب سيف الدولة نيقفور غير مرة واستطاع أن يدوس كرامته حتى فى أرض الروم فعز عليه هذا الخذلان المريع فلما أتيح له دخول حلب كان أول همه — وقد خلا له الميدان من فارسه الصنديد — أن يستولى على القصر وأن يحطم أثمن ما فيه من أعلاق ونفائس وقطع فنية ثمينة .. وبذلك خسر الفن العربى أروع أثر تاريخى كان يمكن أن يعطينا أصدق فكرة عن دولة فتية انبثقت من صميم العربية وقضت نحبها فى سبيلها .

* * *

. . بعد أن رجع سيف الدولة إلى هذه المدينة التى استهوته لتحقيق أحلامه الغالية فى بناء الكيان العربى الجديد ، وبعد حبوط خططه فى ضم دمشق

إلى هذه الرقعة العربية — اهتم بعمران الشهباء اهتماماً بالغ الأثر وكانت أولى أعماله بناءه قصر « الحلبة » الفخم ، وقد اتخذ من ميله للأدب مجالاً واسعاً ليحبو كبار أدباء العربية المبعثرين فى مختلف البلدان فجمع شملهم فى هذه الأرض الجميلة وجعل منهم قوة عرف كيف يجعلها تخلص له وتذيع أمره وتخلد ذكره فى الأمصار . ونحب أن نشير إلى ناحية جديرة بالملاحظة والتأمل وهى أن انفراط عقد الدولة العباسية وخضوعها لعسف الترك والديلم واستقلال الولايات والإمارات فى أنحاء المملكة جعل الشعراء والأدباء الذين كانت آمالهم معلقة بكيان دولة كبيرة أشبه بعقد من اللؤلؤ المنظوم قد انفرطت حباته وتبددت هنا وهناك . . . ولقد قبع الشعراء فى بيوتهم لا يرتفع لهم صوت وكانت همساتهم لا تتجاوز جوانب قلوبهم وأوساطهم الخاصة . . وشعر الأمراء الذين استقلوا بالممالك أنهم فى أمس الحاجة إلى هذه الفئة من الموهوبين لتذيع أعمالهم وتتحدث عن غزواتهم وتنشر آراءهم وتسبح بحمدهم وتقلب سيئاتهم حسنات— والشعراء فى تلكم العصور أشبه بالجرائد اليومية فى عصرنا هذا ، أى كانوا يقومون نحو الدولة والأفراد بما تقوم به بعض الجرائد الآن — وأخذت هذه الإمارات التى قامت على أنقاض الدولة العباسية تجتذب إليها الأدباء والشعراء وتستغل مواهبهم بهذه الأعطيات التى كانت تغدق عليهم إغداقاً . . وكان أميرنا الحمدانى أكثر الأمراء تقديراً لهذه النزعة الحية . . وسيف الدولة أمير شاب وشاعر أديب تذوق الأدب بدقة ولباقة ودرسه على شيوخ ممتازين وأدباء مبرزين فاجتمع له فى هذا الدرس ومن ميله الصميم للأدب ما دفعه أن يرعى الأدباء ويهتم لأمر الشعراء أكثر من غيره ، وإذ كانت أمانيه تتجه هذه الوجهات السامية وأحس من أعماق نفسه بأنه سيضطلع بعمل جليل فى توطيد مملكة جديدة وأن لا بد لهذه الأعمال الكثيرة من أن ترسم على صفحات الدهر بأحرف بارزة — إذ أحس هذه العوامل فتح أبواب مملكته لمختلف رجالات الفكر ولصفوة طيبة من أكابر أدباء العربية وأمرائها فهرعوا إليه من كافة الأقطار الإسلامية يزجى بعضهم أمل واسع بازدهار هذه المملكة العربية

التى ولدت ولادة جديدة ، ويطمع البعض بعطايا سيف الدولة التى كانت أبلغ قيمة من هذا الشعر الذى فاضت به أخيلتهم . وعطايا أميرنا الحمدانى أصبحت مضرب المثل فى تاريخنا الأدبى فهى إلى أنها ترسم مدى اهتزاز نفسه من الشعر الحى تعطينا فكرة صادقة عن تطور الأدب فيما إذا حبته الدولة ورعته بعنايتها الرحيمة .. والشيء الذى كان يحفز الشعراء إلى الإجادة أن ممدوحهم كان يفهمهم حق الفهم . . وليس أحب إلى الشاعر من رجل يفهمه وينفذ إلى طيات نفسه .. إنه فى هذه الحالة يهبه كل ما تنطوى عليه جوانب قلبه من حب . . وهذا الحب كان يستحيل قصائد قوية كلها إشادة ببطولة الأمير وإطراء شخصيته ، وثمة أمر آخر أن سيف الدولة لم يكتف أن يسمع شعراءه كلمات الإعجاب والتقدير بل كان يملأ جيوبهم بمئات الدنانير وآلافها . . وكان يقطعهم الضياع يستغلونها ويغدق عليهم مختلف الأعطيات الثمينة . . وقد تجاوز به الإسراف حتى إنه كان يمنح الشاعر المنح الغالية لمطاوى الكلمات ، ومن ذلك أن المتنبي حين أنشده قصيدته التى أولها :

أجابَ دمعي وما الدّاعي سوى طَلَلِ ... دعا فلبّاه قبل الركب والإبلِ

وناوله نسختها . . فنظر فيها سيف الدولة فلما انتهى إلى قوله :

ياأيها المحسنُ المشكورُ من جهتى ... والشكرُ من قِبَلِ الإحسان لاقِبَلى
ما كان نومِيَ إلاّ فوق معرفتى ... بأن رأيك لا يؤتى من الزّلل

أقلْ ، أنلْ ، أقْطع ، احملْ ، علّ ، سلّ ، أعدْ
زدْ ، هَشّ ، بشّ ، تفضّلْ ، أدْنِ ، سُرَّ ، صِلِ

وقّع تحت أقل : وقد أقلناك

وتحت أنلْ : يحمل إليه من الدراهم كذا . .

وتحت أقطع : قد أقطعناك الضيعة الفلانية . .

وتحت احمل : يقاد إليه الفرس الفلانى . .

وتحت علّ : قد فعلنا . .
وتحت سلّ : قد فعلنا فاسلُ . .
وتحت أعد : أعدناك إلى حالك من حسن رأينا . .
وتحت زد : يزاد كذا . .
وتحت تفضل : قد فعلنا . .
وتحت أدْن : قد أدنيناك . .
وتحت سرّ : قد سررناك . .

على أن المتنبي لم يقصد السرور بل أراد « سرّ » من السرية ، على ما رواه ابن جنى عن المتنبي ذاته . . فأمر له بجارية . .

وكتب تحت صل : قد وصلناك . .

إن هذه الأحاديث والأعطيات لم تكن ضرباً من الخيال بل شيئاً واقعياً وقصصه فى ذلك كثيرة ، وحِسب المتنبي أن يردد فيه :

تركتُ السّرى خلفى لمن قلّ مالهُ وأنعلت أفراسى بنعماك عَسْجدا
وقيدتُ نفسى فى هواكَ محبةً ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا

وليس فى ذلك أى نبو عن طبع سيف الدولة الذى كان يختلف عن بقية الأمراء فى كشف خصائص الشاعر واقتناص مواهبه . فقد كان هؤلاء يعتمدون فى تقدير موهبة الشاعر على وزرائهم ورجال حاشيتهم بخلاف سيف الدولة الذى كان يعتمد على ذوقه الخاص وثقافته الأدبية الممتازة . .

وفى هذا ما فيه من الأثر البين فى نمو الحركة الأدبية وتطورها البليغ . . بل هذا — فى اعتقادنا — من أهم العوامل التى جعلت أن يكون موقف الشعراء منه غير موقفهم من بقية الأمراء . فكانوا إذا مدحوه مدحوه عن إيمان بعبقريته وتقدير لرجوليته. والمتنبي الشاعر — برغم ما تلمسه من ضروب التغالى فى أماديحه لسيف الدولة — شعره فيه أصدق ألف مرة من شعره فى كافور الإخشيدى أو فى غيره من الأمراء ، مع أن المتنبي ترك حلب وودع سيف الدولة وفى نفسه ما فيها من

حنق وثورة على الوشاة الذين حالوا دون أن يقضى بقية أيامه فى خدمة هذا الأمير الحمدانى الكريم . . ولقد أحرجه شيوخ المدرسة القديمة وعلى رأسهم ابن خالويه فأخرجوه من حلب إلى مصر ، ورغم كل ذلك ظل قلبه معلقاً بحب سيف الدولة ، فعلامَ يدلنا هذا ؟ يدل على أن شخصية سيف الدولة هى التى كانت توحى إلى الشعراء المعانى الغالية والخيال المبتكر . ورأينا مدينة حلب تجمع فى سنوات متقاربة أكابر رجال ذلك العصر ، فهذا المتنبى ، والفارابى ، وأبو ذرّ والصنوبرى وابن خالويه ، وابن جنى ، والبكتمرى ، والنامى ، وكشاجم ، وابن أبى الفياض ، وأبو الفرج العجلى وكثيرون من القضاة والنحويين والأدباء والشعراء والفنانين ، وكلهم ينعمون بخيرات سيف الدولة ويزينون مجالسه ويتقدمون إليه بنتاج شعرهم وأصفى ما تلده قرائحهم الوقادة . وانتظام هذه المجموعة فى حلب ، فى عاصمة الدولة الحمدانية ، وكلهم من بلدان مختلفة وذوو ثقافات متباينة يدعو حتما إلى وجود أكثر من مدرسة فى الأدب ، وإذا لم نتوسع فى كشف هذه المدارس وتمييز ألوانها وطابعها قلنا إن الأمر دعا لأن يكون فى ذلك العهد مدرستان : مدرسة الأدب القديم ومدرسة الأدب الجديد . وقد كان ذلك.وكان «صالون» سيف الدولة يزخر بهذا الجمع القوى فى ثقافته الأدبية وكانت المناقشات تضطرم والعداوات تثور ، والحسد يتأكل قلوب الأدباء ، وكان سيف الدولة يغمر الجميع بعطفه وعنايته ويزودهم بابتسامته التى لا تنضب تموجاتها الساحرة وكان لا يتأخر أن يوغر — من طرف خفى — صدر هذا على ذاك لأنه يعلم أن هذه المناظرات وهذا التنافس هما ربح أكيد للأدب وكسب طريف للفنون وتمهيد قوى لولادة العبقريات . . ولا نتوسع هنا فى هذه الناحية لأن هذا سيأخذ منا دراسة وافية فى فصولنا القادمة . . ولكننا أردنا بهذه الإشارة أن نقول إن سيف الدولة كان فى جمعه الشعراء والأدباء تحت لوائه من أقوى العوامل فى ازدهار الأدب العربى وتطوره فى القرن الرابع وفى رفع اسم هذا البلد عالياً فى التاريخ الأدبى كما رفعه فى التاريخ السياسى ، حيث جعل أمر هذه المملكة موضع إعجاب كل من التفت ألف عام إلى الوراء ليدرس أمرها حين يستعرض تاريخ الإمارات العربية.

وهذا الذى جعل مؤرخى الأدب يتفقون على أن عهد سيف الدولة كان من أكثر نواحيه أزهر عصور الأدب العربى . . وحسب القارئ أن يذكر قول الثعالبى — وهو ثقة من شيوخ الأدب ويكاد يكون مؤرخاً أدبياً معاصراً — إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ، ليعرف أية مكانة رفيعه بلغ الأدب فى ذلكم العصر .

إن هذه الظواهر الجديدة التى تجلت فى عناية « الدولة الحمدانية » بالأدب وحرصها على مجد العرب بعد أن انتكست الأحوال وطغت العجمة على النواحى السياسية والأدبية جعلت الإمارات المجاورة تلتفت إلى أعمال سيف الدولة وإلى خططه وبرامجه ، وكانت الناس تهرع إلى حلب من كل صوب وكل يطمع أن ينعم بخيرات سيف الدولة ويكون عضداً له ؛ وهكذا أصبحت حلب فى سنوات قليلة من أزهى عواصم البلدان الإسلامية . وكما ترى فى يومنا الصحفيين الأجانب يتلمسون أمر هذه الممالك الجديدة التى تبنى مجدها بيدها دون أن تلتفت إلى عواصف الأيام ، فقد كانت هذه الرغبة فى نفوس مؤرخى الإفرنج وأدبائهم قبل ألف عام . يدلنا على هذا ما كتبه مؤرخو الفرنجة عن الدولة الحمدانية ، ولا نغالى إذا قلنا إن مؤرخى الفرنجة كانوا أكثر عناية بهذه الدولة العربية من مؤرخى العرب . . . وإن الإنسان ليسمع آراءهم صافية مجلوة بروح الإنصاف والإعجاب . . ومردّ ذلك إلى عبقرية سيف الدولة التى تجلت قوية مخيفة فى معارك الحرب ، ومشرقة باسمة فى رحاب السلم حيث « فتح قصره — على حد رواية المستشرق سيشلمبرجر — إلى كل فنان وأديب موهوب ، فوفدوا عليه من جميع الأطراف ، من العراق ، من فارس ، من الشام ، من بيزنطية ، من البندقية وجنوى . . وكان يستمع إلى الشعراء ويتحبب إلى الكتاب والمصورين ويمنح المؤرخين الشىء الكثير من عطاياه ومنحه فيعود هؤلاء إلى بلادهم حاملين إلى شعوبهم صورة رائعة من خلق الرجل العالى وشخصيته العجيبة » .

ننتهى من هذا إلى أن أميرنا الشاب لم يشأ بعد أن دفع عدوان الروم لأول مرة من هبوطه حلب وبعد أن حارب الإخشيديين — أن يزج نفسه فى حروب دامية مع

البيزنطيين قبل أن يوطد أركان مملكته ويبسط آفاق نفوذه . . فاتخذ الأدب طريقاً ممهداً . ووفق فيما رمى إليه بكثير من اللباقة والذكاء . . فكان أمره خلال إقامته فى حلب بين الغزو والحرب وبين الأدب والشعر . . . وله فى الأمرين شأن أى شأن ! . . .

سيف الدولة

حروبه وغزواته

١

شخصية سيف الدولة – مصادر البحث – قيصر الروم – تحقيق معنى الدمستق – اضطراب الرواية العربية – المعارك الأولى – مديح الشعراء.

منذ توطد ملك سيف الدولة فى حلب وأمن – إلى حد ما – خطر الفتن الداخلية أخذ يعدّ العدة للقاء البيزنطيين ودفع هذا الخطر الخارجى المدلهم.

الحق أن مهمته كانت شاقة جداً . . . ولكن سيف الدولة لم يكن ذلك الرجل الوكِل الذى تعصف به الأهواء ، كان رجل قوة وعزم ، وصاحب عقيدة وإيمان . . لقد شعر شعوراً قوياً بأن الجهاد فى دفع طغيان الأجنبى فرضٌ من الفروض المقدسة . وسيف الدولة أمير شاب نشأ على حب المغامرة والعراك ، وكان حرصه على صون هذه المملكة التى بناها بكثير من حبه وإيمانه وعروبته مثاراً لأن يقضى أخلد أيامه فى الحرب والنضال . وماذا تريد من أمير شاب تسنم صولجان الملك وقد توفرت لديه كل وسائل الرفاه والنعيم فلا تغريه هذه الملذات السحرية التى تشيع فى بلاطه فينتفض انتفاضة الأشبال – كلما دعاه الواجب – للقاء البيزنطيين فى آكام طوروس وسهول الأناضول . نعم ، لم يكن سيف الدولة كأولئك الأمراء الذين يركنون إلى بلهنية العيش وأرضهم مهدّدة بالغارات ، ولم يكن كأولئك القواد الذين ينفخون روح الحماسة فى صدور رجالهم ويدفعونهم إلى الموت ثم يأوون إلى قصورهم بعيدين عن نيران المعارك حتى إذا ما آتاهم النصر حصدوه وهم فى نشوة وخيلاء . بل كان سيف الدولة رجل عراك وقتال . . كان يتقدم جيشه وقلبه مطمئن . وبماذا ندل على بطولته أكثر من أن نشير إلى لقائه البيزنطيين أكثر من أربعين مرة فى حروب دامية عدا غزواته

المتعددة التى حمل فيها على رجال القبائل الذين كانوا يعيثون فى أطراف المملكة ويتمردون كلما رأوا الأمير الحمدانى منشغلا فى قتال البيزنطيين . كان يناضل عن أنبل غاية بينما كانوا يجرون وراء أخس غاية . وهذا الذى يزجينا أن نوالى دراستنا لكشف خصائص هذا الأمير العربى وإبرازها واضحة رغم ما يعتور بحثنا من مصاعب. وهذى المصاعب التى أشير إليها هى فقد المصادر الكافية التى تتطلبها الدراسات الحديثة لا سيما فى البيئة التى أعمل فيها . ومع ذلك فإن المصادر العربية التى تتحدث عن سيف الدولة والمصادر الإفرنجية التى تتحدث عن الأمير البيزنطى الذى اصطدم مع الأمير الحمدانى فى أكثر غزواته تضىء جوانب البحث بعض الإضاءة ، وقد اعتمدنا فى بحث حروبه وغزواته على هذه المصادر العربية التى بين أيدينا وإلى بحوث المستشرق سيشلمبرجر — وهو خير من عرض إلى حروب البيزنطيين مع سيف الدولة بتوسع — وإلى غيره ، ثم إلى قصائد الشاعرين اللذين رافقاه إلى ميدان القتال ووصفا غزواته : المتنبى وأبى فراس . ولا شك أن قصائد المتنبى فى وصف المعارك التى خاضها سيف الدولة هى من القيمة التاريخية بمكان. ذلك لأن الشاعر فى مثل هذه الظروف لا يستطيع أن يعتمد على الخيال وحده والحقيقة ماثلة أمام عينيه . وأكاد أميل — بعد أن أمعنت النظر فى روايات المؤرخين — إلى أن قصائد الشاعر — فى بعض النواحى — أصدق من روايات المؤرخين التى يعتور أكثرها الاضطراب والتشويش . ونقف عند هذه التوطئة لنبدأ وصف المعارك التى خاضها الأمير الحمدانى . وقد يكون من الخير أن نعرف — قبل أن نبدأ وصف هذه المعارك — منْ هو هذا القائد البيزنطى الذى اصطدم مع سيف الدولة فى حروبه وغزواته . . . تكاد تتفق الروايات العربية على أن حروب سيف الدولة كانت مع الدمستق ! وحتّى المتنبى يذكر « الدمستق » فى كثير من قصائده ، وعبثاً حاولنا أن نرى فى المصادر الأجنبية اسماً للدمستق فلم نجد . إنها تذكر نيسفور فوكاس وبارزاس فوكاس وغيرهما. إذن فمن هو الدمستق ؟ وعلامَ يدلّ هذا الاسم ؟ أهو اسم قيصر الروم أم اسم قائده ، أم هو لقب، أم صفة من الصفات؟ لقد تبين لنا

بعد البحث أن معنى الدمستق فى الألقاب البيزنطية هو « ضابط البلاط » لأن كلمة « دمستق » مشتقة من كلمتى Grand Domestique وهى الصفة التى كان يحملها نيسفور فوكاس القائد العظيم فى عهد قيصر الروم قسطنطين السابع وكان لقبه Grand Domestique de Sekoler d'orient أى « ضابط البلاط فى أيام الإمبراطورية البيزنطية [١] » وطالما قد عرفنا أن الدمستق لم تكن إلا صفة ، وأن القائد الذى التحم مع سيف الدولة فى حروب دامية هو نيسفور فوكاس فيحسن أن نلم إلمامة موجزة بسيرة هذا القائد البيزنطى قبل أن ندخل صلب البحث .

القائد البيزنطى

نيقفور فوكاس قائد بيزنطى عظيم . حارب فى عهد قسطنطين السابع مدة طويلة كما حارب فى عهد رومان الثانى . وفى السنة ٩٦٣ م – وهى السنة التى توفى فيها رومان الثانى – تسنم نيقفور فوكاس العرش [٢] وتزوج أرملة الإمبراطور المعروفة باسم «تيوفانو الجميلة». وبطولة نيسفور فوكاس وحروبه مع سيف الدولة واستّرداده بعض البلدان الإسلامية وغزوه قبرص وكليكيا وسورية الشمالية ودخوله أنطاكية من الممهدات التى بوأت له عرش المملكة البيزنطية وأدنته قليلاً من قلب الملكة . ولم تقف حروب هذا الأمير البيزنطى الشجاع عند هذا الحد بل كان يحارب فى نفس الوقت فى جهات البلقان ووصل نفوذه إلى إيطالية الجنوبية وحارب أوطون الأكبر – ملك ألمانيا – وأعظم أمراء النصرانية فى القرن العاشر الميلادى ؛ وإذ توسع بحروبه فى الشرق والغرب اضطر أن يزيد الضرائب وأن يمس أموال الكنيسة فأتُمِر به من قبل أعزّ قواده ومن قريبه جان تسيمس

(١) ذكر الحافظ الذهبى فى كتابه « تاريخ الإسلام » أن معنى الدمستق هو نائب البلاط فى شرق قسطنطينية . وفسر الخضرى فى كتابه « محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : الدولة العباسية » أن الدمستق عند الروم هو الرئيس الأكبر للجيش والبطارقة قواده . والصيغة الإفرنجية أدق وأضبط .

(٢) لقد عرضت بعض الروايات العربية إلى ذكر نيقفور باعتباره ملك الروم واكتفت بصفته حين كان قائداً معتبرة – الدمستق اسما من الأسماء ومن هنا وقع الاضطراب .

وحتى من قبل امرأته ، ومات اغتيالا فى ١٠ ديسمبر سنة ٩٦٩ م .

هذا هو نيسفور فوكاس Nicephore Phokace الأمير والإمبراطور البيزنطى العظيم الذى حارب سيف الدولة وكانت الحرب سجالا بينهما مدة عشرين سنة كاملة .

إذن ، فيجب أن ننفى من المصادر العربية اسم « الدمستق » كاسم وأن لا نقبله إلا كصفة وأن نذكر دائماً اسمه الحقيقى كقائد من القواد البيزنطيين فى بدء حروبه ثم إمبراطور عظيم له السيطرة الكبرى منذ عام ٩٦٣ — فى بيزنطية وفى قسم غير قليل من شرقى أوربا .

والآن ، وبعد أن عرفنا قيمة هذا الخصم القوى الذى حاربه سيف الدولة نستطيع أن نلم إلماماً موجزاً بهذه المعارك التى خاضها الأمير الحمدانى لأننا لا نريد أن نتوسع بسرد المعارك سرداً جافًّا بل نريد أن نستنبط منها هذه الأحداث القوية من تاريخ حياته .

المعارك الأولى

إن أول معركة خاضها الأمير سيف الدولة كانت عام ٣٣٧ هـ . ففى هذه السنة ، بينا هو فى حلب ، بين رهط من أصفيائه يفكر فى مصير هذا الوطن ويحلم بأن يعيد مجد هذه الإمبراطورية الكبرى بعد أن غربت شمسها على ضفاف الرافدين — بلغه أن البيزنطيين قد اقتربوا من مرعش . وبديهى أن يهزه هذا الخبر وأن يستنفر رجاله وجنوده وأن يسير إلى لقاء البيزنطيين ورد عدوانهم المبين . ولكن البيزنطيين كانوا كثرة فلم يستطع أن يقاومهم فخذل وتراجع . ودخل البيزنطيون « مرعش » دخول الغزاة الفاتحين ، فخربوا دورها وهدموا قصورها ونهبوا أموالها ثم اتجهوا نحو طرطوس [1] .

---

(١) ظفر سيف الدولة فى هذه السنة بحصن « برزويه » وعاد إلى أنطاكية فأنشده المتنبى قصيدته : « وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه » وفيها يصفه ويصف هول معاركه بقوله :

ولا شك أن هذا الفشل خلق فى نفس سيف الدولة مناعة قوية لأن يمحو ذل" أول انكسار منى به مع البيزنطيين وما أطل" العام ٣٣٩ هـ حتى أخذ للأمر أهبته : جمع رجاله وجنوده واستعد" أن يضرب البيزنطيين فى قلب الأناضول قبل أن يمتد طغيانهم إلى حلب . والحق، لقد غامر الأمير سيف الدولة فى هذه المعركة كثيراً ؛ فرغم إيغاله فى بلاد الروم وإيقاعه بجنود نيسفور وفتحه الحصون الكثيرة وأسره البطارقة والقواد ووصوله إلى نقطة غير بعيدة عن استانبول (١) — رغم كل ذلك فإن النتيجة لم تكن كما كان يحلم . . . لأن بارزاس فوكاس — أحد قواد نيسفور وابن عمه — لجأ إلى هذه الوسائل التى يلجأ إليها القواد حين تخونهم الشجاعة. لجأ إلى الحيلة فسد عليه الطريق وحصره فى مضيق لامنفذ له . وما زال يقاوم حتى تراجع مع نفر ضئيل من رجاله إلى حوالى حلب بعد أن قضى على من معه من الأسرى ، ويصف الحافظ الذهبى فى كتابه « تاريخ الإسلام » هذه المعركة بقوله : « وفى هذه السنة غزا سيف الدولة فسار فى ربيع الأول ووافاه عسكر طرطوس فى أربعة آلاف عليهم القاضى أبو حصين فسار إلى الفندق وأوغل فى بلاد الروم وفتح عدة حصون وسبى وقتل ثم سار إلى سمندو ثم إلى خرشنة يقتل ويسبى ثم إلى بلد " صارخة " وبينها وبين قسطنطينية سبعة أيام فلما نزل عليها واقع الدمستق مقدمته فظهرت عليه فلجأ إلى الحصن وخاف على نفسه ثم جمع جيوشه والتقى مع سيف الدولة فهزمه أقبح هزيمة وأسرت بطارقته وكانت غزوة مشهورة وغنم المسلمون ما لا يوصف وبقوا فى الغزو أشهراً . ثم إن الطرسوسيين قفلوا ورجع العربان ورجع سيف الدولة فى مضيق صعب فأخذت الروم عليه الدروب وحالوا بينه وبين المقدمة فقطعوا الشجر وسدوا به الطرق ودهدهوا الصخور فى المضايق على الناس . والروم وراء الناس يقتلون ويأسرون ولا منفذ لسيف الدولة

له عسكرا خيل وطير إذا رأى ... بها عسكراً لم يبق إلا جماجمه
سحاب من العقبان يزحف تحتها ... سحاب إذا استسقت سقتها صوارمه
مهالك لم تصحب بها الذئب نفسه ... ولا حملت فيها الغراب قوادمه

(١) تتفق المصادر العربية والإفرنجية معاً أنه لم يبق بين سيف الدولة واستانبول غير مسافة سبعة أيام .

وكان معه أربعمائة أسير من وجوه الروم فضرب أعناقهم وعقر جماله وكثيراً من دوابه وقاتل قتال الموت ونجا فى نفر يسير » .

وهذه صدمة ثانية منى بها الأمير الحمدانى بعد أن رافقه النصر . وهى صدمة قوية تكفى أن تضعضع غيره من الرجال . ولكن سيف الدولة كان أقوى من أن ينفذ اليأس إلى قلبه وقد جعلته هذه الصدمات أكثر يقظة وأثبت جناناً وأن يجعل هدفه غلبة البيزنطيين وردّ طغيانهم مهما كلفه الأمر .

وظلّ فى حلب عامين والبيزنطيون شغله الشاغل . كيف يردّ غاراتهم ؟ هل يتاح له أن يوطد أركان مملكته ؟ كيف يدفع عنها هذا الخطر المحدق ؟ إنه يسمع مديح الشعراء فيزداد قوة ومضاء ! وكأنما وازع نفسى يضطرم بين جوانحه فيناديه أن استعد لعراك شديد . وهل لأحد فى مثل هذه الظروف أن يعصى وازع النفس ؟ لقد تأهب للقاء خصمه والقضاء عليه . . ولكن لم يكد يأخذ للأمر عدته حتى بلغه أن البيزنطيين هاجموا مدينة « سروج » وأنهم خرّبوا مساجدها وسبوا أموالها . و « سروج » ليست بالمدينة الكبيرة التى تقلق بال الأمير ولكن قربها من حلب أهاب به أن ينقضّ عليهم قبل أن يقتربوا من الحدود . يركب فرسه الجموح على رأس فئة من رجاله ويتجه نحو « سروج » . ولا تكاد تبدأ المعركة ويحمى وطيس القتال حتى يكتب له النصر فيجلى البيزنطيين عن تلك المنطقة ثم يعرّج على مرعش ويعيد بناء ما هدمه البيزنطيون وإلى ذلك أشار المتنبى بقوله :

فيوماً بخيلٍ تطردُ الرومَ عنهمُ ويوماً بجودٍ تطردُ الفقرَ والجدْبا
سراياك تترى والدمستق هاربٌ وأصحابه قتلى وأمواله نهبى

* * *

أتى مرعشاً يستقربُ البعدَ مقبلاً وأدبر إذْ أقبلتَ يستبعدُ القُرْبا

* * *

كفى عجباً أنْ يعجبَ الناس أنه بنى مرعشاً تبًّا لآرائهم تبًّا

* * *

وإذ يرجع إلى حلب ونفسه ممتلئة من نشوة هذا الظفر تفاجئه الأنباء بأن ديار مضر قد ثارت ! يالله . . إنه لم يكد ينفض عن منكبيه غبار معركة « سروج » حتى يتجه إلى « حران » وينكل بهذه القبائل الثائرة أشد تنكيل . . وينتهى به الأمر بعد أن يضربهم ضربة قوية أن يأخذ من بنى عقيل وبنى قشير وعجلان رهائن لكيلا تتجدد منهم هذه الفتن الداخلية التى كانت تؤلم نفسه أشد الألم .

* * *

يرجع الأمير مع جيشه ونفسه ثملة من نشوة النصر . والتنكيل بالعدو الداخلى أشفى للنفس من التنكيل بالعدو الخارجى . . . ولكن لا يكاد يتجه نحو حلب حتى يبلغه أن البيزنطيين قد اعتزموا غزو حلب . وأنهم قد دخلوا ديار المسلمين . فينتفض لهذا الخبر وهو على أهبة القتال دائماً فيعبر الفرات إلى دلوص . ثم إلى قنطرة صنجة ولا يزال حتى يدركهم فى ملاطية . وتقع بينهم معارك قوية فى هذه الصرود التى تمتدّ من حران إلى ملاطية ويستمر القتال أياماً . وتنتهى المعارك بظفر الأمير وهزيمة البيزنطيين وقد تركوا عدداً غير قليل من الأسرى بينهم قسطنطين فوكاس بن برزاس . وقسطنطين هذا شاب فى ميعة العمر . نزل الأسر من نفسه منزلاً صعباً فضاقت الدنيا فى وجهه وعراه ذهول غريب . قومٌ غير قومه ووطنٌ غير وطنه فاغتمّ وكمد وحزن وما زال فى كمد وحزن حتى قضى نحبه فى حلب. وقد تأثر سيف الدولة الأمير الشاعر من هذا المصير الحزين الذى انتهى إليه قسطنطين الشاب . وسلم الجثة إلى مسيحيي حلب الذين دفنوه فى إحدى كنائسهم باحتفال مهيب ساده الصمت والحزن العميق . ويقال إن سيف الدولة أرسل إلى والد قسطنطين رسالة تعزية رقيقة . على أنا لم نعثر على نصّ هذه الرسالة فيما بين أيدينا من كتب [1] .

* * *

(١) لقد أشار كل من المتنبى وأبى فراس إلى أسر قسطنطين بقولهما :

لكل امرئٍ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن فى العدا

* * *

لقد أخذ النصر يؤاتى سيف الدولة فى حروبه وكانت هذه الصدمة التى منى بها البيزنطيون، ووفاة قسطنطين فى الأسر وانخذالهم المرة بعد المرة مدعاة لأن يستعدّوا لقتال جديد . . ولم تدخل سنة ٣٤٣ هـ — أى بعد عام من تلك الهزيمة — حتّى نشبت معركة ثانية كانت أشد هولا من الأولى .

لقد نشبت نيران هذه المعركة فى جوار قلعة « الحدث » وفى الروايات العربية أن سيف الدولة سار نحو حصن الحدث لبناء القلعة وما كاد يصل إليها ويباشر تخطيطها حتّى نازله ابن النقاس — دمستق النصرانية [1] — فى نحو خمسين ألف فارس وراجل من جموع الروم والأرمن والروس والبلغار والصقلب والخزرية . وأن سيف الدولة حمل عليه فى نحو خمسمائة من غلمانه — أى من خاصة رجاله دون جنوده وظلت الحرب مستعرة من الصباح حتّى العصر . وتتفق الروايات على أن سيف الدولة قتل نحو ثلاثة آلاف من رجاله وأسر كثيرين بينهم صهر قسطنطين وبعض البطارقة — أى القواد — حتّى هزمهم شر هزيمة . ثم عاد إلى إتمام بناء « الحدث » وما زال حتّى وضع آخر شرفة منها بيده . ويقول الثعالبى فى وصف هذه الموقعة : « وسار سيف الدولة لبناء "الحدث" وهى قلعة عظيمة الشأن . فاشتد ذلك على ملك الروم فجمع عظماء أهل مملكته وجهزهم بالصليب الأعظم . وعليهم فردوس الدمستق ثائراً بابنه قسطنطين فى عدد لا يحصى حتّى أحاطوا بعسكر سيف الدولة والتهبت الحرب واشتد الخطب وساءت ظنون المسلمين

سريت إلى جيحان من أرض آمد ثلاثا لقد أدناك ركض وأبعدا
فولى وأعطاك ابنه وجيوشه جميعاً ولم يعط الجميع لتحمدا
وما طلبت زرق الأسنة غيره ولكن قسطنطين كان له الفدا

المتنبى

وآب بقسطنطين وهو مكبل تحف بطاريق به وزرا زر
وولى على الرسم الدمستق هارباً وفى وجهه عذر من السيف عاذر
فدى نفسه بابن عليه كنفسه وللشدة الصماء تقنى الذخائر
وقد يقطع العضو النفيس لغيره ويدفع بالأمر الكبير الكبائر

أبو فراس

(١) هكذا فى الروايات العربية والأصح برزاس فوكاس والد قسطنطين كما تسجله المصادر الإفرنجية .

ثم أنزل الله نصره فحمل سيف الدولة بخزق الصفوف طلباً للدمستق . فولى هارباً وأسر صهره وابن بنته وقتل خلق كثير من الروم » .

ورجع الأمير الحمدانى إلى حلب يسمع مديح شاعره أبى الطيب الذى خاطبه بقصيدته الكبرى « على قدر أهل العزم تأتى العزائم » . وفى هذه القصيدة يسمو المتنبى إلى أوج البلاغة ودقة المعنى وعمق التصوير ولا سيما حين يصف شجاعته وبطولته بقوله :

وقفت وما فى الموت شك لواقفٍ ... كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

* * *

إن منْ يمعن النظر بهذه المعارك التى خاضها سيف الدولة يرى أن الأمير الحمدانى كان يرمى فى حروبه وغزواته إلى فكرة قومية بحتة لصون حمى الوطن من طغيان الأجنبى بينما كان البيزنطيون يثيرونها حرباً دينياً لاسترداد بلاد دخلت فى حوزة الإسلام . ويستطيع من يبحث « الحروب الصليبية » أن يردّ بدءعهدها إلى هذه الحروب لا إلى تلك التى أثارها بطرس الناسك والبابا أرباتوس الثانى فى القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر أى إلى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى .

٢

حماية الثغور – استئناف المعارك – المتنبى فى ساحة الجهاد – ظفر تلو ظفر – أول انكسار – نجاة سيف الدولة .

ظلت بيزنطية سنوات لا همّ لها إلا هذه « الدولة الحمدانية » التى صمدت لعدوان البيزنطيين بقوة استطاعت ، بما أبداه الأمير سيف الدولة من البطولة ، أن تحتفظ بالكيان العربى وأن تأخذ على عاتقها حماية الثغور الإسلامية . وحماية الثغور مهمة لا يتولاها إلا الرجال الصناديد ، والثغر هو الموضع القريب من أرض العدو الذى يخشى منه هجومه ، والحد الفاصل بين المتعادين ، وإذا أردنا

الدقة فى التعبير المتعارف عليه فى عصرنا هذا نستطيع أن نقول إن « الثغور » هى « الحدود » بمعناها الدولى الشامل . وقد تولى سيف الدولة هذه المهمة التى كانت تتولاها الخلافة الكبرى — بكثير من الاهتمام والحذر واليقظة ، وأطلق مؤرخو الإسلام على أميرنا الحمدانى لقب « حامى الثغور الإسلامية » وأشار ياقوت فى معجمه إلى هذه الناحية بقوله (١) : « ... ثم لم يزل هذا الثغر هو طرسوس وأذنة والمصيصة (٢) وما ينضاف إليها بأيدى المسلمين والخلفاء مهتمون بأمرها لا يولونها إلا شجعان القواد والراغبين عنها فى الجهاد ، والحروب بين أهلها والروم مستمرة ، والأمور على هذه الحال مستقرة حتى ولى العواصم والثغور الأمير سيف على بن أبى الهيجاء بن حمدان فصمد للغزو وأمعن فى بلادهم واتفق أن قاباه ملوك أجلاد ورجال أولو بأس وجلاد ، وبصيرة بالحرب والدين شداد » . ولم يضق الأمير بهذه المهمة . فقد رأيناه فى السنوات التى بدأها بمحاربة البيزنطيين كيف كان يثيرها حرباً شعواء فى سبيل فكرة قومية سامية ، فكرة الدفاع عن أرض الوطن وصون تراث الإسلام .

* * *

ولقد أوضحنا فى الفصل السابق كيف كانت المعركة التى خاضها عام ٣٤٣ ﻫ فى جوار قلعة « الحدث » وهى من المعارك الكبرى التى منى فيها البيزنطيون بخسائر فادحة فى الأموال والنفوس ، وكيف كان اندحارهم مريعاً ، ولم يمر عامان حتى أعد أميرنا المغوار العدة لحرب جديدة . كأنه كان يرقب هجمات البيزنطيين بعد انكسارهم الدامى المرة بعد المرة ، وهذا الذى أهاب به أن يشرف على الثغور قبل أن يهاجموه فى أرض مملكته . والحق أنه لولا يقظته وتأهبه للقتال وصموده للأحداث لكانت « الدولة الحمدانية » أثراً من الآثار ولما كان لسيف الدولة هذا الذكر الداوى فى فم الأجيال .

(١) معجم البلدان جزء ٣ ص ٧ .

(٢) أذنة — أى أطنة — بلد من الثغور قرب المصيصة المشهورة . المصيصة ، مدينة على شاطىء نهر جيحان قريبة من طرطوس وكانت من مشهور ثغور الإسلام .

ترك الأمير حلب عام ٣٤٥ هـ ووجهته أرض الروم فعبر وجيشه وشاعره المتنبي الذى أحب أن يشارك الأمير لذة الجهاد وأن يشهد بنفسه هذه المعارك التى طالما نقل إليه الغزاة أخبارها فوصفها وصف الشعراء الملهمين لا الغزاة الفاتحين — نعم! عبروا نهر أرسناس [1] وما زالوا فى طريقهم حتى اجتازوا حصن الران ، وهو حصن على الحدود قرب ملاطية ، ومنه إلى « تل بطريق » أى دخلوا منطقة البيزنطيين وظلوا فيها عدة أيام دون أن يجدوا أية مقاومة من الأهالى . وفى رواية بعض المؤرخين أن سيف الدوله أحرق البلد وقتل من وجد فيها عدا الأطفال والنساء . . . وإلى هذا أشار المتنبي بقوله :

قاسمتها[2] « تل بطريق » فكان لهـا   أبطالها ولك الأطفال والحـرم

ودوى الخبر فى آذان البيزنطيين فلحقوا بسيف الدولة وعلى رأسهم أحد بطارقتهم ولديهم ثلاثة آلاف قوس . وما كاد يبدأ القتال حتى جادت السماء بمطر سخى فابتلت أوتار القسى وتعطلت عن الرماية ووقفوا كالمشدوهين ولم يستطيعوا القتال فتفرق الجنود فى أطراف المماكة ، وكان هذا التراجع مما أثار الحماسة فى نفس الأمير العربى ورجاله فأوغلوا فى أرض الروم يسبون كل ما أحلته لهم الحرب . وبلغ هذا الانكسار سمع نيسفور فوكاس فجهز حملة كبيرة تحت قيادة سبطه الذى يدعوه مؤرخو العرب « شمشقيق البطريق » وقد رأى أن يبدأ غارته من أطراف ديار بكر . وأقسم لنيسفور أن لا يرجع إلا وقد خذل سيف الدولة وكسره شر كسرة . وأشار المتنبي إلى هذا القسم بقوله :

عقبى اليمينِ على عقبى الوغى ندَمُ   ماذا يزيدك فى إقدامك القسَمُ
وفى اليمين على ما أنت واعدُهُ   ما دلَّ أنك فى الميعاد متَّهمُ
آلى الفتى ابنُ شُمُشْقيقٍ فأحنَثه   فتى من الضربِ تُنسى عنده الكَلِمُ

---

(١) أرسناس : نهر فى بلاد الروم يوصف ببرودة مائه .

(٢) أى السيوف .

ونمى للأمير تأهب ابن شمشقيق فابتسم ابتسامة الواثق من نفسه وسره أن يلتقى مع قائد من القواد لا مع شراذم لا يقودها رجل له مكانته وبطولته . . وحوّل جيشه نحو بحيرة « سمبساط » ولم يصل إلى حران حتّى لقيه وجوه بنى نمير فتقدموا إليه وسألوه العفو عن انتفاضهم وثورتهم وأعلنوا له خضوعهم والعمل تحت رايته . فكان ذلك تعزيزاً لجيشه وقوةً له . ولحق بالبيزنطيين الذين استدرجوه إلى هوة عميقة وظنوا أن النصر سيكون حليفهم فى هذه المعركة بعد أن أخذوا عليهم الدروب ، ونشب القتال ودامت المعركة أياماً وأسابيع فى هذا المضيق الضيق الذى يعرف بدرب « باقسايا » فخذل البيزنطيون وقتل منهم أربعة آلاف رجل بينهم كبار الرجال والقواد ، وغنم الحمدانيون أشياء كثيرة من عتاد الحرب ومعداتها عدا النفائس الثمينة كالحلى والديباج وما زالوا يتعقبون العدو حتّى توارى أمامهم فدخلوا « آمد » وأنشد المتنبى الأمير سيف الدولة قصيدته الكبرى « الرأى قبل شجاعة الشجعان» وفيها يصف هول هذه المعركة ويصف الأماكن التى اجتازوها وصفاً دقيقاً لعلّ أبلغ ما جاء فيها وصفه الجيش بقوله :

فى جحفل ستر العيونَ غبارُهُ فكأنما يبصرن(١) بالآذانِ
يرمى بها البلدَ البعيدَ «مظفرٌ»(٢) كلُّ البعيد له قريبٌ دانِ
فكأنَّ أرجلها بتربة منبجٍ يطرحْنَ أيديها بحصن الرّانِ
حتّى عبرنَ بأرسناس سوابحاً ينشرن فيه عمائمَ الفرسانِ

وبعد أن يصف فى قصيدته هذه برودة ماء النهر وكيف أن قسما من الجيش وعلى رأسه سيف الدولة استطاع أن يعبره وأن القسم الآخر لم يستطع إلا بهذه السفن التى أنزلوها النهر — يشير إلى وعورة الدروب التى كادت تفقدهم المعركة لولا بطولة الأمير وحماسة جنوده بقوله :

وعلى الدّروبِ وفى الرجوع غضاضةٌ والسيرُ ممتنعٌ من الإمكانِ

---

(١) أى الخيل .
(٢) يريد بالمظفر سيف الدولة .

والطّرْق ضيّقةُ المسالك بالقنـا والـكفرُ مجتمعٌ على الإيمانِ
نظروا إلى زبر الحـديدِ كأنما يصعدْنَ بين مناكبِ العقبانِ
وفوارس يحيى الحمـام نفوسهـا فـكأنها ليست من الحيوانِ
ما زلتَ تضربهم دراكاً فى الذّرى ضرباً كأنّ السيفَ فيه اثنانِ

وما يزال فى وصفه حتّى يخاطب سيف الدولة بقوله :

رفعتْ بك العرب العمادَ وصيرتْ قمم المـلوك مواقدَ النـيرانِ

وقفل سيف الدولة إلى حلب يجرر أذيال الفخار واستعدت المدينة للقائه وهو فى نشوة من الفرح . وأخذ الشعراء يعدون قصائد المديح ، وجاشت نفس المتنبي فأنشده قصيدة ثانية يصف فيها هذه المعركة وقد غمز سبط نيسفور غمزات جارحة ثم وصف الجيش وهو يعبر نهر أرسناس بقوله :

وجاوزوا أرسناساً معصمينَ به وكيف يعصمهم ماليس ينعصمُ
وما يصدّكَ عن بحرٍ لهم سعةٌ وما يردّكَ عن طودٍ لهم شممُ
عبرتَ تقدمهم فيه ، وفى بلدٍ سكّانه رممٌ مسكونهـا حممُ
صدمتهم بخميسٍ أنت غرّته وسمهريته فى وجهه غممُ
فكان أثبت ما فيهم جسومهمُ يسقطْنَ حولك والأرواح تنهزمُ

ويظل يصف هول المعركة حتّى ينتهى إلى مخاطبة الأمير الحمدانى بقوله :

ألقت إليك دماءُ الروم طاعتها فلو دعوتَ بلا ضرب أجاب دمُ
نفتْ رقاد « علىّ » عن محاجره نفسٌ يفرّح نفساً غيرها الحلمُ
القائم الملك الهادى الذى شهدت قيامه وهداه العرْبُ والعجمُ

* * *

كان يعلم سيف الدولة أن هذه الانتصارات المتوالية ستثير أحقاد البيزنطيين وأنهم سيوقظونها حرباً دينية مريعة . . ولكن حلاوة النصر جعلته لا يفكر كثيراً بما فاجئه به الغد ولا سيما أنه نذر نفسه للقتال ورد غارات العدو وحماية الثغور

من أى خطر مداهم . ومرّت سنتان وليس فى أطراف المملكة ما يبعث فى نفسه المخاوف . وما أطل العام ٣٤٩ هـ حتى نقل إليه أن البيزنطيين قد هبوا هبة كبرى لغسل عار هذه الانكسارات المتوالية ، وأنهم قد حوّموا حول ثغور المسلمين وتعدّوا حدود طرسوس والرها وقتلوا وسبوا دون أن يلقوا أية مقاومة. وكان لابد له وقد جاءته هذه الأخبار من أن يرد هذه الغارة . . وليس ذلك ما يخيفه ولا سيما أن التوجه نحو أرض الروم ولقاء العدو وخوض المعارك قد أصبح من الأمور الغريزية فى نفس سيف الدولة ورجاله الأشداء الذين هيأهم لهذه الحوادث . فلا يكاد يرتفع صوته ويعلن الجهاد حتى ينضوى تحت لوائه أشبال العرب وكلهم فارس مغوار وبطل صنديد .

* * *

سار سيف الدولة وجيشه إلى خرشنة[1] ، وخرشنة هذه بلدة قريبة من ملاطية وهى من ثغور الروم . أى أراد الأمير الحمدانى أن يضرب البيزنطيين فى منطقة حدودهم وأن يحول دون توغلهم فى بلاد الإسلام ولا سيما أن مطامعهم نحو احتلال حلب واسترداد الشام تكاد تكون جلية واضحة . نعم ، اتجه الأمير الحمدانى نحو خرشنة بعد أن فتح عدة حصون بيزنطية وقد مكنه البيزنطيون أن يتوغل فى بلادهم وما زالوا حتى طوقوه فى هوة عميقة ، ورغم كل ما بذله رجال سيف الدولة من الحنكة والبطولة ومقاومة العدو فإن النصر لم يحالفهم هذه المرة فخسر الأمير المعركة وأضاع جيشه كله وكان يربو على الثلاثين ألفاً وقد نجا هو وثلاثمائة من خلّص رجاله بكثير من الجهد والمشقة .

أشار ابن مسكويه فى كتابه « تجارب الأمم » إلى هذه المعركة بقوله : « وفى هذا العام — ٣٤٩ هـ — غزا سيف الدولة فى جمع كثير فأثر فى بلدان

---

(١) جاء ذكر هذه المدينة كثيراً فى شعر المتنبى وفى شعر أبى فراس الذى بقى فيها مدة أسيراً وقد خاطبها بقوله :

إن زرت خرشنة أسيرا   فلكم حللت بها مغيرا

— وفى رواية أميرا —

الروم آثاراً عظيمة وأحرق وفتح حصوناً وحصل فى يده سبى كثير وأسارى وانتهى فى غزوه إلى خرشنة فلما أراد الخروج أخذ الروم عليه المضايق فما تهيأ له أن يتخلص إلا بجهد عظيم هو ونحو ثلاثمائة غلام وهلك باقى أصحابه أسراً وقتلاً وارتجع منه السبى كله والأسارى والغنيمة وأخذت جميع خزائنه وسلاحه ، وقتل من الوجوه الذين كانوا معه حامد بن النمش وموسى بن سياكان والقاضى أبو حصين وكان معه من المسلمين ثلاثون ألفاً وخرج أهل طرسوس من طريق آخر فسلموا »، ويعللون سبب انكساره ونجاة الطرسوسيين أن سيف الدولة كان صلب الرأى ، أقرب إلى« ديكتاتورى »هذا العصر منه إلى الرجل الذى ينزل عند رأى غيره، أى أنه كان لا يعتمد إلا على الخطط التى يرسمها هو بنفسه وهذا الذى جعله يفشل فى هذه المعركة دون أن يصغى إلى نصيحة الطرسوسيين وهم أعلم منه — على ما يظهر — بطبيعة تلك المناطق ، ومن يدرى فقد تكون أنفته وبطولته وهذه الانتصارات الطويلة التى حازها فى السنوات العشر التى تصرمت من سنى جهاده هى التى جعلته لا يهرب من أمام العدو بل يقاتلهم قتال الأبطال لوثوقه من الظفر ولكن حدسه لم يتحقق هذه المرة فنجا هو بأعجوبة بعد أن خسر المعركة وأضاع جيشه الذى كان عدته ومناط آماله فى القتال .

وتشير الرواية الأجنبية إلى هذه المعركة كما يلى (١) : وفى سنة ٩٦٠ م انهزم سيف الدولة شر هزيمة أمام العدو وعاد إلى حلب برفقة ثلاثمائة فارس فقط. وقد أسر البيزنطيون عدداً كبيراً من رجاله منهم أبو العشائر أحد أقرباء الأمير الذى مات فى القسطنطينية والشاعر المشهور أبو فراس (٢) ومن جملة القتلى كان

(١) عن كتاب Alep, autrefois et aujourd'hui

(٢) تتفق الروايات العربية حين تعرض إلى أسر أبى فراس — أن أسره كان عام ٣٥١ هـ بينا تذكر الرواية الإفرنجية أن هذا الأسر هو فى عام ٣٤٨ — ٣٤٩ ونحن نرجح أنه أسر مرتين مرة سنة ٣٥١ هـ ومرة سنة ٣٤٨ هـ أو قبل هذا التاريخ . ودليلنا أن أبا فراس قد أرسل وهو فى الأسر عدة قصائد إلى القاضى أبى حصين — قاضى حلب — وكانت تربطه به مودة وثيقة — وإذ علمنا أن أبا حصين قتل عام ٣٤٩هـ كما أثبتته الروايتان العربية والإفرنجية صح عندنا أن أسر أبى فراس كان قبل هذه المعركة . هذا ما وصل إليه تحقيقنا ولا يمنع أن نرجع عن هذا الرأى إذا جاءنا ما ينقضه .

حصين الرقى ، قاضى حلب وقد كان الأسرى الحلبيون عديدين » . ورغم التباين فى عرض أخبار هذه المعركة فإن الروايتين العربية والإفرنجية تتفقان فى أن النصر لم يؤات سيف الدولة وأنه منى فى هذه المعركة بانخذال مريع فرجع إلى حلب يفكر من جديد بالثأر لكرامته وصون الوطن من هجمات البيزنطيين .

* * *

وقد وقفت الحرب سنة وبعض السنة وأخذ الفريقان يستعدان لمعركة حاسمة . وقد يكون سيف الدولة هو الذى لجأ إلى هذا الانكماش ليتمكن من تنظيم جيشه الجديد لأنه يعلم أن خصمه نيسفور فوكاس يتأهب للقضاء عليه وهذا ما يشير إليه المسيو بوران فى كتابه « حلب : فى عصورها القديمة والحديثة » — والذى اعتمد فى بحث هذه الناحية على مصادر رومانية : « وفى هذه الأثناء كان نيسفور يدبر خطة يستطيع التخلص بها ، دفعة واحدة من أمير حلب الشديد المراس . وكان هدفه أن ينقذ كليكيا وسورية وفلسطين والعراق وأن يبعد حدود المملكة حتى الدجلة ورمال الجزيرة العربية ، وقد فطن أن أول ما يجب أن يقوم به هو الاستيلاء على كليكيا وأن يجعلها مقرّه ومركز قيادته . لأنه تحقق أن كليكيا هى بمثابة حصن طبيعى يستطيع من يستولى عليها أن يسيطر على آسيا الجنوبية من جهة الشمال ، وسورية من جهة الجنوب . غير أن جميع مضايق الأمانوس وطوروس وكذلك كليكيا كانت حتى عام ٩٦١ م فى حوزة أمير حلب » .

فهل تحققت أمانى نيسفور؟ وهل استطاع أن يثأر لهذه الدماء التى أهرقها العرب فى أراضى كليكيا وفى مضايق طوروس ؟ هذا ما نريد أن نتناوله فى فصل قادم .

٣

الدولة الرومانية الشرقية – لمحة سريعة عن الأدوار التى تتابعت من عهد قسطنطين الكبير إلى محمد الفاتح – الأسرة المكدونية – ملوك بيزانس وحياتهم الخاصة – الحب والمآسى فى زوايا القصور – الصراع بين الكنيسة والقصر – الجيش البيزنطى فى القرن العاشر – نظرة عامة .

* * *

لنترك سيف الدولة وقد عاد إلى حلب جزع النفس مما منى به من خذلان وفشل ، لنتركه يفكر فى تنظيم جيشه من جديد ، ولننتقل من حلب إلى القسطنطينية . . إلى عاصمة القياصرة نتعرف إلى أولئك البيزنطيين الذين اشتبكوا بحروب دامية مع الحمدانيين . فنى دراسة تاريخهم والإلمام بسيرة ملوكهم وقوّادهم وتعرف حالة الجيش والعناصر التى تتكوّن منه وآلات الحرب وعُدَد القتال وعلاقة بيزنطية بالدول المجاورة – إن معرفة هذه النواحى تساعدنا على تفهم طبيعة تلك الحروب التى خاضها الأمير سيف بكثير من الشجاعة والبطولة والإقدام .

لقد ألمعنا فى الفصل الأول من هذا البحث إلى ملوك البيزنطيين دون أن نتناول ذلك بالإسهاب الذى يقتضيه سياق البحث وهذا ما نريد أن نحاوله الآن .

* * *

لئون الفيلسوف ، قسطنطين السابع ، رومان الثانى ، تهثوفانو الجميلة ، نيسفور فوكاس هم القياصرة الذين يتردد ذكرهم أكثر من غيرهم فى هذه الحروب التى دارت رحاها بين البيزنطيين والحمدانيين فى القرن العاشر الميلادى . فمن أية أسرة تحدروا ؟ وفى أى دور من أدوار الدولة الرومانية الشرقية كانوا ؟

تتحدث كتب التاريخ بإسهاب طويل عن هذه الإمبراطورية البيزنطية التى ظلت قائمة عشرة قرون كاملة على ضفاف البوسفور ! أى من عهد قسطنطين الكبير الذى هجر رومة وخرج على آلهة الرومان الباطلة واعتنق المسيحية وجعل من القسطنطينية رومة ثانية – إلى دخول السلطان محمد الفاتح مدينة إستانبول

وتقويضه ملك الرومان . وقد مرّ خلال هذا العهد ستة أدوار تاريخية قد يكون من المفيد أن نمر بها مروراً سريعاً لنقف عند الأسرة المكدونية التى تحدّر منها من ذكرناهم من القياصرة .

فالدور الأول : يبدأ من سنة ٣٩٥ م — وهى السنة التى مات فيها « تيودثيوس » بعد أن قسّم الدولة الرومانية بين ولديه هوربويوس وأركاديوس إلى سنة ٥٦٥ م [١] .

والدور الثانى : من سنة ٥٦٥ م إلى سنة ٧١٧ م وهو الدور الذى جلست فيه على عرش الرومان الأسرة الأيسوريانية نسبة إلى أيسورية وهى إقليم من القارة الآسيوية . ومما يجدر ذكره فى هذا الدور أن « هيرقل » ملك الروم الذى أرسل إليه النبى محمد (ص) كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام هو من ملوك هذه الأسرة . وفى هذا الدور أيضاً أغارت جيوش العرب على الكثير من ممالك آسيا فافتتحوها بما كان لهم من الأساطيل البحرية التى استولوا بها على جزيرتى قبرص ورودوس فى خلافة معاوية بن أبى سفيان .

والدور الثالث : من سنة ٧١٧ م إلى سنة ٨٦٨ م أى من صعود الأسرة الأيسوريانية على عرش المماكة إلى تغلّب الأسرة المكدونية بحكم الإمبراطور باسيلوس الأول .

والدور الرابع : من سنة ٨٦٨ م إلى سنة ١٠٥٧ م أى من صعود الأسرة المكدونية على العرش حتى تغلّب أسرة كومنين .

والدور الخامس : من سنة ١٠٥٧ م إلى سنة ١٢٠٤ م ويمتدّ هذا الدور من عهد إسحق الأول كومانينوس إلى سقوط الدولة الإغريقية واستيلاء الصليبيين على القسطنطينية .

---

(١) ومن قياصرة هذا الدور يوستنيان الذى يعد عصره من أرقى عصور الإمبراطورية الشرقية بعد قسطنطين وقد حكم ٣٧ سنة . وكانت حدود مملكته تنتهى فى الغرب بالبحر الأدرياتيكى وفى الشرق بضفاف دجلة وتمتد حدودها الشمالية إلى أعالى بلاد التتر وتنتهى فى الجنوب إلى بلاد الحبشة .

والدور السادس : من سنة ١٢٠٤ م إلى سنة ١٤٥٣ م وفى هذه السنة فتح الأتراك القسطنطينية بعد حروب طويلة وكان ذلك آخر عهد البيزنطيين فى الشرق.

هذه هى الأدوار الستة التى مرت فى حياة الإمبراطورية الرومانية فى الشرق . والذى يهمنا منها الدور الرابع . دور الأسرة المكدونية حيث جرت فى عهدها حروب سيف الدولة ، تلك الحروب العنيفة التى عرف القراء مقدماتها وسيعرفون نتائجها .

* * *

الأسرة المقدونية

بلغت الإمبراطورية البيزنطية فى عهد الأسرة المقدونية أوج المجد وذروة السيادة . وكان همّ هذه الأسرة أن تحتفظ بهذا الملك العريض رغم ما كان ينتابه من هزات عنيفة ، لقد كانت الأحداث الخارجية قوية وكانت الفتن الداخلية أقوى . ومع ذلك فقد استطاعت أن تحتفظ إلى حد ما بأبهة الملك وعزّ السلطان . ويجمع مؤرخو الفرنجة على أن الأسرة المقدونية قد حفظت مجد بيزانس ، رغم غارات العرب المتوالية من الجنوب وهذه الحروب الدامية التى كان يثيرها البلغاريون من الشمال ، واستطاعت إلى ذلك أن تفرض دينها ومدنيتها على البلغاريين ، وأن تسترد من العرب كريد وقبرص وقسما من شمالى كليكيا ، وأن تجعل من أرمينيا وجبالها الشامخة سدًّا منيعاً فى وجه العرب الذين كانوا يطمعون أن يقضوا على هذه الإمبراطورية بكاملها . ولولا الفتن الداخلية التى كانت تشغلها ، وهذا الصراع القوى بين الكنيسة والقصر ، وهذه الشهوات التى كانت تطغى على رجال الحكم لكانت فتوحاتها امتدت إلى أكثر مما ذكرناه .

واسيليوس

لقد كان رأس هذه الأسرة واسيليوس — أو باسيل الأول — وهو رجل من عائلة فقيرة تمكن بدهائه ومغامرته أن ينال حظوة عند ميخائيل الثالث آخر قياصرة

الأسرة الأيسوريانية ولكن هذه الحظوة قد انقلبت نقمة عليه ، وأراد الملك أن يقضى عليه ولكن نفوذه كان قد اشتد فتمكن أن ينجو من هذه المكيدة بمهارة ، وأن يقضى هو بدوره على الملك ، وأن يعتلى العرش ويدير شئون المملكة بكثير من العزم والحزم والدهاء. وقد جنح واسيليوس إلى البطش والقوة فأطفأ نيران الفتن المذهبية وسعى جهده أن يقضى على خلافات الكنيسة فوفق فى الأولى بعض التوفيق ولم يوفق فى الثانية أى فى توحيد الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية معاً . وحارب واسيليوس المسلمين سنين طويلة انتهت به إلى ظفره فى كثير من المواقع فاسترد قيسارية « قيصرية » وانتصر على الأغالبة فى صقلية ومنعهم من دخول « دالماسيا » .

ليؤن السادس

وبوفاة واسيليوس ارتقى العرش ليؤن السادس الملقب بالفيلسوف. لقد كان هذا الإمبراطور ذا ثقافة واسعة ، دفعته ثقافته وإلمامه التام بتاريخ العقائد والآداب والرياضة أن يحاول إصلاح قوانين المملكة ونظاماتها ولكن هذه الإصلاحات لم تتم لأن حروبه مع الروس ومع البلغار معاً قد حالت دون أن ينفذ برنامجه الإصلاحى .

ولهذا الإمبراطور قصة طريفة يحسن أن نلم بها لأن لها علاقة بهذا الصراع الذى كان يشتد بين القصر والكنيسة من جهة ، وبهذا الترف بل بهذا الانغماس فى الشهوات الذى يعده المؤرخون من أكبر العوامل فى انهيار مملكة الرومان من جهة أخرى ، وخلاصتها أن أباه وأمه قد اختارا له الفتاة « تهئوفانو » فتزوجها على كره منه لأن قلبه كان مشغولا بحب فتاة غيرها ، كان يحب « زوئى » ابنة القائد « زائوجيس » ورغم كل الوسائل التى عملت للحيلولة بينهما فقد كان يجتمع بها ويقضى معها ساعات طويلة . وطبيعى أن تثير هذه الصلات الغرامية حنق زوجته الشرعية وغضب أبيه ولكن نداء القلب كان ألصق بالنفس من حنق الزوجة وغضب الأب ! ورأت الأم أن يزوجوا « زوئى » من أحد أفراد البلاط

وتم زواجها. ورغم كل ما عملوه من الحواجز فإن العلاقات لم تنقطع بين العاشقين وكان ذلك من أكبر العوامل التى أثرت فى تەثوفانو فاغتمّت وشحب لونها وما زالت فى حرقة وغصة . وفى لوعة وكمد حتى قضت نحبها وهى فى شرخ الصبا . وبوفاة تەثوفانو لجأ القيصر إلى كبار البطارقة ليسهلوا له زواجه بزوئى ولكن البطارقة وقفوا ضد هذا الزواج ، ومع ذلك فقد تم بالرغم عنهم وعن الكنيسة ، وأصبحت زوئى التى أحبها كثيراً سيدة القصر ، وكانت كلمتها هى النافذة فى كل شيء . ولكن الأقدار لا تجرى على وتيرة واحدة فلم تكد تبسم لهما السعادة حتى انتزعها الموت من بين يديه فحزن عليها حزناً بالغاً . ومرت الأيام ، وتلتها الشهور وهو يذكر فجيعته بزوئى . وأحب أن ينسى هذه الفتاة فتزوج فتاة أناضولية ساذجة . وقضى معها أياماً حلوة عذبة . ولكن هذه الأيام العذبة لم تدم أكثر من عام واحد . لأن الموت قد داعب هذه الفتاة التى لم تكد تهنأ بمجد الملك وعز السلطان حتى اخترم شبابها كما اخترم شباب زوئى وانتقم لتەثوفانو التاعسة البائسة .. وازداد حزن القيصر. ولكن ما يجديه الحزن ؟ لذلك كان يستسلم لقضاء الله ويعتمد فلسفته فى الصبر . وهداه قلبه إلى فتاة تشبه زوئى كل الشبه فاتصل بها وكانت بينهما علاقات غير شرعية . وضجت الكنيسة من هذه العلاقات ووقف البطريق نيقولا فى وجه القيصر . ولكن ليؤن كان أقوى من الكنيسة فلم يلتفت إلى هذا الصخب الداوى وظلت علاقته بزوئى وثيقة ، وحملت منه . عندئذ قرر أن يتزوج منها كما تزوج من تلك دون أن يعبأ بمعارضة الكنيسة . وبينا هو فى هذا القلق الفكرى إذ يكشف العيون مؤامرة واسعة النطاق تدبر ضد القيصر عرف من أعضائها البطريق نيقولا. ورأى ليؤن أن الفرصة مؤاتية لأن ينتقم . وخشى البطريق نيقولا بطش القيصر وأن ينتقم من الكنيسة فى شخصه فسرعان ما خمدت معارضته وتقرب إلى القصر وأصبح من دعاة القيصر ومن أكبر مؤيديه . و بدأ يتردد على القصر ويبارك القيصرة ويدعو للجنين بالنمو والحياة ! واستجاب الله دعوته فولدت زوئى ! ! وتحققت أمنية ليؤن فى أن يكون له ولدٌ يرث هذا الملك العريض . وتوفى ليؤن الفيلسوف دون أن يحدث فى

عهده سوى هذه المحاولات التى بدأها بتوحيد الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية وهذه النزوات التى أثارت عليه حقد الكنيسة عدا حروبه مع البلغار والروس مما لم نجد فائدة من تفصيله فى هذا البحث .

قسطنطين السابع

ونودى بقسطنطين السابع ملكاً وهو فى المهد . وأقام مجلس الشيوخ عمه ألكساندروس وصيًّا عليه . وأخذت الدسائس تعمل عملها فى طرد أمه من القصر فطردها ألكساندروس . ولا شك أن ذلك كان بإيعاز البطريق نيقولا . وبوفاة ألكساندروس عادت « زوئى » إلى القصر . فعاد البطريق يخاصمها بشدة ، والتجأت إلى الحزب الذى كان يناهض البطريق . ولكن حزب الكنيسة كان أقوى ، وظل البطريق نيقولا ينفث سمومه حتى تمكن من طردها . وكان ابنها لا يزال فى فجر طفولته فأخذت زوئى تبكى وتنتحب ، وارتمت بين يدى ابنها متوسلة أن تبقى إلى جانبه فى القصر ففاضت عاطفة الابن وضم أمه إليه . وكانت هذه العواطف مثاراً قويًّا لأن تترك زوئى فى القصر رغم كل ما عملته الكنيسة على طردها .

وشب قسطنطين ، ولكنه لم يكن كأبيه . وإن كان مؤرخو الفرنجة يجمعون على أن عهدهما كان أزهى عهود الأسرة المكدونية رغم ما انتابه من هزات وأزمات . ومما هو جدير بالذكر أن انتصارات سيف الدولة على البيزنطيين كانت فى عهد قسطنطين السابع ، ففى عهده وقعت معركة « الحدث » الكبرى واندحر ابن الشمشقيق ، وكسر شر كسرة مما فصلناه فى فصل . ماض وكما شغلت الإمبراطورية البيزنطية مع العرب من جهة الجنوب فقد شغلت فى عهد قسطنطين السابع بحروبها الدامية مع البلغار فى الشمال .

رومانوس الثانى — تهئوفانو الجميلة

وبوفاة قسطنطين السابع خلفه ابنه رومانوس . وقد حذا حذو أسلافه فى الدفاع عن القسطنطينية وإعلاء مجد بيزانس . ورومانوس هذا شاب جميل ،

ريّق الصبا قد اقترن بملكة يتحدث المؤرخون كثيراً عن جمالها وسحرها وصباها ، تلك هى تهثوفانو الجميلة التى لعبت دوراً خطيراً فى سياسة القصر. لقد كانت تبعد من ترتاب بنياته وتدنى من تأنس منه الإخلاص والوفاء . ولكن القدر لم يرأف به فتوفى وهو فى عنفوان شبابه ، ووقع هذا المصاب من نفس تهثوفانو موقعاً أليماً . وما كاد يدفن رومانوس حتى اتجهت الأطماع إلى العرش ولكن تهثوفانو كانت ملكة حريصة ، يقظة الشعور ، يهمها مستقبل بنيها ، وأن تظل هى على رأس هذا الملك المترامى الأطراف .

نيسفور فوكاس

وكان نيسفور فوكاس القائد البيزنطى الشجاع الذى حارب سيف الدولة وجهاً لوجه — أكثر الطامحين بهذا العرش ، وكان ذا نفوذ واسع وليس له إلا أن يعلن نفسه قيصراً حتى تنقاد له الجماعات . ولكن نيسفور كان يضع مصلحة وطنه فوق مطامحه . ورأى من الحكمة — وكثيراً ما شغلت تهثوفانو قلبه بنظراتها الساحرة — أن يطلب يدها وأن يصون هذا الملك بزواج وثيق ، وقبلت تهثوفانو أن تزف إلى نيسفور ، أى أن هذا الزواج كان سبيله السياسة لا الحب وسُرّ، القائد الشجاع بهذه النتيجة وأخذ حبه يزداد ويقوى ، وكان لا يصبر على فراق تهثوفانو ، ووصل به الحال أنه كان يقودها معه إلى ساحات القتال . ومن يدرى فربما وصلت معه إلى أبواب حلب وشهدت هذه الحروب الدامية التى خاضها مع سيف الدولة . وبعد أن شغله الأمير الحمدانى بحروبه أصبح يذهب وحده إلى ساحات القتال ويترك الملكة فى القسطنطينية حرصاً على راحتها وصباها ، وكان يتردد على القصر جان تسيمس Zimskes سبط نيسفور . وفى رواية ابن أخته ،وهو شاب جميل أحبته الملكة وهامت به هياماً قوياً وانتهى الأمر أن قرر الاثنان الغدر بنيسفور فى سبيل هذا الحب .

وعاد نيسفور من حروبه فى سورية بعد أن سجل عدة انتصارات على سيف الدولة ، عاد يحمل إلى تهثوفانو أكاليل ظفره ومحوه عار هذه

الانكسارات التى سجلها عليه سيف الدولة، وما كان يظن أن جهاده فى سبيل إعلاء البيزنطية سيكافأ بمؤامرة تدبر له فى زوايا القصر على يد تەثوفانو التى أحبها وأخلص لها الحب .

وتقدمت الوفود إلى نيسفور تزف إليه التهانى ، ولكن — ما كل ما يتمناه المرء يدركه — فما هى إلا أيام حتى كانت المؤامرة قد تمت فقتل فى قصره غدراً، وانتهت حياة هذا القائد البيزنطى بهذه المأساة الأليمة .

ونرى أن نضيف بهذه المناسبة، إلى هذه الحقيقة التاريخية، الرواية العربية التى تذكر الحادث بالنص الآتى :

« . . . ثم تزوج تقفور — أى نيقفور — ملك الروم بامرأة الملك الذى كان قبله على كره منها . وكان لها ولدان ، فأراد تقفور أن يخصيهما ويهديهما للبيعة ليستريح منهما لئلا يملكا الروم فى أيامه أو بعده ، فعلمت أمهما بذلك ؛ فأرسلت إلى الدمستق ليأتى إليها فى زىّ النساء ومعه جماعة يثق بهم فى زىّ النساء ؛ فجاؤوا وباتوا عندها ليلة الميلاد ، فوثبوا عليه وقتلوه ، وأجلس فى الملك بعده ولدها الأكبر . وتم لها ما أرادت » [1] مع أن الذى خلفه فى الحكم هو سبطه لا ابن تەثوفانو .

أحلام تەثوفانو ونهايتها المحزنة

وظنت ته ثوفانو أن أحلامها قد تحققت وأصبح جان تسيمس « زيمسكس » صريع هواها ولم تعلم أن جان كان يطمع بالعرش أكثر مما يطمع بقلب الملكة الجميلة. وأسدل الستار على الفاجعة، وتقدم جان إلى بطريق أيا صوفيا طالباً إليه أن يبارك ارتقاءه العرش، ووجمت الكنيسة إزاء هذا الطلب، وأنكر جان أن يكون له ضلع بهذه الجناية، وحصر التهمة بتەثوفانو فاشترطت الكنيسة أن ينفصل عنها فنزل عند إرادتها وأعلن نفسه ملكاً ، وكان أول ما عمله أن أبعد تەثوفانو إلى

(١) النجوم الزاهرة الجزء الرابع .

« جزيرة الأمراء » – الجزيرة الجميلة التى تبعد عن إستانبول ساعة وبعض ساعة – فشق ذلك على تەثوفانو وأمضها هذا النفى، ولم تكن تنتظر هذه الإساءة ممن أحسنت إليه وأن تنهار أحلامها هذا الانهيار الأليم . وبعد شهر فرت ته ثوفانو من المنفى وعادت إلى كنيسه أيا صوفيا، وعلم « جان » بفرارها فأمر أن تبعد حالا إلى أرمينيا ولكنها توسلت أن تجتمع إلى جان قبل نفيها. فسمح لها بذلك ولم تكد تنظر إليه وتستعرض هذا الماضى القريب وما مر بها من حالات حتى خانها البيان وانفجرت بالبكاء ثم ثارت عاطفتها الأنثوية وأخذت تقرّعه تقريعاً مرًّا فلم يحتمل القيصر عتابها وأصدر أوامره بإخراجها من القصر وأن تقصى عن إستانبول حالاً . وأرسلت إلى أرمينيا حيث أمضت أنضر أيامها بعيدة عن أولادها ولم يسمح لها بالعودة إلا بعد وفاة جان تسيمس J. Zimes فرجعت وهى فى أسوأ حال ودخلت القصر مهيضة الجناح، دامعة العين ، كسيرة الفؤاد، وقضت أيامها الأخيرة فى إحدى زوايا القصر وما زالت فى عزلتها المرّة حتى قضت دون أن يشعر بها أحد .

أما جان فقد شغلته مشاكل الإمبراطورية عن الحب والنساء وظل يحارب الروس الذين طمعوا بالاستيلاء على الآستانة – سبع سنوات كاملة عرف كيف يقضى على أحلامهم . وقد أوصى قبل وفاته أن توزع نصف ثروته على الفقراء . وأن يبنى بنصفها الآخر مستشفى فخم يتناسب وضخامة صيته .

وجاء بعد جان تسيمس عدة قياصرة ، ولكل قيصر قصة مشجية ، وإذ كانت الحروب الحمدانية تقف عند نيسفور فوكاس فقد رأينا أن نقف عند هذا الحد من تاريخ الأسرة المقدونية .

* * *

ويحسن بنا الآن وقد أوجزنا تاريخ هذه الدولة البيزنطية وتحدثنا عن ملوكها وعن هذه المآسى التى كانت تنبثق من زوايا القصور بشكل أقرب إلى القصة منه إلى الواقع – يحسن أن نشير إلى قوتها كدولة عظمية، وبذلك نكون قد أعطينا القارئ صورة واضحة عن هذا الخصم القوى الذى حاربه الأمير الحمدانى الشجاع .

الجيش البيزنطى

كان الجيش البيزنطى على جانب عظيم من القوة والتنظيم ، وكان يشرف على تدريبه ، فى الفترة التى نحن بصددها ، قواد عظام لعل أبرزهم نيسفور فوكاس وبارزاس فوكاس ، وكان عدده يزيد على المائتى ألف مقاتل ، ولم يكن أفراده من البيزنطيين الخلّص بل كانوا خليطاً من أمم مختلفة وجنود مرتزقة — من بيزنطيين وسلافيين وأرمن وبلغار وروس وصقالبة وعرب . حتى القيادة لم تكن تحصر بالبيزنطيين وحدهم بل كان يحوزها رجالات من الروم والأرمن والعرب ، والذى نعتقده أن نصيب العرب من هذه القيادة ضئيل جداً وإن أثبته بعض مؤرخى الإفرنج .

وقد كانت وسائل الدفاع وخطط القتال منظمة جداً حتى إن أنباء القتال لم تكن بمعزل عن القيادة العامة فى القسطنطينية بل كان الاتصال وثيقاً ، وسبيلهم إلى ذلك « العلامات النارية » وهى عبارة عن إشعال النيران على قمم الجبال والتراسل بواسطتها ، وكان للجيش البيزنطى عدة مراكز منظمة بين جبال طوروس وعاصمة الملك ، أى كانوا يعتمدون فى مخابراتهم الحربية على هذه « العلامات البرقية » — إذا جاز لنا هذا التعبير — وكانت أنباء القتال تصل إلى القسطنطينية من حدود طوروس فى ثلاث ساعات وبالعكس .

وكان فى كل منطقة من مناطق الحدود ما يقرب من أربعة آلاف جندى لحمايتها ، وكان يعمد إلى تغيير هذه الفرق العسكرية كل أربعة عشر يوماً مرة . وكثيراً ما كانت الفرق الاستطلاعية تخترق الحدود لكشف قوات العدو حتى إذا شعرت بالخطر اتصلت بالقيادة العامة وطلبت الأمداد بواسطة « العلامات النارية » .

ولم تكن كثافة الجيش البيزنطى وكثرة مقاتليه هى كل قوته بل كان لديه من العدد الحربية ما يعد فى ذلك من أروع آلات التدمير كانت لديه « النار اليونانية » هذه الآلة المدمرة التى تتألف عناصرها من زيت النفط والكبريت والقار

وغيرها من المواد الملتهبة التى كانت تحدث « دخاناً كثيفاً وانفجاراً عظيما وتنبثق منه نار شديدة حامية تندلع ألسنتها صعوداً وهبوطاً فى نفس الوقت ، وتضطرم اضطراماً سريعاً هائلاً ، ولا تنطفىء عند ملامسة الماء بل تشتد وتحتدم ، ولا يخمد أوارها سوى الرمل والخل . وقد احتفظ البيزنطيون طويلاً بسر هذا السلاح الهائل واستأثروا باستعماله فى محاربة أعدائهم قروناً طويلة »[١] وكانت لديهم الدبابات ـ وقد ذكرها مؤرخو العرب بهذا الاسم واستعملها جيش المسلمين فى حصار الطائف ـ والدبابة « أداة من أدوات الحرب يدخل المحاربون فى جوفها ويدفعونها إلى جدار الحصن فينقبونه وهم فى داخلها يحميهم سقفها وجوانبها من نبل العدو »[٢] وكان لديهم أسطول كبير فى البحر وغير ذلك من شتى عدد القتال . وبالإجمال فإن الجيش البيزنطى كان على جانب عظيم من القوة والتنظيم أعد ليحفظ أكبر إمبراطورية فى الشرق ، وهذا الذى جعلهم يحتفظون بمملكة بيزانس رغم الإغارات القوية التى كانت تنتابهم من كل طرف .

* * *

ونخلص من هذا العرض إلى أن الأسرة المكدونية هى التى حاربت الدولة الحمدانية فى عهد إمبراطورية بيزانس ، وأن حروبها لم تكن مع العرب بل كانت مع الروس والبلغار ، وأن الصراع بين الكنيسة والقصر وانغماس القياصرة بالشهوات وفرض الضرائب قد خلق لها الكثير من الفتن والاضطرابات الداخلية ، وأنها كانت قوية بجنودها ورجالها وعددها ومخترعاتها وأسطولها ووسائل مواصلاتها . بينا الجيش الحمدانى لم يكن بهذه القوة ولا بهذه المنعة ، وكان كل سلاحه السيف والرمح والمستوفى وهو عمود من حديد مربع الشكل طوله ذراعان ، وله مقبض مستدير . وثمة مسألة يجب أن نشير إليها وهى أن مشاكل البيزنطيين لم تكن أقل من مشاكل الحمدانيين ولكن الفرق أن البيزنطيين كانوا إمبراطورية

---

(١) عقد الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه « مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام » فصلا طريفاً عن تاريخ « النار اليونانية » وتطوراتها أخذنا منها الفقرة المدرجة أعلاه .

(٢) تاريخ الإسلام السياسى للدكتور حسن إبراهيم حسن .

كبرى ذات نفوذ وقوةوجند عظيم ، وكان الحمدانيون أسرة صغيرة ، ومع ذلك فقد استطاع أميرها المغوار أن يرد هجماتهم وأن يصون هذه البقعة من مطامعهم وأن يحتفظ باستقلالها السياسى رغم كل ما عمله البيزنطيون للقضاء على هذه الدولة العربية الفتية .

٤

هجوم نيسفور فوكاس للانتقام من سيف الدولة

لقد تساءلنا ، حين انكسر سيف الدولة لأول مرة عام ٣٤٨ ﻫ ونحن نعرض إلى أمانى نيسفور فوكاس وتدبيره هذه الخطط المدمرة للقضاء على خصمه : هل استطاع أن يثأر لهذه الدماء التى أهرقها العرب فى مضايق طوروس وأراضى كليكيا ؟ وها نحن أولاء نترك للحوادث أن تجيبنا عن هذا السؤال بعد أن ظلت انتصارات سيف الدولة عشر سنوات كاملة كادت تصل به إلى أبواب استانبول.

* * *

مرت سنة ٣٥٠ ﻫ دون قتال اللهم إلا بعض مناوشات بسيطة جرت بين البيزنطيين وجماعات العرب من ساكنى طرسوس . وقد يكون للطبيعة أثرها القوى فى وقف القتال لأن المؤرخين يتحدثون عن اشتداد البرد اشتداداً عظيما كان من نتيجته أن هطلت الثلوج كثيراً وجمد نهر الفرات مما تعذر معه القتال ، وما أطل ربيع سنة ٣٥١ ﻫ حتى زحف البيزنطيون على مدينة « عين زربى » وكانت من مدن الثغور ولم يكن سيف الدولة قد استعد للقائهم بعد أن أضاع جيشه ، ورأى البيزنطيون أن الفرصة مؤاتية لأن يغيروا على هذه البلدان الواقعة على الحدود . فجهز نيسفور فوكاس جيشاً عظيما يتراوح عدده بين الـ ١٦٠ ألف جندى ومائتى ألف . وإذا عرفنا أن هذا العدد يشكل أكبر وحدات الجيش البيزنطى قدرنا مبلغ ما أثارته انتصارات سيف الدولة فى نفوس البيزنطيين من خوف وقلق . فالواقع أن الزحف البيزنطى يبدأ من هذا التاريخ ، ولم يكتف نيسفور بكثافة

هذا العدد من المقاتلين بل زود جيشه بهذه العدد والمدمرات وما لا بد منه لتذليل هذه العقبات التى تعترض تقدم الجيش : « ثلاثين ألف صانع للهدم ولتطريق الثلوج ، وأربعة آلاف بغل عليها حسك الحديد يطرحه حول عسكره بالليل — أى ما يشبه الأسلاك الشائكة فى عصرنا هذا — وخركاهات عليها لبود عسكرية » عدا الدبابات والنار اليونانية التى كانت أفعل مدمرات الجيش البيزنطى فى هدم المدن وحصد النفوس . أى أن الجيش البيزنطى كان يتبع نفس الخطط والأساليب العسكرية التى تتبعها الجيوش الحديثة فى غزواتها وفتوحاتها . فهى لا تكتفى بكثافة جنده وكثرة مدافعها وقنابلها وطياراتها وغازاتها السامة بل تصخب معه عدداً غير قليل من كبار المهندسين والعملة لتعبيد الطرق ونسف الجبال وحفر الآبار . . وهذا ما صنعه البيزنطيون فى حروبهم مع سيف الدولة .

بهذا الجيش اللجب الكامل العدة والعدد انقضّ نيسفور فوكاس على « عين زربة »[1] هذه البلدة الواقعة فى سفح جبل ، فحاصرها وأحاط جنوده بالجبل من جميع أطرافه وما زالوا يقاتلون أهالى هذه البلدة الصغيرة الآمنة التى قاتلتهم وصدّت عن حماها ما وسعها القتال حتى وهن عزمها وعجزت عن الدفاع . ورأى السلطان أن من الحكمة — وجيش سيف الدولة بعيد عنهم وليس لديهم من جنده إلا فئة من حرس الحدود — أن يستسلموا حقناً للدماء وضناً بالمدينة من أن تحرق أو تدمر . ويصف ابن مسكويه صاحب تجارب الأمم هذه الوقعة بقوله : « وفيها — أى فى هذه السنة — ورد الروم « عين زربة » فى مائة وستين ألفاً وهى فى سفح جبل ، والجبل مطل عليها ، فلما جاءه الدمستق فى هذا الجمع العظيم أنفذ قطعة من جيشه إلى الجبل ونزل هو على بابها فملك جيشه الجبل ، فلما رأى أهل عين زربة أن الجبل قد ملك عليهم وأن جيشاً آخر ورد

---

(١) والذى نرجحه أن « عين زربة » كانت من مدن الثغور الحصينة ، يدلنا على ذلك أن نيسفور لم يستطع أن يدخلها بسهولة رغم كثافة جيشه ، وأن بعض جنوده قد دخلوها بالحيلة ولو لم يستسلم له الأهالى لاضطر إلى حرقها أو تهديمها. وفى معجم البلدان أن الروم هدموا هذه البلدة مرتين : مرة فى عهد الرشيد ومرة فى عهد سيف الدولة وأن سيف الدولة أنفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم حتى أعاد عمارتها ، وهذا يؤكد الرأى الذى ذهبنا إليه . ولولا ذلك لما اهتم بعمارتها وتحصينها هذا الاهتمام .

إلى باب المدينة وأن مع الدمستق دبابات كثيرة ، وأنه قد أخذ فى نقب السور طلبوا منه الأمان فأمنهم وفتحوا له باب المدينة فدخلها فوجد الذين فى الجبل قد نزلوا إلى المدينة فندم على إعطائهم الأمان ؛ فنادى فى البلد من أول الليل بأن يخرج جميع أهله إلى المسجد الجامع ، وأن من تأخر فى منزله قتل ، فخرج من أمكنه الخروج فلما أصبح أنفذ رجاله فى المدينة وكانوا ستين ألف رجل ، وكل من وجدوه فى منزله قتلوه . فقتلوا عالماً من الرجال والنساء والصبيان والأطفال وأمر بجمع ما فى البلد من السلاح . فجمع منه أمر عظيم وكان فى جملته أربعون ألف رمح ، وقطع ما فى البلد من النخل فقطع نحو خمسين ألف نخلة ، ونادى فيمن حصل فى المسجد الجامع من الناس بأن يخرجوا عن البلد إلى حيث شاءوا ، وأن من أمسى ولم يخرج قتل ، فخرج الناس مبادرين وتزاحموا على الأبواب فمات بالضغط جماعة من الرجال والنساء والصبيان ، ومرّوا على وجوههم حفاة عراة لا يدرون أين يتوجهون فماتوا فى الطرقات ومن وجد فى المدينة آخر النهار قتل وأخذ ما خلفه الناس من أمتعتهم وأموالهم . وهدم السوران اللذان على المدينة وهدمت المنازل ، وبقى الدمستق مقيما فى بلدان الإسلام واحداً وعشرين يوماً ، وفتح حول "عين زربة" أربعة وخمسين حصناً منها بالسيف ومنها بالأمان ».وحسب القارئ أن يعلم أن بين هذه الحصون التى فتحت بالأمان حصن أمر أهله « بالخروج منه فخرجوا فتعرض بعض الأرمن للنساء اللواتى خرجن منه فلحق رجالهن غيرة عليهن فجردوا سيوفهم فاغتاظ الدمستق منهم وأمر بقتل الجميع وكانوا أربعمائة رجل ، وقتل النساء والصبيان ولم يترك إلا جارية حدثة أو من يصلح أن يسترق »، وإذا كانت الحصون التى افتتحت بالأمان قد تعرضت لهذه الفظائع والأهوال فما هو حال التى فتحت بالسيف وتعرضت للتهديم والتدمير ؟

لقد استطاع البيزنطيون فى هذه المعركة الثانية أن يثأروا لضحاياهم بعد هذه الحملة الكبيرة التى جهزوها لقتال الأمير الحمدانى الذى أقلقهم فى عقر دارهم مدة عشر سنوات كاملة . ولكنهم لم يستطيعوا أن يثأروا منه بل من هذه البلدة الآمنة القوية برجالها والغنية بخيراتها فكانت النساء والأطفال وأشجار النخيل

طعمة لشهوة الدم والثأر التى استيقظت فى نفوسهم قوية جامحة بعد أن نالهم من غارات سيف الدولة ما نالهم، ولا شك أن خبر هذه المعركة وما انطوت عليه من بطش وفتك قد نقل إلى مسامع الأمير الحمدانى، وأن هذه المآسى الدامية قد حزّت فى نفسه وآلمته ألماً شديداً أو قل أثارت حميته ومروءته وشجاعته حتى أصبح لا يستطيع المقام فى عاصمة ملكه دون أن يسرع إلى ساحة القتال ليلقى هذا الخصم القوى بجيشه العظيم. ولكن هل كان سيف الدولة قد أخذ للأمر عدته؟ وهل استطاع أن يلم وحدات جيشه ؟ الذى نفهمه من سير الحوادث أن سيف الدولة قد لقى عناء كبيراً فى جمع الجند، وأنه لم يستطع أن يفرض نفسه عليهم كما كان يفرضها فى السابق . لقد جمع ما استطاع جمعه من وحدات جيشه بكثير من الجهد وأخذ يغرى المتطوعين بالهبات والعطايا « ونادى بالرعية : من لحق بالأمير فله دينار » فهل هذا المبلغ عن يوم أو عن أسبوع أو عن شهر ! وهل عجز عن إثارة الناس فى رد عادية الأجنبى فلوّح لهم بالمال أو أن هذا النداء هو لتلك الحثالة المرتزقة من الجنود الذين لا تخلو منهم أمة فأراد أن يستثير حماستهم بالمال بعد أن خمد من نفوسهم « حسّ الدفاع عن الوطن » ؟

على أن الأمر الذى لا ريب فيه أن انكسار سيف الدولة فى مضايق « خرشنة » ونجاته بأعجوبة بعد أن أضاع جيشه كله ، ودخول البيزنطيين « عين زربة » واقتحامهم الثغور بجيش عظيم — لا ريب أن هذه الأحداث مجتمعة قد خلقت فى نفوس الحمدانيين بعض الوهن والذعر . والحرب بركان من السعير ، لا تحمل فى أطوائها إلا الدم والنار وهذه النفوس التى تذهب طعمة لها فهل يجازفون — وهم قلة — بقتال جديد ويزجّون أنفسهم فى أتون محرقة كما يريد الأمير ! ! أخذت الدعاوات تعمل عملها . وكادت الآراء تنشطر شطرين ولكن الوطن أصبح مهدداً بغارة العدو . والإنسان مفطور على حب وطنه ، ولا يستطيع أن يكون « إنسانى النزعة » حين تدهم أرض الوطن يد العدو . إذن ، فلا مجال للفلسفات وبسط الآراء . وأخذ الأمير ينفخ فى النفوس : ما قيمة حياة سلبت كرامتها ؟ وهل لأمة كرامة إذا سلب الوطن حريته ؟ وهل تصان الأوطان بغير المهج وإراقة الدم ؟ . .

* * *

دخلت « عين زربة » فى حوزة نيسفور ، وأعلن — وقد أدركه الصوم — أنه سيعود إلى القتال بعد الفطر . ونفهم من هذه الرواية أن الحرب كانت فى الربيع ،« وزعم أنه يخلف جيشه فى " قيسارية " ولكن لم تكن هذه المزاعم إلا خدعة إذ ليس من المعقول أن يركن إلى الهدنة ليعطى خصمه الفرصة بعد أن جهز هذه الحملة الكبرى التى أعدّها لفتح سورية والقضاء على سيف الدولة نهائيًّا .

ويصف بول بوران هذه الفترة ، ويسميها فترة استراحة بقوله : « بعد أن رسم نيسفور فوكاس منذ عام ٩٦٢ م خططه الحربية بأكملها ، انقضّ على كليكيا كالصاعقة ، وفى برهة ٢٢ يوماً استولى على ٤٥ بلداً وحصناً — والرواية العربية تذكر ٥٤ حصناً ولا نعلم إذا كان هذا من تحريف الأرقام لأن العدد متقارب إلى حد ما — فوقع العدو فى ارتباك عظيم ، أما نيسفور فإنه استفاد من حيرة العدو وذهب ليستريح فى " قيسارية " . وفى خريف السنة نفسها اجتاز جبل طوروس ثانية ، ومعه جيش مؤلف من مائتى ألف محارب ؛ واتجهت نيته نحو حلب . وبعد أن استولى على كليكيا اجتاز الأمانوس فى أواخر تشرين الثانى ، ولم يستطع سيف الدولة أن يدافع عن مضايق الأمانوس لأنه أخذ على حين غرة » .

تطايرت الأنباء إلى سمع سيف الدولة أن البيزنطيين أصبحوا على أبواب عاصمته ، وطبيعى أن تثير هذه الأخبار فى نفسه شتى الهواجس وأن يقلق ويفكر فى دفع هذا الخطر المداهم . لقد انتفض كالسهم وانطلق على جواده يقرع فى سمع الميامين من جنوده البواسل أن هبّوا لدفع هذا الخطر فإن أرض الوطن مهددة بنيران العدو . وترك العاصمة تتأهب لدفع الخطر وأسرع إلى لقاء العدو قبل أن ينقض على المدينة . وكان البيزنطيون قد وصلوا إلى إعزاز ؛ والتقى بهم وجهاً لوجه . ولكن لم يبدأ القتال حتى شعر أنه يحاول المستحيل . أليست مجازفة كبرى أن يقاتل ثمانين ألف بيزنطى بأربعة آلاف عربى ؟ ، ولكن « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » بهذا الإيمان القوى تقدم إلى صدّ البيزنطيين ، فلم يهن ولم يضعف ، وقاتل بشجاعة نادرة وما زال حتى أسفرت المعركة عن قتل أكثر من معه فارتد إلى حلب ولم يدخل العاصمة بل خيّم بظاهرها ، وإذ هو يفكر

بالخروج من هذا المأزق علم أن البيزنطيين توجهوا نحو العمق فجهز فتاه « نجا » فى ثلاثة آلاف مقاتل وأرسله للقتال وما لبث أن لحق به . نعم ، لم يصبر « فسار بعد الظهر بنفسه ولم يكد يقطع فرسخاً عن حلب حتى أخبره بعض العرب أن الروم لم يبرحوا " جبرين " وأنهم على أن يصبحوا حلب ». وعاد إلى العاصمة « وبذل خزائن السلاح للرعية » ودعاهم جميعهم إلى الجهاد فى سبيل الله والوطن وإنقاذ العاصمة من هذا الخطر. ولكن نيسفور كان قد انقضّ عليها بثمانين ألف جندى بين فارس وراجل فنشب القتال واستبسل جنود سيف الدولة وكانت المعركة من المعارك الكبرى ، تطايرت فيها الرؤوس وانتثرت الأشلاء وخضبت الأرض بدم الشهداء . واستطاع سيف الدولة بفروسيته الخارقة أن ينقذ نفسه وأن يتجه نحو بالس — الرقة [1] فلحقه ابن الشمشقيق فى عشرين ألف فارس ولكن دون أن يستطيع القبض عليه. وهذا ما حزّ فى نفس عدوه وأدخل الحسرة فى قلب نيسفور . وإلى هذا أشار شلمبرجر بقوله [2] :

« كان سيف الدولة عظيما فى انتصاره . كما كان عظيما فى انكساره . وكانت إمبراطورية البيزنطيين هذه التى ملكت العالم القديم تخافه منتصراً وتجله منكسراً ، ففى سنة ٩٦٢ م قامت على أبواب حلب معركة بين الجيش الذى يقوده قيصر الرومان والجيش الذى يقوده سيف الدولة الأمير . أما كيف كان القتال وهذه الملحمة فلا يستطيع وصفه غير الذى شهد المعركة وأطل على ساحتها وميدانها ، ولكن المؤرخ البيزنطى يعطينا الصورة الصادقة لبسالة الأمير وعنفوانه وكبريائه، وتصف لنا هذه الصورة كيف كان الأمير يثير حماسة الإمبراطور ويلهب شعوره حتى اضطر قيصر البيزنطيين إلى مصارحة قواده : لا أريده قتيلا بل أريده أسيراً فأيكم كانت له القدرة على أسره منحته مقاطعة كاملة » .

---

(١) بين حلب والرقة تقع على ضفة الفرات الغربية .

(٢) هذه النبذة من بحث المستشرق شلمبرجر عنوانه « حلب تنافس بيزنطية » .

٥

دخول نيسفور إلى حلب – إغارته على سيف الدولة وتهديمه قصر الحلبة – دفاع الحلبيين عن أرض الوطن – هدم القصور وحرق الجوامع ونهب الكتب

خلت المدينة من أميرها الشجاع وفقدت بنزوحه عنها بعض آمالها الكبار فغمرها يأس قاتم وذهول عميق وحيرة ملحة فما عسى أن تعمل؟ لقد انتثر فرسانها وتفرق جيشها ولم يبق فيها غير الشيوخ والنساء والأطفال وبعض الحرس. فهل تستسلم لهذه القوى الباطشة تفعل فيها ما يشاؤه القدر . . .

اقترب البيزنطيون من البلدة وحوّموا حولها فاعتصم الأهالى فى الداخل وأغلقوا الأبواب واستعدوا للقتال بهذه الروح القوية التى أيقظها الأمير الحمدانى فى نفوسهم والتى انقلبت فى هذه الظروف العصيبة وهجاً ودماً . ولكن أتستطيع أن تقاوم هذا الجيش اللجب وقد أربى عدده على الثمانين ألف فارس عدا المشاة وشتى عدد القتال ؟ فى الواقع ، أنها لن تستطيع المقاومة، ولكن عزّ على كماة بنى حمدان أن يطأ الأجنبى أرض الوطن فتقدموا للذود عن حماه وأسفرت المعركة عن قتل ثلاثمائة ونيف بينهم غير واحد من كبار الحمدانيين [1] وظل البيزنطيون حول المدينة لم يستطيعوا دخولها . وإذ كان قصر الأمير خارج البلد اتجهوا نحوه، وما دخله نيسفور حتى بهره ما رأى فيه من زخرف وصناعة ، ومن جمال وروعة، ومن ثروات ونفائس وعتاد، ولكن هذا البهر والإعجاب لم يبقيا على القصر كأثر نفيس من آثار الحمدانيين بل أعمل فيه الهدم والتخريب فتركه بعد أن سلب كل ما قدر على نقله – طللاً بالياً وتتفق الروايات على أن الأشياء التى نقلت من القصر تفوق الحصر. ولكن المؤرخين يذكرون بين هذه الأشياء « أربعة ملايين

---

(١) قتل فى هذه المعركة كل من أبى طالب بن حمدان وابنه وداود بن على وأسروا كاتب سيف الدولة الفياضى وأبا نصر بن حسين بن حمدان .

درهم فضة ، آلافاً من البغال ، حصناً من نجد ، أفراساً عربية ، ستة آلاف درع ، ٣٧٠ حملا من الأقمشة الصوفية البديعة ، ٣٠٠ من الأقمشة الحريرية الناعمة ، ١٠٠ حمل من الأسلحة ، أحزمة مذهبة ، عدا السيوف والدروع والأوانى الذهبية والفضية وما يقرب من ألفى جمل[1]» ؛ ولم يكتف بكل هذه النفائس والثروات الضخمة بل أشعل النار فى القصر إمعاناً فى الحقد والضغينة والانتقام . وبذلك شفى القائد البيزنطى بعض غله من سيف الدولة ولكنه لم يحقق رغبة الإمبراطور بالقبض عليه حيًّا ولا رغبته بأن يقضى عليه ميتاً ! وانكفأ إلى المدينة يحاول دخولها على رأس جيشه ولكنه لم يستطع فأرسل أحد رسله ينبئهم بما آل إليه القصر وأن ينتدبوا اثنين لمقابلته وللمفاوضة معه لدخوله المدينة سلماً . وقد لجأ إلى هذا الأسلوب لما عجز عن دخولها حرباً . فخرج إليه شيخان وتبلغا الرسالة واستمهلا يوماً لمشاورة الأهالى « فلما كان الغد أتى الحاجب — رسول البيزنطيين— فقال ليخرج إلينا عشرة منكم لنعرف ما عمل عليه أهل البلد . وكان رأى أهل البلد على الخروج بالأمان ، فخرج العشرة وطلبوا الأمان وتدخل الروم[2]» ، ولكن البيزنطيين خشوا أن يكون وراء هذا الاستسلام مكيدة حربية .

« قال الدمستق : صح ما بلغنى عنكم ؟

قالوا : ما هو ؟

قال : بلغنى أنكم أقمتم مقاتلتكم فى الأزقة مختفين ، فإذا خرج الحرم

---

(١) عن بوران ص : ٤٥ — ٤٦ ، وتعدد الرواية العربية هذه الأشياء كما يلى :

« وظفر الدمستق — نيسفور — بداره وهى خارج مدينة حلب فوجد لسيف الدولة من الورق ثلثمائة وتسعين بدرة فأخذها ووجد له ألفاً وأربعمائة بغل فتسلمها ووجد له من خزائن السلاح ما لا يحصى كثرة فقبض جميعها وأحرق الدار والربض » ابن مكسويه — وفى رواية ابن ظافر : ملك الروم دار سيف الدولة بظاهر حلب وذرعها ستة آلاف ذراع وأخذ له منها ما لا يحصى من الأموال : شرح ذلك ثلثمائة بدرة ، مائة عين ، ومائتى ورق وثلثمائة جمل من البز الفاخرة : ومن الديباج الفاخر مما كان ادخره من عهد «رومانوس» ، خمسون حملا من أوانى الذهب والفضة ما لا يحصى ؛ ومن الخيل ثمانمائة رأس ومن السلاح والمناطق والتجافيف والسيوف مائة حمل ، ومن الجمال نحوٌ ألفى جمل ، ونقل سقوف الدار معه لأنها كانت مذهبة .

(٢) تاريخ على بن محمد الشمشاطى « واقعة حلب » .

والصبيان ، ودخل أصحابى للنهب اغتالوهم .

قالوا : ليس فى البلد من يقاتل .

قال : فاحلفوا . . .

. . . فحلفوا [١]

ورغم هذه الأيمان فقد خشى البيزنطيون دخول المدينة . وتحقق لهم أن الاستسلام كان رأى فئة قليلة دون الأكثرية التى كانت ترى الاستمرار فى الدفاع والمقاومة . وصمم نيسفور على دخول المدينة عنوة. « وكان كل شىء قد أعد للهجوم ، فقد استطاعت الجيوش البيزنطية أن تفتح بعض المنافذ فى أسوار المدينة من الجهة الجنوبية والشرقية والغربية ولكنها اضطرت أن ترتد إلى الوراء أمام دفاع الأعداء وفى اليوم الثانى — ٢٣ كانون الأول — كانت جميع المنافذ قد سدت حتى فكر نيسفور بالانسحاب »[٢]. « وقاتل أهل حلب من وراء السور فقتل من الروم جماعة بالحجارة، وسقطت ثلمة من السور على قوم من أهل حلب فقتلتهم ، وطمع الروم فى تلك الثلمة فأكبوا عليها ، ودفعهم أهل البلد ، فلما جنهم الليل اجتمع المسلمون عليها فبنوها وأصبحوا وقد فرغوا وعلوا عليها وكبروا ، وبعد الروم قليلا إلى جبل هناك يعرف بجبل جوشن [٣] » .

* * *

تراجع البيزنطيون إزاء صمود الحلبيين ودفاعهم القوى ، وشعر الشعب بشىء من العزة والكرامة القومية . واستطاع بتضامنه أن يدفع عنه أكبر قوة حربية فى ذلكم العصر . ولكن المدينة كانت فى عزلة عمن حولها فضاقت بهذا الحصار وهددتها المجاعة وانتهى الأمر أن شبت شبه ثورة فهجم الرعاع على منازل الأغنياء يحاولون النهب والسلب ، واضطر الحرس أن يتركوا مراكز الدفاع ليطفئوا هذه الثورة الداخلية ، وفى رواية أن الحرس اشتركوا فى النهب « وذهب رجال

(١) تاريخ بن محمد الشمشاطى « واقعة حلب » .

(٢) بوران .

(٣) ابن مسكويه .

الشرطة بحلب إلى منازل الناس وخانات التجار ينهبونها وقيل للناس الحقوا بمنازلكم فإنها قد نهبت ، فنزلوا عن السور وأخلوه ومضوا إلى منازلهم مبادرين ليدفعوا عنها فلما رأى الروم السور خالياً » (١) والبلد فى ثورة دامية ، والرعاع يقتتلون فى سبيل الأهواء الدنية دون هذه الغايات المثلى اقتحم نيسفور وجنوده الأبواب ودخلوا المدينة ونفوسهم مليئة بالقسوة والانتقام . وتتفق الروايات على أن البيزنطيين أعملوا القتل والنهب والتدمير ستة أيام كاملة من السبت إلى يوم الأحد لثلاث بقين من ذى القعدة ٣٥١ ه

بعد كل هذه المقاومة خضعت المدينة لبطشهم وفى نفسها ثورة من التمرد . واعتصم أكثر العلويين والهاشميين والوزراء والكتاب وجمهور من الأهالى فى القلعة وأخذ البيزنطيون ينهبون ما وسعهم النهب ، فروّعوا النساء وأرعبوا الأطفال وأطلقوا الجنود تعيث وتفسد وترتكب أفظع الموبقات « فوضعوا السيف فى الناس وقتلوا كل من لقيهم ولم يرفعوا السيف إلا بعد أن كلّوا وضجروا ، وكان فى البلد من أسارى الروم ألف ومائتا رجل فتخلصوا وحملوا السلاح على المسلمين ، وكان سيف الدولة قد أعد من الروم سبعمائة رجل ليفادى بهم فأخذهم الدمستق وسبى من البلد ومن المسلمين والمسلمات بضعة عشر ألف صبى وصبية وأخذ من خزائن سيف الدولة وأمتعة التجار ما لا يحد ويوصف كثرة . فلما لم يبق معه شىء يحمل عليه أحرق الباقى بالنار . وأخرب المساجد » (٢) .

* * *

ظلت العاصمة تسعة أيام كاملة بيد نيسفور ، وخلا له الجو بنزوح سيف الدولة عنها فصال وجال ، ولم يطفئ شهوة الانتقام من نفسه ما أخذه من مال وأثاث وما حمله من ذهب وفضة ومن دمقس وحرير بل أطفأ بعض هذه الشهوة الوضيعة بهدم القصور وحرق الجوامع والكتب وقتل النفوس وترويع النساء وسبى الأطفال . وظلت القلعة منيعة . ورغم كل ما عمل لاقتحامها ظلت

---

(١) ابن مسكويه .
(٢) ابن مسكويه .

بيد الحمدانيين ولم تمتد إليها يده . فساء ذلك ابن أخت نيسفور وهو شاب متحمس فخاطب خاله بقوله :

« هذا بلد قد حصل فى أيدينا . وليس من يستطيع أن يدفعنا عنه فبأى سبب ننصرف عنه قبل فتح القلعة ؟ (١) » .

قال له الدمستق (٢) : « قد وصلنا إلى ما لم نكن نقدره ولا يقدره الملك وقتلنا وسبينا وأسرنا وأحرقنا وهدمنا وخلصنا أسراءنا وأخذنا من أردنا أن نفادى به فدية وغنمنا غنيمة ما سمع بمثلها . والرأى أن ننصرف عنهم فإن طلب النهايات والغايات ردىء » (٣) .

ولكن مطامح الشاب كانت أوسع من أن تحد فأصر على مهاجمة القلعة وقال : « لا أنصرف أو أفتح القلعة . فلما ألح قال له : اعمل ما تشاء هذه هى القلعة . اذهب وخذها . ولم يتردد الشاب لحظة بل اجتاز الطريق المؤدى إلى باب القلعة على رأس فرقة مهاجمة . ولم يكد يحاول الدخول حتى رماه أحدهم بحجر كبير كاد ينقضّ فوقه فأدار الشاب ظهره ليتقيه ، عندئذ فتح أحد الجنود الحلبيين الباب ، وبطعنة رمح بين إبطيه أرداه قتيلاً (٤) » فحزن نيسفور وانتقم لمصرع هذا القائد الشاب بأن قتل أكثر من ألف ومائتى أسير على مرأى من الحلبيين إمعاناً بالحقد والانتقام .

وداخل نيسفور بعد هذه الأحداث فزع كبير ، ويئس من افتتاح القلعة وخشى من مفاجآت غير منتظرة فقرر الانسحاب مكتفياً بهذا النصر الذى اقتصر على الترويع والقتل والنهب والتدمير . وإذ أخذ يتراجع ألقى هذه الكلمة فى أذن السكان :

---

(١) بول بوران .

(٢) أى نيسفور .

(٣) ابن مسكويه .

(٤) يرى المستشرق الشيخ ماريوس كانار أن هذه الرواية فيما يتعلق بقتل ابن أخت نيسفور غير حقيقية . ونحن نجاريه برأيه لأن ابن الشمشقيق أى زه مسكس قد عاد إلى القسطنطينية وجرى بينه وبين الملكة التى تزوجها نيسفور علاقات غرام وتآمر معها على قتله . وعليه فيكون الذى قتل هو أحد قواد الفرق لا ابن أخته .

« إننى ذاهب . . ولكن لأعود قريباً . فازرعوا أراضيكم لأنها دخلت فى حوزتى . وسأرجع فى العام المقبل لأحصد ما زرعتموه . وآمل أن لا تخيبوا أملى [1] » .

وهكذا انسحبت الجيوش البيزنطية وتراجع نيسفور دون أن يمضى فى تحقيق أغراض هذه الحملة الكبرى التى أعدها قيصر الروم ليضع حداً لغزوات العرب المتوالية التى كان يثيرها سيف الدولة وليعيد هذه البلاد إلى النفوذ البيزنطى الذى تقلص عنها ثلاثة قرون كاملة . ويرجع السر فى تراجعه إلى عاملين : أولاً إلى إنشغال نيسفور بالعرش واهتمامه بالأسلاب ، وثانياً — وهو الأهم — إلى خوفه من سيف الدولة أن يهاجمه على رأس حملة كبيرة فى قلب عاصمته .

وانطلق خبر انسحاب البيزنطيين فى طول البلاد وعرضها واتصل بسيف الدولة — وكان فى قنسرين — فأسرع إلى عاصمة ملكه دامع العين ، حزين النفس لهذا المصير الذى صارت إليه حلب ، لقد اعتاد أن يدخل العاصمة ونفسه مليئة بنشوة النصر ، وأن يستقبله شعبه بالأهازيج والأغاريد ، وأن ينشده الشعراء — وهو على صهوة جواده — أجمل آيات المديح فماذا يسمع الآن ؟ إنه يسمع عويلاً وبكاء ويلمس وحشة وخراباً . نعم ، إنه يسمع بكاء المدينة الحزين وقد سادها صمت عميق وذهول مخيف . فماذا يعمل ؟ أيستسلم لليأس والبكاء شأن المستضعفين ! لا . إن اليأس لا يجسر أن ينفذ إلى قلوب العظماء ، فليفكر بمجابهة الأخطار المفاجئة ونفسه أقوى عزيمة وأمضى سلاحاً فى ميدان الكفاح والنضال .

---

(١) بوران .

آخر أيام سيف الدولة

انسحب نيسفور فوكاس وجيشه من حلب فى ٣١ كانون الأول سنة ٩٦٢م وكان لا بد له وهو فى طريقه إلى بيزنطية من أن يقضى على هذه البلاد التى اتخذها المسلمون معاقل قوية ومراكز حصينة لغزو بلاد الروم . وكانت « المصيصة » و « طرسوس » من أقوى هذه المعاقل ، عرف أهلها بالصبر والجهاد وبقوة العزيمة والجلاد . اعتمدهم سيف الدولة فى كثير من غزواته وحروبه فكانوا سنده المكين ودرعه الحصين .

اتجه نيسفور إلى « المصيصة » [1] وحاصرها حصاراً قوياً ولكنه لم يستطع أن يدخلها لأن أهاليها دافعوا عنها دفاع الكماة الأقوياء ، وقد بلغ سيف الدولة هذا الموقف الذى وقفته مقاطعات الحدود فأكبر هذه البطولة واستفزته هذه الأنباء ولكن أين رجاله وأين جيشه ؟ أما الجيش فقد فنى فى الدفاع عن عاصمة ملكه . وأما رجاله فهم فى هذه القلاع البيزنطية يقضون أمضّ ساعات الأسر . . وأما هو فقد نزل به المرض وكاد يقعده . . ولكن النفوس الكبيرة لا يقعدها عن مطامحها وتحقيق رسالاتها شىء . . ها هو ذا ينفر إلى طرسوس مع غلامه « نجا » على رأس فلول من الكتائب الحمدانية . . تدفعهم الحماسة وهذا الانكسار الأليم الذى نزل بهم فى قلب الوطن . لقد وصلوا إلى الحدود بعد إعياء شديد . وما كادت تلوح لهم طرسوس حتى انضموا للطرسوسيين .. كانت المعركة فى إبان احتدامها ، فرأى سيف الدولة وهو الخبير فى فنون الحرب وفى معرفة هذه الدروب أن يشطر الجيش إلى معسكرين ، وهكذا كان : اتجه الطرسوسيون إلى جهة ، واتجه « نجا » مع جنوده إلى جهة ثانية . . وصمد سيف الدولة يصون الحدود . وما زالوا

(١) مدينة على شاطىء جيحان قريبة من طرطوس ذات سور وخمسة أبواب وهى من مشهور ثغور الإسلام – معجم البلدان ج ٨ –

يكرّون وراء البيزنطيين حتّى أجلوهم عن بلاد الإسلام . . وفى رواية تناقلها مؤرخو العرب أنهم وصلوا حتّى مدينة قونية . . ولم يستطع سيف الدولة أن يبرح طرسوس خلال فترة الجهاد – لشلل نزل به – فرجع إلى حلب منهوك القوى حتّى أشاع خصومه والطامعون بمركزه أنه قضى نحبه ، وكان هبة الله حاكم حرّان وابن أخيه ناصر الدولة – هو الذى أطلق هذه الشائعة بغية أن يستقل بتلك المقاطعة التى ضجت من إرهاقه فثارت عليه ، وظن بعض المؤرخين أن الثورة كانت ضد سيف الدولة ولكن الواقع أن الثورة كانت على هؤلاء العمال الذين أرهقوا الرعية بالضرائب الباهظة فى سبيل أغراضهم ومطامعهم دون أن يرتفعوا بتفكيرهم إلى تحقيق هذه الرسالة القومية التى كانت أولى أغراض الأمير الحمدانى . ورأى أن يرسل غلامه « نجا » إلى «حرّان» لإخماد هذه الثورة والقضاء على تمرد ابن أخيه هبة الله . ولكن « نجا » بدلاً من أن ينفذ أوامر سيده فرض على أهالى حرّان الكثير من الضرائب والإتاوات وأنزل بهم الظلم والجور الأليم . . « وصادرهم على ألف ألف درهم ووكل بهم حتّى أدّوها فى خمسة أيام بعد الضرب الوجيع بحضرة عيالاتهم وأهليهم فأخرجوا أمتعتهم فباعوا كل ما يساوى ديناراً بدرهم لأن أهل البلد كلهم كانوا يبيعون ، ليس فيهم من يشترى لأنهم مصادرون فاشترى ذلك أصحاب نجا بما أرادوا وافتقر أهل البلدة » [١] .

لقد أرسله سيف الدولة ليقمع ظلماً فاقترف ما هو أبشع من الظلم، يقول ابن الأثير : [٢] «ولما اجتمعت عند " نجا" هذه الأموال قوى بها وبطر ، ولم يشكر ولى نعمته بل كفره وسار إلى "ميافارقين" وقصد بلاد أرمينية وكان قد استولى على كثير منها رجل من العرب يعرف بأبى الورد فقاتله ، فقتل أبو الورد وأخذ نجا قلاعه وبلاده (خلاط ، وملاذكرد ، وموش) وحصل له من أموال أبى الورد شىء كثير فأظهر العصيان على سيف الدولة »، وقد ضاق الأمير الحمدانى بثورة غلامه عليه بعد ثورة ابن أخيه وأن يصل بهما الغرور إلى هذا

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٨٠ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٨٠ .

الحد . نعم ، شقّ على سيف الدولة الأمير الشاعر ، القوى الإحساس وأخذ الدمع يطفر من عينيه ، وكيف لا يبكى وهو يشهد هذه المآسى المفجعة تنصب عليه : خصم عنيد يقهره فى عاصمة ملكه ، ورجاله ينقضّون عليه ، ومرض هزال يهدده فلا يقوى على مغالبته ومع ذلك ورغم كل هذه الفواجع والأحداث لم يستطع أن يصبر على هذه الإهانة يوجهها إليه غلامه « نجا » فلحق به وما كاد يصل إلى ميافارقين حتى فر من وجهه « فملك سيف الدولة بلاده وقلاعه التى أخذها من أبى الورد واستأمن إليه جماعة من أصحاب نجا فقتلهم » وكأنه أراد أن يقمع هذه الثورة بمثل هذه الشدة والعنف ، وهذا الذى حفز أخا نجا أن يستأمن إليه فآمنه وأكرمه وأحسن إليه . ثم رأى سيف الدولة أن يعمد إلى الملاينة بعد هذه القسوة وأن يسلك الكياسة فى إخضاع نجا . . فأخذ يراسله ، يرغبه تارة ويرهبه أخرى : وما زال به حتى رجع تائباً فأكرمه سيف الدولة وأعاده إلى مركزه السابق . . ولكن لم يلبث « نجا » فى خدمة سيده حتى قتل ! ... ترى هل أغرى سيف الدولة غلمانه بقتله فقتلوه ؟ . . الذى نميل إليه أن سيف الدولة لا يعمد إلى هذا العدوان بعد أن طمأنه على حياته . ولكن قد تكون امرأة سيف الدولة هى التى حرّضت الغلمان على قتله وفى نفسها من الموجدة عليه ما لا سبيل إلى نسيان إغارته على ميافارقين بعد أن عاث فى حرّان وديار مضر . . وكانت زوجة الأمير فى ميافارقين فأمرت بإغلاق أبواب المدينة فى وجهه وصدّته عن غشيانها بكل ما كان لديها من قوة وحذق وتدبير . . يقول يحيى بن سعيد : وسار سيف الدولة إلى ميافارقين وأرسل إلى نجا يأمره بالمسير إليه ، وآمنه على نفسه وماله . وسار نجا إليه فصفح عنه وأقام عنده وشرب بين يديه فلما سكر شتم الغلمان وغلظ عليهم فى القول فاغتاظوا عليه ، وكانت حرمة سيف الدولة أشدّ غيظاً لحصاره لها ، وشتمه إياها فصاح سيف الدولة على نجا وأمر أن يقام من بين يديه فوثب الغلمان عليه بالسيوف فقتلوه » [1] .

(١) وفى رواية أن نجا أغلظ الكلام لسيف الدولة فهاج ذلك غلاماً له اسمه « نجاح » فضربه بسيف على رأسه فقتله ، وقد هال الأمير سيف الدولة الذى وقع مغشياً عليه فأمرت زوجة سيف الدولة أن يجر برجل نجا ففعل ذلك إلى أن أخرج من قصرها وطرح فى مجرى ماء ينصب عليه الماء والأقذار . وبقى فيه إلى الغد حتى العصر ثم أخرج وكفن ودفن وكان ذلك سنة ٣٥٤ هـ .

لم تكن هذه الأحداث الداخلية لتصرف سيف الدولة عن خصومه الطبيعيين . . ولكن أنّى له أن يثأر لكرامة هذا الوطن وقدخلا العرين من الأسود، ومطامع البيزنطيين لم تخمد بل ازداد اضطرامها ولا سيما بعد أن أجلاهم الطرسوسيون عن ديار الإسلام ولحقوا بهم حتّى قونية . . . وها هو ذا نيسفور يعود إلى الثغور ليوالى هجماته فينقضّ على « المصيصة » بجيش ضخم يحاول فتحها فلا يستطيع رغم « نقبه نيفاً وستين نقباً فى سورها » . وجاء سيف الدولة فى هذه الفترة خمسة آلاف متطوع من الخراسانيين — جاءوا فى الفترة التى كانت فيها الحرب مشتعلة فى الحدود . وطبيعى أن يوجههم سيف الدولة إلى « المصيصة » ليتعاونوا مع أهلها على دفع هذا الطغيان ، وما كاد يصل سيف الدولة مع هذه النجدة حتّى كان القتال قد وقف فانسحب البيزنطيون لقلة المؤونة بعدأن لجأوا إلى أخس الصفات البشرية التى يعتمدها المحاربون حين يخسرون المعركة : أحرقوا القرى والرساتق الواقعة على الثغور وكان هذا أنفذ سلاح بيد نيسفور . ولا نعلم كيف أضاع سيف الدولة هذه الفرصة ولم ينقضّ عليهم مع الجنود الخراسانيين؟ أترى أن انسحابهم كان قبل وصوله وأن عددهم لم يكن ليشجعه على ملاقاة نيسفور بجيشه العظيم الذى يعد مائتى ألف مقاتل ؟! ورأى الخراسانيون — بعد وقف القتال — أن مهمتّهم قد انتهت ولا سيما و « المصيصة » ترزح تحت كلكل من الجوع ، وكانت الأوبئة والأمراض تحصد النفوس حصداً فاستأذنوا سيف الدولة بالعودة إلى بلادهم ، فأذن لهم وودعهم وهو فى جيش من الحيرة والاضطراب والذهول .

* * *

مرت فترةُ سكون هى أشبه بهدنة غير رسمية ، ورأى نيسفور أن لا يزج بجيشه فى أتون من الكوارث فعمد إلى سياسة اللين والود واتخذ ضواحى « المصيصة » مركزاً له « وهادى سيف الدولة ببغال ودواب وثياب رومية وصياغات ذهب ، وقابله سيف الدولة بهدايا فصار سبباً لمقام الدمستق فى بلدان الإسلام ثلاثة أشهر لا ينازعه أحد ولا يمكنه فتح « المصيصة » وانصرف عنها لأن

البلد لم يحمله ووقع فى أصحابه الوبا فاضطر إلى الانصراف »[١] . والذى نميل إليه أن سيف الدولة اتخذ من هذه الهدايا وسيلة لتبادل الأسرى عله يستطيع أن يلم فلول جيشه ويقف فى وجه البيزنطيين قبل أن تتلاشى مملكته وينهار صرح آماله بعد هذا الجهاد الطويل . ويظهر أن نيسفور حسب لهذه النتائج حساباً فلم يغادر هذه المناطق وانتقل من « المصيصة » إلى قيسارية وظل سنة يتنسم أخبار الثغور الإسلامية حتى إذا تحقق له ضعفها وعدم قدرتها على الدفاع قرر أن يقوم بحماته الكبرى للقضاء على هذه الدولة العربية الفتية التى شغلت بيزنطية عشرين عاماً كاملاً . وكان أول عمل قام به أن انقض على « المصيصة » ففتحها عنوة بالسيف وقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف ونقل كل من بها إلى بلاد الروم وكانوا نحواً من مائتى ألف إنسان[٢] » ؛ وإذ قضى على « المصيصة » اتجه إلى طرسوس فحاصرها حصاراً شديداً ، وبديهى أن يذعن الطرسوسيون — وقد أصبحوا وحدهم فى قلب المعركة — إلى حكم القدر ويستسلموا إلى طاغية الروم بعد هذا الجهاد الكبير وأن يضطر عامل سيف الدولة ابن الزيات ومولاه رشيق النسيمى إلى تسليم المدينة صلحاً فدخلها نيسفور بصلف بيزنطى ، يملى إرادته القاسية على هذه البلدة التى أتعبته كثيراً ووقف طويلاً دون تنفيذ برامجه . . .

وما شروطه هذه ؟ ... تتفق الرواية العربية بأنه اشترط :

أولاً : أن ينزح أهالى طرسوس عن البلد .

ثانياً : أن لا يأخذوا معهم إلا ما يستطيعون حمله .

ثالثاً : أن تؤول جميع الدور والضياع إلى البيزنطيين .

رابعاً : أن يترك كل من أحب المقام فى طرسوس دينه وأن يعتنق النصرانية .

خامساً : أن يدفع كل من شاء المقام — وهو على دينه — جزية .

وفى معجم البلدان عن أحمد بن الطيب السرخسى أن خلقاً كثيرين

---

(١) ابن مسكويه .

(٢) ابن مسكويه ص ٢١٠ ، والذى نميل إليه أن الرواية العربية تبالغ حين تروى نقل مائتى ألف إنسان من المصيصة إلى بلاد الروم ولا تحدد الرواية الإفرنجية عدد الذين نقلوا فى هذه المعركة .

قد تنصروا وأقام نفر يسير على الجزية وخرج أكثر الناس يقصدون بلاد الإسلام وملك نيسفور البلد « وأحرق المصاحف وخرب المساجد وأخذ من خزائن السلاح ما لم يسمع بمثله مما كان قد جمع من أيام بنى أمية إلى هذه الغاية » .

لقد نزح الطرسوسيون عن وطنهم بقلوب واجفة وعيون دامعة ونفوس جزعة وركبوا البحر وجاز البعض هذه الطرق الوعرة والجبال الشاهقة وما زالوا فى سيرهم حتى هبطوا أنطاكية . وقد أثارت هجرة الطرسوسيين الخوف فى قلوب أهالى أنطاكية فكان أول عمل قاموا به أن طردوا عامل سيف الدولة واتصلوا بنيسفور على أن يؤدوا إليه أربعمائة ألف درهم عدا ثلاثين درهماً كجزية عن كل شخص فى السنة .

وقعت هذه الأحداث بين عامى ٣٥٣ و ٣٥٤هـ بينما كان سيف الدولة فى ميافارقين ، وطبيعى أن تثير فى نفسه هذه الأنباء شتى الأحاسيس المحزنة . لقد عزّ عليه أن تزخر خزائنه بالمال وصفوة رجاله فى الأسر . وما قيمة المال فى نظر سيف الدولة إذا لم يستخدمه فى مثل هذه الغايات النبيلة ؟ — وهو الذى كان ينثر الدنانير على شعرائه بالمئات والآلاف — فطلب من نيسفور هدنة يتبادل خلالها الطرفان الأسرى فقبل نيسفور وأطلق سيف الدولة من عنده من البطارقة — أى القواد — كما أطلق نيسفور عيون رجال سيف الدولة وكان بينهم أبو فراس ومحمد بن ناصر الدولة وغيرهم من رجاله وغلمانه . ثم ابتاع حرية ألفى أسير بمائة وستين ألف دينار أى دفع عن كل أسير ثمانين ديناراً [1] وإذ انتهى من الفداء عاد إلى عاصمة ملكه مع رجاله وجنوده . . ولكن الثورات الداخلية كانت قد اندلعت بشدة . فثار مروان القرمطى فى السواحل . كما ثار الأنطاكيون بتحريض رشيق النسيمى الذى كان قد سلم طرسوس إلى البيزنطيين وانضم إليه جماعة من الديلم وساروا إلى حلب يريدون انتزاعها من قرعويه غلام سيف الدولة الذى دافع عنها دفاع الأبطال . ولكن سيف الدولة لم يقف مكتوف اليدين فانقضّ على هؤلاء الخونة وصان حلب وحواليها من عبثهم ؛ وكأنما هذا التخاذل المريع فى صفوف

---

(١) ولما نفد ما معه من المال اشترى الباقين ورهن عليهم بدنته « درعه » والجوهر المعدومة المثال .

العرب قد أطمع البيزنطيين فى هذه البلاد ولا سيا بعد أن ملكوا الثغور فعاودوا الكرة وساقوا هذه الجيوش المرابطة على الحدود والمهيأة لهذه الغزوة الكبرى ولدخول حلب مرة ثانية — هذه المدينة التى اعتبروها قنطرة البلاد الشامية ، ولكن سيف الدولة صمد لهم ودافع عن لؤلؤته الغالية دفاع المستميتين ، فظلت الجيوش البيزنطية تعيث وتفسد مدة خمسين يوماً فى الضواحى دون أن تستطيع دخول حلب. ولكن كل شىء كان ينبئ أن بطولة هذا الأمير العربى قد انتهت عند هذا الحد فقد عاجله المرض وألح عليه . وما زال يقاوم ويدافع حتى اخترمت المنية حياته يوم الجمعة لخمس بقين من صفر سنة ٣٥٦ هـ فقضى مدافعاً عن فكرة قومية سامية ، وعن وطن أحبه ورفع مكانته . وهكذا فقد ودع حياة ملئت بالجهاد والبطولة ، عاش نصف عمره فى طرد الروم من حدود آسيا الصغرى . ولم يكن بين الملوك — على حد الرواية العربية — من هو أغزى منه ، ويتفق المؤرخون على أنه « جمع من نفض الغبار الذى يجتمع عليه فى غزواته شيئاً ، وعمله لبنة بقدر الكف وأوصى أن يوضع خده عليها فى لحده . فأنفذوا وصيته » نعم ، انتهت حياة هذا البطل العربى بهذه الخاتمة المحزنة ، كسره البيزنطيون فى عاصمة ملكه ، وتفرق عنه أنصاره ورجاله ، وانتفضت المقاطعات ثائرة ، وهده المرض وهو فى إبان كهولته ، وكأنما شهد غروب هذا المجد السامق فكان ذلك من الأسباب التى عاجلت بانطفاء هذه الشعلة التى أضاءت ربع قرن كامل ، وبوفاة سيف الدولة تلاشت المملكة الحمدانية ، ولم يقو ابنه أبو المعالى شريف على توطيد ما عجز عنه أبوه فأفسح المجال أمام البيزنطيين ليوغلوا فى ديار الشام وفى أراضى العراق بعد أن « كان عبور الفرات فى الجهات الواقعة أسفل جبل طوروس مستحيلا على الإغريق منذ أيام هرقل . ولكن زه ميسكيس استطاع أن يكتسح كثيراً من المدن العريقة فى الشهرة ، من أمثال الرها ، وديار بكر ، وميافارقين ، ونصيبين الواقعة عند حدود الإمبراطورية القديمة على نهر دجلة [١] » ويصف فاسيل

---

(١) ابن مسكويه ج ٢ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ يحيى بن سعيد ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ — وأبو الفدا ص ١١٨ .

أف أرثر هذه الغزوات بقوله : « لم يبلغ قط إخضاع العرب وإذلالهم فى وقت من الأوقات مثلما بلغه فى عهد نقفور فوكاس . فقد انتزعت من أيديهم كليكيا وجزء من بلاد سورية . واعترف شطر كبير من بلاد الدولة العباسية بالتبعية للإمبراطورية البيزنطية » [١] .

---

(١) الفاطميون فى مصر .

الحمدانيون وبنو بويه

بنو بويه – انتزاعهم السلطة من العرب – إهانتهم الخليفة العربى – استئثارهم بالأموال – عدم نجدتهم الحمدانيين حين اشتباكهم بحروب بزنطية .

كانت مصر وسورية والعراق ، فى أوائل القرن الرابع ، تحكم بثلاث إمارات مستقلة ، فمصر وقسم من بلاد الشام كانت بيد الإخشيديين ، وحلب إلى حدود الموصل وديار بكر بيد الحمدانيين ، والعراق وفارس والأهواز بيد بنى بويه . . . ولا نشير إلى بقية المقاطعات الإسلامية فقد كانت محكومة أيضاً بأمراء متغلبين . وإذا بحثنا ألوان هذه الإمارات من الناحية القومية انتهينا إلى أن الحمدانيين هم وحدهم الذين كانوا يحكمون هذه البلاد بروح عربية . أما بنو بويه وهم من الديلم ، وأما الإخشيديون وهم من الأتراك ، فكانوا يحكمون تلك المقاطعات بنزعة أعجمية وإن ظهروا بمظهر إسلامى بعيد كل البعد عن الصبغة العربية . فمن هم بنو بويه ؟ وما صلاتهم بالحمدانيين ؟ وما حكم التاريخ عليهم حين تقاعسوا عن نجدة الحمدانيين خلال حروبهم مع الروم ؟ هذا ما نريد أن نلمع إليه فى هذا الفصل :

بنو بويه

يذكر المقريزى فى كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » قصة طريفة عن نشأة بنى بويه لا نبيح لأنفسنا أن نرويها كما رواها المقريزى ولكن نروى بعضاً منهـــا ، فهو يحدثنا كيف كان بنو بويه معوزين لا حول لهم ولا طول ، حتى إن منجماً تنبأ لهم بالملك العريض والجاه الطويل والمال الكثير فما كان من أبى شجاع ، جد الأسرة إلا أن خاطب أولاده بقوله : « اصفعوا هذا ، فقد أفرط

بالسخرية بنا [١] » فصفعوه وهو يبكى ويطالب الرأفة وهم يضحكون منه ويهزأون به ، ثم أمسك عن الضرب فقال لهم المنجم : اذكروا لى هذا إذا قصدتكم وأنتم ملوك وأعطاه أبو شجاع عشرة دراهم !

* * *

ولأبى شجاع هذا ثلاثة أولاد هم :

أبو الحسن على الذى لقب فيما بعد بعماد الدولة

وأبو على الحسن الذى لقب فيما بعد بركن الدولة

وأبو الحسين أحمد الذى لقب فيما بعد بمعز الدولة

وكانوا جميعهم من رجال القوة والبطش . خرجوا فى جملة من خرج من بلاد الديلم تحت قيادة « ماكان بن كالى » الذى لم تكد مطامحه وفتوحاته تمتد حتى اصطدم بـ « مرداويج » أحـــد قواد الفرس الذى قد استولى على ما بيد « ماكان» من طبرستان وجرجان وبذلك أخفق حلم بنى بويه وخاطبوا « ماكان » الذى صمم على الانهزام بقولهم « نحن فى جماعة . وقد صرنا ثقلا عليك وعيالا ؛ وأنت مضيق . والأصلح لك أن نفارقك لنخفف عنك مؤونتنا . فإذا صلح أمرك عدنا إليك » [٢] فأذن لهم . ورأوا ،وهم فى حالتهم هذه ، أن يلتحقوا بـ « مرداويج » ملك طبرستان وجرجان والرى وهمدان وكل تلك المناطق فأكرمهم واتخذهم بعض قواده ولم يكتف بذلك بل قلّد عماد الدولة — وهو الأخ الأكبر . بلاد الكرج ، فأحسن السيرة وافتتح قلاعاً ظفر منها بذخائر كثيرة ، وما زال يدير الأمور بالكياسة والسياسة تارة ، وبالقوة والبطش تارة أخرى حتى استمال الرجال إليه وقصده الناس من كل صوبٍ وشاع ذكره فى الأقطار . وخشى « مرداويج » أن يقوى نفوذ عماد الدولة فاستدعاه ولكنه لم يلتفت إليه ،وانتقل من كرج إلى أصبهان وقاتل المظفر محمد بن ياقوت حتى هزمه وملك أصبهان سنة ٣١١ هـ وبدأت القصص

(١) كتاب السلوك للمقريزى جزء ١ ص ٢٥ .

(٢) « السلوك لمعرفة دول الملوك » جزء ١ ص ٢٦ .

–إثر هذه المعارك التى قادته إلى النصر –تحاك بلباقة حول بطولته وشجاعته وكيف هزم عشرة آلاف رجل بتسعمائة من رجاله ، وبلغت سيرته خايفة بغداد فاستعظمه وما زال نفوذه يمتد ، والنصر يحالفه فى كل خطوة من خطواته حتى ملك شيراز وفارس . وكان أخوه ركن الدولة – الحسن – قد استولى على كارزون فأصبحت كل تلك المقاطعات أو أكثرها بيد بنى بويه. ومن هنا بدأت تتكون دولة الديلم التى ملكت العراقين والأهواز وفارس وتغلبت على الخلفاء العباسيين حتى أصبحت الكلمة العليا لهم فى شئون الملك واستنفاذ موارد الدولة . .

وقد رأى عماد الدولة ، والخلافة بيد العباسيين ، أن يجنح إلى السياسة وأن يتصل بالخليفة ليتاح له دخول بغداد . لأن بلاد فارس – على سعتها – لم تكن لتحقق مطامحه ومطامع إخوته فاتصل بالخليفة الراضى بالله محمد بن المقتدر وبوزيره أبى على بن مقلة ينبئهما بأنه على الطاعة ، ويطلب أن يكون أميراً على هذه المقاطعات على أن يبذل ألف ألف درهم .. فأجيب إلى ذلك ، وسيرت له الخلع واللواء . . . فلم يكد يلبس الخلع وينشر اللواء حتى نسى وعوده للخليفة واعتبر نفسه صاحب الملك والسلطان . . وهذه إحدى غلطات الخليفة العباسى الذى أضفى على متغلب ذى مطامع هذه الصفة الرسمية التى زادت نفوذه فى كل بلاد الديلم . . وكانت أولى أعماله التى كشفت عن دناءة مطامحه أنه قتل الرسول الذى حمل إليه اللواء والخلع ولم يؤد المال الذى فرضه على نفسه[١] .

ومما شجع عماد الدولة أن يقترف هذه الفعلة النكراء أن الدسائس فى بغداد كانت على أشدها ، وكانت العناصر الأجنبية تعمل فى السر والعلن على تهديم هذا الملك الضخم وتقويض دعائمه . وكان بطش الأتراك من أكبر الحوافز التى دفعت بعض البغداديين أن يتصلوا بعماد الدولة وأن يحببوا إليه بغداد ، وكان فى طليعة الذين أطمعوه بهذا الاستيلاء أبو عبد الله محمد البريدى والوزير أبو على

---

(١) كانت تعليمات الرسول ألا يسلم الخلع واللواء إلا بعد قبض المال ، فلما وصل خرج عماد الدولة إلى لقائه وطلب منه تسليمها ، فذكر له الشرط فأخذها منه قهراً (ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٧) .

محمد بن على بن مقلة صاحب الكلمة الحاقدة المروية على لسانه : « إننى أزلت دولة بنى العباس وأسلمتها إلى الديلم ، لأنى كاتبت الديلم وقت إنفاذى إلى أصبهان وأطمعتهم فى سرير الملك ببغداد » .

ولا شك أن هذه العوامل مجتمعة كانت أكبر ممهد لأن يحقق البويهيون أطماعهم فما إن وثق معز الدولة بأن دخوله بغداد لن يلاقى أية مقاومة حتى تقدم على رأس جيش لجب ودخل بغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة دخول الفاتحين[1] وبدخوله ذعر قوم وابتهج آخرون ،ولكن سرعان ما عاودهم الذعر جميعاً حين انقض الجنود على دار الخلافة ينهبون كل نفيس ويعبثون بكل أثر .

أصبح الأمير البويهى هو الحاكم المطلق فى بغداد ، خلع المستكفى بالله وأقام مكانه المطيع لله الفضل بن المقتدر بعد أن قص من أجنحته حتى حرمه من وزير يبثه بعض هجساته ! . . وهكذا ، فقد استحال الخليفة أشبه بصنم فى متحف ، لا رأى له ولا نفوذ ، أقصى أمنياته أن لا يمثل به كما مثل بأسلافه[2]، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل فكر هو وأصحابه أن يبطلوا الدعوة فى المساجد لبنى العباس وإقامتها للمعز لدين الله أبى تميم معد الفاطمى ولكن بعض أصحابه قد نهاه عن ذلك وانتشر قواده فى كل مكان يبسطون نفوذهم وسلطانهم ويفرضون بطشهم وجبروتهم ، وظلت إمارة الأمراء فى عهده ، وظل مسيطراً على العراق والخلافة ٢١ سنة ، تجبى الأموال باسمه إلى أن مات فى بغداد سنة ٣٥٦ هـ . ولا نكون مسرفين فى القول إذا أطلقنا على معز الدولة — هذا الرجل المتغلب — لقب ديكتاتور ، لقد كانت ديكتاتوريته تقوم على الظلم والبطش والنهم بينا ديكتاتوريات العصر الحاضر

---

(١) لقد دخل معز الدولة بغداد لأول مرة سنة ٣٣٢ هـ فحاربه توزون الأمير التركى وهزمه وما زال يتحين الفرص حتى دخلها يوم السبت فى الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ٣٣٤ .

(٢) لقد قتل من التسعة والخمسين خليفة ببغداد ثمانية وثلاثون ، وعذبوا بالجوع والسجن وغير ذلك حتى إنهم أخرجوا الخليفة القاهر من السجن مفقود العينين ، يسأل الناس عن قوته على أبواب المساجد بقوله : « يا معشر الناس . أنا بالأمس كنت خليفتكم ، واليوم أسألكم ما فى يدكم » فيتصدق عليه .

مثلا — إلى قيامها بذلك — تعمل على تشييد ملك وتقوم ببعض الأعمال العامة لتستر طغيانها بستر شفاف . . وهكذا، فإن حوادث التاريخ تقص علينا أحاديث مريعة عن انتقال السلطة من العرب إلى الأعاجم ، وعن قيام بنى بويه فى بغداد ، وفرضهم الإتاوات والضرائب ، واقترافهم أبشع ألوان الظلم وإرهاق الرعية بشتى ضروب التعذيب . بينا كان الحمدانيون العنصر الوحيد الذى يهتز ألماً لنزول هذه الأحداث ، وكان الخليفة العباسى على علم بهذا الشعور الذى كان ينبض به قلب سيف الدولة . ولكن ماذا يستطيع أن يعمله الحمدانيون وقد صمدوا وحدهم يردون أعظم غارة حربية تستهدف بلاد الشام . كان يؤلم الخليفة أن يقف البويهيون هذا الموقف المزرى من الحمدانيين الذين كانوا يطمعون أن تصل إليهم نجدات الخليفة لصد هذه الغارات الأجنبية على تخوم المملكة الإسلامية الكبرى.

وفى المعركة التى دارت رحاها على أبواب حلب بين نيسفور فوكاس وسيف الدولة عام ٣٦١ هـ — ٩٦٢ م اتصل الأمير الحمدانى بالخليفة العباسى وطلب إليه أن ينجده لكيلا يفسح المجال للبيزنطيين أن يمضوا فى غزوتهم الكبرى فماذا كانت النتيجة ؟

يصف الذهبى صاحب « تاريخ الإسلام » هذه الحادثة بقوله [1] :

« . . وذاع الخبر فى بغداد فأغلق الناس الأسواق ، وذهبوا إلى باب الخلافة ومعهم كتاب يشرح مصيبة حلب وضجوا . . فخرج إليهم الحاجب وأوصل الكتاب إلى الخليفة فقرأه ثم خرج إليهم وأفهمهم أن الخليفة بكى ونقل إليهم كلماته بنصها :

(لقد غمنى ما جرى وأنتم تعلمون أن سيفى معز الدولة ، وأنا أرسله فى هذا).

ولكن الشعب العراقى الذى تربطه ببلاد الشام أواصر القربى والدم واللغة والحس المشترك ، إن هذا الشعب لم يرض هذا الجواب فضج وطلب إلى الخليفة أن يخرج إلى الجهاد بذاته .

---

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه ص ٢٠١ .

(لا نقنع إلا بخروجك أنت ، وأن تكتب إلى سائر الآفاق وتجمع الجيوش وإلا فانعزل لنولى غيرك) » وهذه نزوة صارخة من شعب متألم يشعر أى كارثة تنزل بالأقطار الإسلامية إذا لم تتوحد الصفوف وتصمد للخطر متكاتفة الجهود لصد الهجمات . . وفاتهم — على ما يظهر — أن الخليفة الذى يوجهون إليه هذه الكلمات هو شبح من الأشباح . . ولاشك أنه كان يحس إحساسهم ولكن السلطة لم تكن بيده . . وقابل الشعب هذا الجواب بكثير من الهزء . . ولا نزيد شيئاً على ما أجاب به الخليفة فكل حرف من حروف جوابه ينطق بضعفه وبمسئولية البويهيين الكبرى . . ولا ينقذ سمعتهم التاريخية أنهم رعوا الأدب وقربوا الشعراء وأغدقوا على العلماء ، فشأنهم ، فى ذلك ، شأن حكومة باطشة تستخدم الصحف المأجورة لتبرير عملها فى خنق الحريات ومطاردة الأحرار . . وما كان التاريخ ليعفيهم مما اقترفوه من إثم !

ملامح من شخصيات عاصرت سيف الدولة

المتنبي

أبو فراس

الفارابي

ابن نباتة الخطيب

الصنو بري

المتنبي

ولد المتنبي في السنة التي ولد فيها سيف الدولة ، وفي رواية أن سيف الدولة ولد قبله بعامين . ومهما يكن فإننا نستطيع أن نعتبر ولادتهما في سنة واحدة ، ومن غرائب الأقدار أن يعيشا عمراً متقارباً وأن لا يفصل بين موتهما غير سنة وبعض سنة .

* * *

لسنا نريد أن نؤرخ حياة المتنبي في هذا الفصل ، فالمتنبي سفر خالد من تراثنا الفكري ، وقد كتب عنه الكاتبون مجلدات ضخمة ، وهو لا يزال يستهوي الباحثين لأن يدرسوا حياته ويكتبوا عنه أسفاراً ومجلدات أضخم . ولكن التصاق حياته بحياة سيف الدولة يجعلنا نلم إلمامة موجزة بسيرته وبجوانب من نواحي عظمته وأيامه في بلاط سيف الدولة :

ولد شاعرنا أحمد بن الحسين ، في الكوفة ، عام ثلاثمائة وثلاثين هجرية . والواقع أن الدراسات الأدبية لم تهدنا إلى شيء ملموس عن طفولته ، ولكن هذا لا يمنع أن نفترض فيه توقد الذهن وفرط الذكاء . ويظهر أن أباه — رغم زراية مهنته — كان يقدّر ما للحياة الفكرية من أثر في تكوين الرجل ، فبعث بابنه إلى مكاتب تلك الأيام يتعلم القراءة والكتابة ويلم بثقافة ذلك العصر . ولكن سرعان ما تدهمه الحوادث فيهجر الكوفة مع أسرته إلى بادية « السماوة » فراراً من تغلّب القرامطة الذين أعملوا النهب والسلب في وطنه وفي هاتيك الأطراف. ونتجاوز حياة طفولته وصباه وملازمته الورّاقين وأخذه الأدب عن كبار الأدباء كأخذه اللغة صافية عن أعراب البادية الأقحاح — نتجاوز هذه الناحية ، ناحية أحمد الطفل الناشئ ، إلى شاعر في العشرين من عمره ، يتّقد صدره بهذه الشعلة القوية ، شعلة الشعر التي حفزته أن ينتقل من الكوفة إلى بغداد إلى الشام يمدح هذا وذاك ، ولا نعلم أكان يتخذ الأمراء والملوك وسيلة لقول الشعر أم كان يتخذ مدحهم وسيلة للإثراء والمجد أم هما معاً ؟ على كل فإن تفوقه في الشعر ، وحدّة

ذكائه وكثرة مطامحه ألهبت فى نفسه روحاً جديدة لعلها روح العظمة التى دفعته وهو فى اللاذقية أن يعلن نبوته وأن يصطاد زعامة من زعامات الفوضى التى كان المتغلبون يتقاسمونها دون ما حساب فصورت زعامته نبوة، ولكن يالها من نبوة جرّته إلى السجن عامين كاملين لم يطلق أمير حمص سراحه إلا بعد أن استوثق من توبته ورجوعه إلى حظيرة الإيمان ! . .

ترك المتنبي اللاذقية بعد هذه الصدمة الأليمة ، وأخذ ينتقل من شواطئ البحر المتوسط إلى صرود لبنان إلى أرض الشام حتى هبط على سيف الدولة فى حلب فرأى فيه عنصراً قوياً من عناصر العظمة فأحبه وأخلص له الحب وظل تسع سنوات كاملة فى حماه ينعم بهباته وعطفه . ولكن الرجل الموهوب لا بد أن يكثر حاسدوه — وشاعرنا من هذا النفر — فما زال منافسوه يكيدون له المكايد ويؤلبون عليه الأمير حتى ترك حلب إلى مصر حيث اتصل بكافور الإخشيدى ومدحه بقصائد قوية . ولكن للمتنبي رغبات وطمحات، وكافور لم يحقق هذه الرغبات ولم يكن من جهة ثانية كسيف الدولة لا بسموّ نفسه ولا بأعطياته ولا بكرم محتده ولا بصباحة وجهه فخابت آمال المتنبي فيه وانقلب المدح إلى هجاء لاذع ثم انسل فى جوف الليل إلى بغداد ومنها إلى الكوفة . ولكنه لم يلبث فيها كثيراً لأن المدن الصغيرة تضيق بعظماء الرجال فسافر إلى بلاد فارس يمدح ابن العميد حيناً وعضد الدولة حيناً آخر . وإذ امتلأت نفسه من الأمراء والملوك وزيارة البلدان رجع إلى وطنه يحمل الأموال الكثيرة والهدايا الثمينة والكتب النفيسة . وما اقترب من بغداد حتى داهمه فاتك الأسدى على رأس شرذمة من رجاله فقتلوه وكان قد أشرف على الخمسين .

* * *

هذه نبذة عن نشأة المتنبي وسيرته . ولا شك أن الانتقال من بلد إلى بلد، ومن وطن إلى وطن فى ذلكم العهد هو لون صريح من ألوان المغامرة والطموح والاعتداد بالنفس . وقد عاش المتنبي عمره وهو يحمل فى صدره عزم الشباب : نفساً طموحة ، وروحاً مغامرة ، وقلباً قلقاً وثاباً ، وحنوناً بالمجد والتعالى والعظمة، وإيمان

الواثق من نفسه ، وما إلى ذلك من هذه الألوان التى تتلاقى ظلالها فى حياة العصاميين الذين يرتفعون بنفوسهم من الضعة إلى قمة المجد وذروة العلاء . . هذا هو المتنبي ، وهذه أظهر خصائص نفسيته .

* * *

كان المتنبي حين فرض سيف الدولة إمارته على حلب ، فى العقد الثالث من عمره ، أى فى السنة التى تتفتح فيها آمال الشباب قوية زاخرة ، وكان قد مرّ بألوان مريرة من بؤس الحياة وشظف العيش ، ذاق الفقر وذاق الهوان ، ناضل وكافح وما زال حتى انتهت به أطماعه ومطامحه — كما قدمنا — إلى غيابات السجن ، ومع كل ذلك ظلّ باسم الثغر ، ثبت الجنان ، لا تهزّه الأحداث ، يطمح إلى ما يوائم هذه النفس التى وصفها ووصف هذه المنازع التى تضطرم فى ضميره بقوله :

يقولونَ لى ما أنت فى كلّ بلدةٍ ... وما تبتغى؟ ما أبتغى جلّ أن يُسْمَى
إذا فلّ عزمى عن مدًى خوفُ بعده ... فأبعد شىءٍ ممكنٍ لم يجد عزْما
وإنى لمن قومٍ كأنّ نفوسهمْ ... بها أنَفٌ أن تسكن اللحمَ والعظْما

دخل أبو الطيب عاصمة الحمدانيين وبه بعض الهيبة والذعر ، لأن بلاط سيف الدولة كان يعج بأكابر العلماء والأدباء والشعراء من الفارابى الفيلسوف إلى ابن خالويه النحوى إلى ابن جنى اللغوى إلى أبى ذر الصنوبرى إلى البكتمرى إلى كشاجم إلى ابن نباتة إلى ابن أبى الفياض إلى أبى الفرج العجلى إلى كثير من الشعراء والقضاة والفنانين . . ولكن وثوق المتنبي من نفسه ، وطمعه بالمجد والشهرة ، ونزعته العربية الصميمة هى التى جعلته يقتحم هذا الميدان وأن لا يعدّ نفسه غريباً . لقد رأى فى بلاط سيف الدولة حياة تختلف عما ألفه من حياته السابقة : بذخاً وثراء ، وأدباً وفنًّا ، وفروسية ومجداً ورأى فى سيف الدولة رجلاً يختلف عمن خبرهم من الرجال . ورأى إلى هذا نزعات قومية تضطرم اضطراماً ، وحياة فكرية تموج بالقوة والازدهار ، هذه الظواهر مجتمعة قد فتحت أمام عينيه

آفاقاً جديدة نقاته من حال إلى حال : من حياة القلق والضجر إلى الرغد والاطمئنان . لقد سبح أبو الطيب بهذا الفيض الذى غمره به سيف الدولة حتى كاد يضيق به . ولا عجب فى ذلك ، فى نفوس الشعراء هذا البرم والملل من الركود والركون إلى لون واحد من ألوان الحياة . والمتنبى المغامر تتنافى طبيعته وهذه الحياة الرتيبة ذات النغم الواحد . كيف البقاء فى حلب والاكتفاء بهذا الأفق الضيق ؟ لمَ لا يشارك أميره لذة الظفر فى حروبه وغزواته ؟ وما قيمة العلم بالشيء إذا لم يعمل به ؟ لقد أعده الأمير لحياة الطعان والعراك منذ اتصاله به ، سلمه للرواض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة وأصبح المتنبى الشاعر ابن الطعن والعراك. وبعد .. فالوطن يتطلب منه هذا الجهاد ،والعروبة تقتضيه هذا الحق . وإذ أظهر هذه الرغبة إلى أميره صحبه معه وكان به جد فخور ؛ ولا حاجة إلى الإلماع إلى هذه الغزوات التى شهدها المتنبى ، وهى بعض الغزوات التى شهدها أميره ، والتى وصفها وصف الشاعر الذى امتزج بها وبنيران المعارك دمه وحسه فحسبنا أن نردد ما قلناه من أن شعره فى سيف الدولة ، وذريد فى غزواته ومعاركه ، هو أقوى شيء، من ناحية الوصف ،فى ديوانه . لأنه مسّ الواقع فى الصميم وعبّر عن نزعة الكفاح فى نفسه . . نعم ، لا حاجة إلى الإلماع إلى هذه الناحية من فن المتنبى الذى ينضح بالقوة والدقة وعمق الخيال ، فهذا الخيال المرهف الذى صهر فى نيران المعارك هو الذى جعل لشعره هذا الأثر القوى فى النفوس . وما خاض المتنبى معركة إلا وقف مبهوتاً من شجاعة الفرسان وهول القتال فوصف الجياد ووصف السلاح ووصف وحدات الجيش ولم تفته حتى برودة مياه الأنهر التى عبرتها جيوش الأمير وثبته على فرسه من ضفة إلى ضفة وغير ذلك مما تلمس فيه أثر نفسه وحسه . وهذه القصائد هى عندى وللذين يحبون أن يدرسوا عصر الحمدانيين أصدق من روايات المؤرخين التى يعترى أكثرها الاضطراب والتشكيك ! . . .

شهد المتنبى هذه المعارك الدامية التى كانت تخط مجداً جديداً للعرب ولم يكن كأولئك الشعراء الذين ينعمون بالترف دون أن يزجوا أنفسهم فى هذا المعترك . وكأن المتنبى وقد طمأن نزعة النضال فى نفسه ، وعاد يزهو على خصومه

بجهاده — عاد ليشهد من جديد هذه المعارك التى كانت تثور بين الأدباء والشعراء فى بلاط سيف الدولة والتى كان ضرامها الدس والحقد عليه . لا لشىء إلا لعبقريته ولهذه الحظوة التى خصه بها الأمير فأوغر بذلك صدر الكثيرين ممن ضمهم البلاط — ولا شىء كالحسد يقرض نفوس الأدباء والشعراء والفنانين — كيف يتاح لهذا الكوفى الوضيع الأصل أن ينال هذه الحظوة عند الأمير ؟ ولمَ يخصه بعطفه ويغمره بعطاياه ؟ هل فى شعره هذه القوة التى تجعله فى طايعة من يصطحبهم فى غزواته وحروبه ، وفى صيده ولهوه ، وفى سمره وليالى أنسه . وبدأت المؤامرات تحاك حوله وبدأوا يدسون عليه ويصورون شعره شعراً مبتذلاً . أجماه مسروق ، لا يستحق هذا الإكبار والإجلال . وكان فى طايعة هذا النفر النامى الشاعر وابن خالويه مؤدب سيف الدولة وأبو فراس ابن عمه ، وكان أبو فراس أكثرهم حقداً عليه . وكلمته التى خاطب بها سيف الدولة وتأليبه عايه الشعراء تدل على مدى هذا الحقد : « إن هذا المتشدق — يريد المتنبى — كثير الإدلال عايك وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد ويمكن أن تفرق مائتى دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره » .

ولكن المتنبى لم يكن من الضعف والميوعة بحيث يهرب من أول تعريض به ، فصمد لهم وكوّن حوله جماعة من محبيه وظل طيلة مدة إقامته الشاعر الفذ الذى لا يدانيه شاعر فى الحظوة والرعاية .

هذه الخصومات التى بدأت بين الشعراء والأدباء أدّت إلى أن يكون فى حلب مدرستان أدبيتان : مدرسة قديمة ومدرسة حديثة وأن يبدأ النضال قوياً بين المدرستين . وأن تتباين وجهات النظر فى فهم الأدب والشعر ، وأن يكون على رأس الفئة القديمة ابن خالويه وأن يتزعم المتنبى الزمرة الثانية ، يناقش خصومه ويرد إرهاصاتهم بجرأة وفهم ، وحين يفحمهم بالأدلة والبراهين يلجأون إلى أخس الصفات البشرية ، ولا يتحرج ابن خالويه — هذا الشيخ الوقور — أن يخرج من كمه مفتاحاً من حديد ويقذفه فى وجه المتنبى فيشج رأسه ويسيل دمه . وكأن ابن خالويه قد عجز عن مقارعة الحجة بالحجة ، ومصارعة الفكر بالفكر ، فاعتمد على

النزق والحمق، وهذا منتهى الضعف والغيظ وانتكاس الخاق .

ولا نتوسع هنا بعرض هذه الخصومات وهى تتجدد فى كل عصر فلا يكاد يلمع ذكر الموهوب ويبهر ضوؤه عيونهم حتى تبدأ وخزات خصومه والعاجزين عن بلوغ مكانته بالدس والكيد .

إن هذه السنوات التى قضاها المتنبى فى حلب والتى لقى فيها المجد والغنى وهناءة العيش، ولقى إلى هذا الكيد والدس ، وعرف خصائص النفس البشرية على ألوانها المتباينة هى التى خلقت منه هذا الشاعر الفذ الذى فرض موهبته وشعره على الأجيال فرضاً. وإذا كانت البيئة هى التى تلون العبقريات بأصباغها فلا شك أن بيئة حلب ، فى القرن الرابع الهجرى — حيث كانت الحياة الفكرية والحياة القومية تعجان بالفيض والقوة والازدهار — هى التى عملت عملها فى نفسه وجعلت لشعره — فى هذه الفترة من حياته — طابع الصدق والإخلاص .

لقد أكبر المتنبى فى سيف الدولة الفكرة العربية والطموح والفروسية وطلب المجد ، وهى صفات تقمصت فى المتنبى ، وهذا الذى وحد بين نفسيهما وقرب بين روحيهما وواءم بين نزعاتهما ، وهذا الذى حفزنا أن نهز ذلك الاتجاه الذى يقرره مؤرخو الأدب بأن خلود سيف الدولة مرده إلى المتنبى ،وأنه لولا أبو الطيب لكان الأمير الحمدانى نسياً منسياً . فالواقع أن كليهما عظيم،وأن أثر سيف الدولة فى تكوين عبقريته لا يمكن إنكاره ، وإذا أردنا أن لا نغمط المتنبى قلنا إن كل واحد كان متمماً لخلود الثانى؛وفى هذا إنصاف الأدب وإنصاف التاريخ معاً .

أبو فراس الحمدانى

« لما أدركت أبا فراس حرفة الأدب ، وأصابته عين الكمال أسرته الروم فى بعض وقائعها ، وهو جريح وقد أصابه سهم بقى نصله فى فخذه ، وحصل مثخناً بخرشنة ، ثم بقسطنطينية وتطاولت مدته بها لتعذر المفاداة . وقد قيل : على كل نجح رقيب من الآفات ، وكانت تصدر أشعاره فى الأسر ، والمرض ، واستزاده سيف الدولة ، وفرط الحنين إلى أهله وإخوته وأحبابه ، والتبرم بحاله ، عن صدر حرج وقلب شجى ، فتزداد رقة ولطافة وتبكى سامعها ، وتعلق بالحفظ من سلاستها » .

« الثعالبى »

أبو فراس الحمدانى ابن عم سيف الدولة وأحد قواده وولاته . شاعر وجدانى قوى العاطفة ، زاخر الإحساس ، فياض الشعور ، خاض غمرات القتال وذاد عن حمى الوطن بحماسة وإيمان ، ووهب نفسه للمجد وللمكرمات وهو القائل :

فلا تصفنّ الحربَ عندى فإنها طعامىَ مذ بعتُ الصّبا وشرابى
وقد عرفتْ وقعَ المسامير مهجتى وشقّق عن زُرْق النصول إهابى
ولججتُ فى حلو الزمان ومرّه وأنفقتُ من عمرى بغير حساب

وقع أسيراً بيد البيزنطيين فكتب فى الأسر أجمل قصائده وأرقّ الآيات الزاخرة بالألم واللوعة ، وبالشوق والحنين .

وسنلم فى هذا الفصل إلمامة موجزة بسيرته لالتصاق حياته بحياة ابن عمه .

مولده ونشأته

نشأ أبو فراس فى خضمّ الزعازع العصبية التى نشأ فيها سيف الدولة ، ولا نعود إلى وصف صورة العصر الذى عاش فيه أبو فراس فقد كشفنا عن هذه الصور فى الحديث عن سيف الدولة . إذن ، فلنحصر حديثنا عن أبى فراس

الشاعر القائد ، ولنصف جوانب من حياته ، ولنبدأ بمولده ونشأته .. فمتى ولد وأين نشأ ؟

فى الواقع أننا لا نعلم شيئاً عن نشأة أبى فراس غير أنه ولد فى منبج سنة ٣٢٠هـ وأنه فقد أباه طفلاً وربى يتيماً تحت أكناف والدته وفى ظلال رعايتها . وكذلك لا نعلم شيئاً عن أدوار طفولته ولا عن الذين لقنوه فن الرمى والفروسية وهو فى فجر شبابه ــ وهما من مفاخر العرب آنئذ ، ولا تزال عند الكثير من القبائل العربية حتى يومنا هذا ؛ لسنا نعلم من ذلك شيئاً لأن القصاص والرواة بخلوا علينا بالكثير من حوادثه فكان حظه ، من هذه الناحية ، غير موفور بالنسبة إلى غيره من أنداده المعاصرين ومنْ هم دونه فى الحسب والأدب . لذلك فسنحاول « الافتراض » أحياناً والرجوع إلى نصوص التاريخ أحياناً أخرى فى حديثنا عن نشأته التى لا تختلف عن نشأة غيره من أولاد الأمراء الذين ينشأون فى حجر النعيم والرفاه وبين عظمة الملك وعز السلطان ، وعلى هذا فلننتقل إلى منبج ، إلى وطنه الذى تغنى بمحاسنه كثيراً ، ولنقف وقفة عند « أكناف المصلى » و « الجوسق الميمون » ولنسمع خرير مياه النهر وحفيف أوراق الأشجار ، ولنستمل محاسن تلك الحدائق الزاهرة والجنائن الغناء التى يخيّم ظلال أشجارها الربوع والتى يصفها بقوله :

تلك المنــازلُ والمــلا عبُ لا أراهــا الله محْلا
حيثُ التفتَّ وجدتَ مــا ءً سابحاً ووجــدتَ ظلاًّ
وتحــلُّ بالجسر الجنــا نَ وتسكن الحصنَ المعلّى
تجــلو عرائســه لنــا هزْجَ الذباب إذا تجــلّى
وإذا نزلنــا بالشــوا جيرِ اجتنيتا العيشَ سهلا
والمــاء يفصلُ بــين رو ضِ الزهر فى الشطّين فصلا

لنذكر هذه المنازل ، وهذه المغانى التى كان يرتادها مع صحبه يسمعون غناء القيان ويطربون طرباً بريئاً ملء النفوس ، ولنتخيله على الجسر وقد اتكأ على

بساط سندسي يحدث خلانه بما ينطوى عليه فؤاده اليقظ من ذكريات الحب تارة وذكريات المجد تارة أخرى ويستوضح شيوخه حوادث الماضى وعبر الأيام ، ويعرض عليهم بواكير قصائده التى أخذ يقرضها ، تلك القصائد التى كان ينزع فيها نزعة مَنْ يرى نفسه رب البيت وسيد الدار مفاخراً بما لقومه من سمة المجد وعز السيادة ؛ لنذكر كل ذلك ، ولنمر بعهد طفولته إلى عهد شبابه ؛ ولنذكر انتقاله إلى حلب ؛ واتصاله بابن عمه سيف الدولة الذى كان معجباً به إعجاباً دفعه إلى تفضيله على سائر بنى عمومته من قومه ، هذا التفضيل الذى استحال إلى اصطناعه لنفسه واصطحابه فى غزواته وما زال به يقدمه حتى استخلفه على عماله ؛ لنذكر هذا الشاب الرزين الطامح إلى ذروة الملك والذى استطاع وهو فى بلهنية الصبا أن يقود جيوش سيف الدولة فى الحرب وأن يرأس كتّابه فى السلم . والذى تكللت هامته بأكاليل الظفر فى كثير من الوقائع فحبته القلوب حبها ، وانطلقت الألسن تذكره بالحمد والثناء وتعجب أيما إعجاب بشجاعته ، ثم لنذكر نشوات الظفر التى كانت تهز جوانب فؤاده الطروب فينطلق لسانه بقول الشعر فى وصف المعارك والميادين التى خاضها بقلب ثابت قوى ، لنذكر كل ذلك ولنتخذ من هذه الذكرى صورة بارزة عن هذه الشخصية العذبة ، ثم لنبحث عن رأى القدماء فيه . وعن رأى معاصريه بصورة خاصة ، ولنسجل رأى أبى منصور الثعالبى وهو خاتمة المترسلين فى العصر العباسى وأكثر الأدباء آثاراً وأغزرهم مادة ، ورأيه فى أبى فراس أنه « كان فريد دهره ، وشمس عصره أدباً وفضلاً وكرماً ومجداً وبلاغة وبراعة وفروسية وشجاعة » ولنسجل إلى جانب هذا رأى الصاحب ابن عبـــاد الذى ازدهر الأدب فى عهد بنى بويه بفضله والذى سئل عن رأيه بأبى فراس ، فقال : بدئ الشعر بملك وخُتم بملك : يعنى امرأ القيس وأبا فراس ، لنذكر هاتين الروايتين ، ولنضرب عرض الحائط بما يرويه الرواة عن المتنبى الذى كان يشهد لأبى فراس بالتقدم والتبريز ، والذى كان — كما قيل — يتحامى جانبه فلا ينبرى لمباراته ، ولا يجترئ على مجاراته ، وإنه لم يمدحه ومدح من دونه من آل حمدان تهيباً له وإجلالاً ، لا إغفالاً ولا إخلالاً .. ! ! . لنضرب بهذه

الرواية التى تروى عن المتنبى عرض الحائط . ذلك لأننا نعلم كثيراً عن الحفاوة التى كان يلقاها المتنبى من سيف الدولة فى بدء اتصاله، ونعلم أن هذه الحفاوة كانت تثير حفيظة أبى فراس ، وأن التنافس كان على أشده بين الشاعرين ، نعم ، لنهمل هذه الرواية ولنعد إلى رواية الثعالبى وإلى رواية الصاحب بن عباد وكلاهما سيد من أسياد البيان،وأمير من أمرائه المبرزين ، ولنقبل حكمهما مع قليل من الاحتياط ،أى لنأخذ من الثعالبى وصفه بسمات الكرم والفروسية والمجد لأنه يعرف منها ما لا نعرفه نحن لقرب عهده به ، ولنحكم على شعره غير متأثرين بتلك الأقوال التى أضافها إلى رأيه بأن شعره « سائر بين الحسن والجودة والسهولة والجزالة والعذوبة والفخامة والحلاوة،ومعه رواء الطبع وسمة الظرف وعزة الملك » — لنترك هذا الوصف المتماسك الأجزاء ولنتلمس شعره بذوقنا الأدبى ليكون حكمنا قريباً من الحقيقة ، غير بعيد عن الواقع .

ويجمل بنا الآن قبل أن نعرض إلى شعره أن ندوّن كلمة عن أسره وعن حمله إلى بلاد الروم وإلى « القسطنطينية » لما لذلك من الأثر البين فى شعره الذى رق وجزل واصطبغ بصبغة عليها مسحة من الروعة والجمال بعد أن اكتحلت عيناه بمرأى الروميات .

أسره

يروى ثقات المؤرخين وغيرهم ممن عرضوا إلى وقائع الدولة الحمدانية وإلى غزوات سيف الدولة بصورة خاصة — أن أبا فراس وقع أسيراً فى أيدى الروم فى سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ٣٤٨ هـ ، وأن سيف الدولة فداه فى سنة خمس وخمسين ! وفى رواية أنه أسر مرتين :

الأولى : « بمغارة الكحل » سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة وأن الروم لم يتعدوا به « خرشنة » وهى قلعة ببلاد الروم .

والثانية : « بمنبج » فى شوال سنة إحدى وخمسين وأن الروم حملوه إلى « القسطنطينية » فأقام فى الأسر أربع سنين .

وفى ترديد الروايتين على علاتهما ما يدفعنا إلى الشك بهما ، لأننا إذا قبلنا أن أبا فراس بقى فى الأسر أربع سنوات — وهذا هو المتداول بين المؤرخين — رغم هذا البيت الوارد فى سياق قصيدته التى أرسلها من الأسر والذى يبين أنه بقى عامين لا أربع حيث يقول :

أقمتُ بأرض الرّوم عامين لا أرى   من الناس محزوناً ولا متصنّعاً

بالرغم من ذلك فنحن مضطرون إلى أن نعتبر أن مدة أسره لا تزال غامضة لم يكشف عنها المؤرخون وأن كلامهم لا يتعدى الافتراض . وقد أوضح « بروكلمن » فى البحث الذى كتبه لدائرة المعارف الإسلامية عن أبى فراس أن الرومان أسروه سنة ٣٤٨ هـ — ٩٥٩ م ، وحملوه إلى « خرشنة » بالقرب من الفرات وأنه تمكن من الهرب — كما روى — بوثبة خطيرة ! ؟ ثم قبض عليه سنة ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م وقادوه إلى الأستانة حيث ظل مسجوناً فيها أربع سنوات .

وبذلك نلتقى مع المؤرخين الذين ذكروا أنه بقى فى الأسر أربع سنوات ؛ وإلا فتكون مدة بقائه سبع سنوات وهذا ما لم يجر به قلم مؤرخ .

ويظهر لنا من تشدد القوم بعدم فك أساره أنه كان من القواد المخيفين الذين عرفوا أن يضربوا جيوش الروم ضربات قاضية ، وهذا الذى جعلهم ، مع إكرامهم له ، وتقديرهم لبطولته — وهذا نوع من المجاملات السياسية — أن يحتفظوا به كأعظم رهينة يحتفظ بها عدو من عدوه !

وما زال فى الأسر يشكو آلام الغربة ولوعة النوى حتى تنوظر فى الهدنة وفداه سيف الدولة فعاد إلى وطنه وهو أمضى عزيمة وأثبت جناناً ، وأوفر قوة وأكثر تحدثاً عن نفسه وعن قومه منه قبل أسره .

وقد كتب فى الأسر أجمل قصائده وأرقها وعرفت هذه القصائد بالروميات ، وهى — وإن اختلفت أغراضها ومراميها — ذات نغم حزين واحد سواء هذه التى بعثها إلى سيف الدولة أو إلى أصدقائه أو إلى أمه أو التى ناجى فيها نفسه فى وحدته وغربته وهى مزيج من الحنين والنجوى ومن الفخر

والعتاب والشكوى. وسنشير إلى هذه القصائد فى حديثنا عن شعره. وحسبنا هنا أن نقف وقفة قصيرة عند قصيدتين من قصائد العتاب التى وجهها إلى سيف الدولة حين أحس منه فتوراً فى افتدائه فنى هاتين القصيدتين يصف غربته أدق وصف وكأنما هذا الأسر قد أيقظ فى نفسه هذا التشادّ الذى كان بين أبيه وبين عمه على الملك فكتب إليه حين طال به الأسر وكاد يقنط من اهتمام سيف الدولة بافتدائه يقول :

« مفاداتى إن تعذرت عليك ، فأذن لى فى مكاتبة أهل خراسان ومراسلتهم ليفادونى، وينوبوا عنك فى أمرى » . فأجابه سيف الدولة بكلام خشن وقال له : « ومن يعرفك بخراسان؟ » فكتب إليه أبو فراس هذه القصيدة التى يكشف فيها عن نوازع نفسه قال :

أسيفَ الهدى ، وقريع العربْ ، إلامَ الجفاء ؟ وفيم الغضبْ ؟
وما بالُ كتبكَ قد أصبحتْ تنكبنى مَعَ هـذى النكبْ
وأنت الكريمُ ، وأنت الحليمُ وأنت العطوفُ ، وأنت الحدِب
وما زلتَ تسعفنى بالجميل ، وتنزلنى بالمكان الخصبْ
وتدفعُ عن عاتقىَّ الخطوبَ وتكشف عن ناظرىّ الكرَبْ
وما غضّ منىَ هذا الإسارُ، ولكن خلصتُ خلوصَ الذهبْ
ففيم يقرّعنى بالخمو ل مولى به نلت أعلى الرتبْ[1]
وكان عتيداً لدىّ الجوابُ ولكن ، لهيبته ، لم أجبْ[2]
فلا تنسبنّ إلىّ الخمول ، عليك أقمت ، فلم أغترب
وأصبحتُ منك فإن كان فضل وإن كان نقصٌ ، فأنت السبب
وإنّ خراسانَ إن أنكرتْ علاىَ ، فقد عرفتها حلبْ
ومن أين ينكرنى الأبعدونَ أمن نقص جَدّ؟ أمن نقص أبْ؟
ألستُ وإياك من أسرة ؟ وبينى وبينك فوق النسبْ :

---

(١) مولى : أى سيف الدولة .
(٢) عتيداً : مهيأ .

ودادٌ تناسب فيه الكرام ، وتربيةٌ ، ومحلٌ أشبْ(١)
ونفسٌ تكبّر إلاّ عليك ، وترغب ، إلاّك ، عمن رغبْ
فلا تعدلنّ ، فداك ابن عمـ ـكَ ، لا بلْ غلامك ، عما يجبْ !
وأنصفْ فتاك ! فإنصافهُ من الفضل والشرف المكتسبْ
وكنت الحبيب ، وكنت القريب ليالىَ أدعوك من عن كثبْ
فلما بعدت ، بدتْ جفوة ولاحَ ، من الأمر ، ما لا أحبْ
فلو لم أكنْ بك ذا خبرة لقلت : « صديقك من لم يغبْ »

لقد عز على سيف الدولة أن يطلب أبو فراس الإذن بمكاتبة أهل خراسان لتفديته . وهذا الذى دعاه أن يجيبه بهذه اللهجة القاسية المريرة التى نبهت الشاعر إلى هفوته فكتب هذه القصيدة التى التوت فيها المقاصد والنزعات من استعطاف إلى تفاخر إلى اعتذار إلى شكوى إلى رجاء ! وإنا لنتساءل هل أهمل سيف الدولة ابن عمه ولم يعمل على تخليصه ؟ هل نسيه وهو من أعظم قواده فى الحرب ؟ لا نظن . . ومن يدرى ؟ فقد تكون مشاغل سيف الدولة فى دفع الخطر عن أرض الوطن هى التى أقعدته عن تخليص ابن عمه . لأننا رأينا فى الفصول السابقة أنه لم يترك وسيلة إلا بذلها فى سبيل جنوده وقواده وبديهى أن يهتم بابن عمه أكثر . ولكن طبيعة الشعراء هى البرم بكل شىء ، وقد ضاق أبو فراس بالأسر واشتاقته المعارك والرجوع إلى ميادين القتال كما شاقه أكثر فراق أمه التى قضت أيامها موصولة الأنين ، قد قرحت الدموع جفنيها فكان نشيجها يصل إلى سمعه فيثيره رغم بعد الدار . وهناك ، على ضفاف البوسفور ، كان يكتب القصيدة تلو القصيدة ، وكان من جراء ذلك أن ظفر الشعر العربى من وراء هذا الأسر بمقطوعات عاطفية سامية ، وظفر بقصيدة من أجمل قصائد اللوعة والحنين ، وأريد بها قصيدته « أراك عصى الدمع شيمتك الصبر » فهى من السمو وصدق العاطفة وتصوير منازع الأفئدة والشكوى بمكان عظيم .

ولا نريد أن نسترسل فى الإلماع إلى « رومياته » فلنكتف بما قدمناه ولنثبت

---

(١) أشب : محكم ، ملتف .

هذه القصيدة التى أرسلها زفرة من الزفرات الحرى حين بلغه أن والدته قصدت سيف الدولة ، من منبج ، تكلمه فى المفاداة ، وتتضرع إليه ولكنها لم تلق عنده ما رجت من حسن الإيجاب ، ووافق ذلك عنفاً من الدمستق بأبى فراس ومن معه من الأسرى ، وزيادة فى إرهاقهم فكتب إلى سيف الدولة هذه القصيدة التى يشيع فى كل مقطع من مقاطعها ثورة من الحزن والألم ، قال :

يا حسرةً ما أكاد أحملها !   آخرها مزعج وأولها !
عليلة بالشام ، مفردة ،   بات بأيدى العدى معللها[1]
تمسك أحشاءها على حرق   تطفئها ، والهموم تشعلها
إذا اطمأنت — وأين ؟ — أو هدأتْ   عنّت لها ذكرى تقلقلها !
تسأل عنّا الركبان ، جاهدةً   بأدمعٍ ما تكاد تمهلها :
« يا من رأى لى بحصن خرشنةٍ   أسد شرى ، فى القيود أرجلها !
يا من رأى لى الدّروب شامخةً   دونَ لقاء الحبيب أطولها !
يا من رأى لى القيود موثقةً ،   على حبيب الفؤاد أثقلها »
يا أيها الركبان ، هل لكما   فى حمل نجوى ، يخفّ محملها
قولا لها ، إن وعت كلامكما   وإنّ ذكرى لها ليذهلها :
« يا أمتا ! هذه منازلنا ،   نتركها ، تارةً ، وننزلها !
« يا أمتا ، هذه مواردنا ،   نعلها ، تارة ، وننهلها
أسلمنا قومنا إلى نوبٍ ،   أيسرها فى القلوب أقتلها
واستبدلوا ، بعدنا رجال وغًى   ودون أدنى علاى أمثلها »
يا سيداً لا تعدّ مكرمة   إلا ، وفى راحتيه ، أكملها[2]
ليستْ تنال القيود من قدمى   وفى اتّباعى رضاك ، أحملها
أنت سماء ، ونحن أنجمها !   أنت بلاد ، ونحن أجبلها !
أنت سحاب ، ونحن وابله !   أنت يمين ، ونحن أنملها

---

(١) العليلة هى أمه والمعلل أى المعزى والمسلى ، والمقصود هو .
(٢) يا سيداً : يخاطب سيف الدولة .

بأىّ عذر ، رددت والهة ، عليك ، دون الورى معوّلها [١]
جاءتك تمتاحُ ردّ واحدها ينتظرُ الناس كيف تغفلها !
سمحت منّى بمهجة كرمتْ ، أنت ، على يأسها ، مؤملها
إن كنتَ لم تبذل الفداء لها فلم أزل فى رضاك ، أبذلها!
تلك المودّات كيف تهملها ؟ تلك المواعيدُ كيف تغفلها ؟
تلك العقودُ التى عقدت لنا كيف ، وقد أحكمتْ تحلّلها
أرحامنا ، منك، لمْ تقطّعها ؟ ولم نزل دائماً نوصّلها !
أين المعالى التى عرفتَ بها تقولها دائماً وتفعلها ؟
يا واسعَ الدار ، كيف توسعها ، ونحن فى صخرة نزلزلها ؟
يا ناعم الثوب كيف تبدله ثيابنا الصّوف ما نبدّلها !
يا راكبَ الخيل لو بصرت بنا نحمل أقيادنا وننقلُها
رأيت فى الضرّ أوجهاً كرمتْ فارقَ فيها الجمال أجملها !
قد أثّر الدهر فى محاسنها تعرفها ، تارةً ، وتجهلها !

* * *

لا يفتح الناسُ باب مكرمة صاحبها المستغاثُ يقفُلها
أينبرى ، دونك ، الأنامُ لها وأنتَ قمقامُها ومعقلها [٢]
وأنتَ ، إن عنّ حادثٌ جللٌ ، قلّبها المرتجى وحوّلها [٣]
منك تردى بالفضل أفضلها ! منك أفاد النوالَ أنولها
فإنْ سألنا سواك عارفةً فبعد قطع الرجاء ، نسألها
لم تبق فى الأرض أمة عرفتْ إلاّ وفضل الأمير يشملها
نحن أحق الورى برأفته ! فأين عنا ، وكيف ، معدلها

---

(١) معولها : اتكالها . يعاتب سيف الدولة على رد أم الأسير التى لا اتكال لها فى الورى إلا على سيف الدولة .

(٢) القمقام : السيد . المعقل : الملجأ .

(٣) قلبها . . . : رجل قلب حول : بصير بتقليب الأمور : حكيم .

يا منفقَ المال ، لا يريد به ‌‌‌‌ إلاَّ المعـــالى التى يؤثّلها
أصبحتَ تشرى مكارماً فضلا ‌‌‌‌ فداؤنا ، قد علمت أفضلها ؟
لا يقبل الله ، قبل فرضك ذا ، ‌‌‌‌ نافـــلةً عنده تنفّلـــها[١]

شعره

ونستطيع الآن ، وبعد أن ألمعنا إلماعاً إلى صورتين من تاريخ حياته المليئة بعناصر القوة والشباب ،أن نعرض إلى شعره الذى اصطبغ بألوان عليها مسحة زاهية من العواطف الجياشة ومن الأمانى الزاخرة بمعانى الحياة بعد أن أسر وبعد أن شرّده النوى ؛ وبدهى أن نلمس هذه المسحة الرقيقة العذبة فى شعر أبى فراس بعد أن صهرت الآلام نفسه واكتحلت عيناه بمرأى بلاد الروم الساحرة وبمرأى الروميات بصورة خاصة. نعم؛ بدهى ذلك لأن الحزن والأسى وألم الوحدة وغصة الاغتراب ، أضف إلى هذا ذكرى الوطن وما كان له فيه من صولة ومجد ومن ذكريات وخواطر ، كل ذلك مما يصهر « الشاعرية » فى أتون الإبداع والجزالة ، ويجعل الشعر — بحكم هذه العوامل — صورة من صور النفس المتباينة الألوان ، وزفرة من زفرات القلب ، وحرقة من حرقات الأفئدة المكلومة . ولا شك — ولم يكن كسائر الأسرى بل كان موفور الكرامة ، مفضّلاً على غيره بكثير من الأمور ، ومحافظاً على سربال الإمارة — لاشك أن جمال الروميات واختلاطه بالقياصرة ، ورؤيته آثار العمران ومطارف النعيم ؛ وما إلى ذلك مما هو أقرب إلى الحضارة منه إلى البداوة —كان من الوسائل التى أنضجت شاعريته الخصبة بمعانى الوحى والإلهام .

ومع تسليمنا بأن هذه الظواهر الحسية كان لها أكبر أثر فى شاعريته ، فلسنا ننكرها عليه قبل أسره — وشعره قبل أسره — هو صورة من صور البداوة القريبة من نعيم الحضارة التى انتقلت إلى حلب من دمشق ومن بغداد بصورة خاصة !

(١) النافلة : ما يفعل من الخير فوق الواجب . المعنى : أن الله لا يقبل منك فضائل قبل أن تتم الواجب وهو فداء أبى فراس .

وعلى هذا فنستطيع أن نقول إن شعره بدوى قبل الأسر ، حضرى بعده ، وإذا أردنا التوسع قلنا إن على شعره الغرامى مسحة من روح البداوة الصافية ومن رقة الحضارة الزاهية أى أنه كان مزيجاً من لونين : من روعة البداوة ومن رقة الحضارة. وكان فوق ذلك – ذا صور متشابهة لأن ذكريات الوطن ومَنْ فيه من أهلٍ فقد عشرتهم ، وصحبٍ فقد الائتناس بحديثهم ، ثم ما يكتنف الأسر من شقاء وآلام ، كل ذلك مما أثار عوامل الوجد فى فؤاده فبكى بكاءً حزيناً صادقاً ليس كبكاء بعض الشعراء الندابين . ولا أدل على صدق بكائه وحنينه من هذه المقطوعة التى ناجى بها وحدته بعد أن سمع – فى يوم من الأيام – حمامة تنوح على شجرة بالقرب من سجنه ، فأشجاه الصوت وذكر كل شىء يخفق به قلبه وما هى إلا هنيهة حتى أنشد :

أقولُ وقد ناحتْ بقربى حمامةٌ ... أيا جارتا لو تشعرين بحالى !
معاذ الهوى ما ذقتِ طارقةَ النوى ... ولا خطرتْ منك الهموم ببال
أيا جارتا ما أنصفَ الدهرُ بيننا ... تعالَىْ أقاسمْكِ الهمومَ تعالى
تعالىْ ترىْ روحاً لدىَّ ضعيفة ... تردّد فى جسم يعذّب بالى
أيحملُ محزونَ الفؤاد قوادمٌ ... على غصُنٍ نائى المسافة عالى ؟
أيضحك مأسورٌ وتبكى طليقة ... ويسكت محزونٌ ويندب سالى ؟
لقد كنتُ أولى منكِ بالدمع مقلةً ... ولكنّ دمعى فى الحوادث غالى

بمثل هذه الدموع السخينة كان يبكى أبو فراس : وهى دموع حرّى ترينا صدق العاطفة التى تختلج فى صدر هذا الشاعر الأمير الشاب الذى كان يحرك فؤاده تجاوب الرياح وابتسام البدر ونوح الحمام وسكون الليل وكل عامل من تلك العوامل الطبيعية التى تفيض على الحياة .

ولقد لاحظنا أن قصائده إلى أمه كانت غيرها إلى سيف الدولة .

كان يستعطف سيف الدولة استعطافاً ويذكّره بحقوق الرحم وبما بينهما من العهود ، ولكن قصائده إلى أمه كانت تفيض بما بنفسه من الآلام ؛ وما فى أعماق

قلبه من الحرقة والجراحات . كان يذكر لها وحدته وغدر الدهر به وجفوة الصحب والخلان ؛ وميلهم مع النعماء حيث تميل ، يذكر لها هذا ولا يلبث أن يرشق الدهر بسهامه ويراه من أكبر الأعداء وغير ذلك مما تشعر به النفس فى مثل هذا الموقف .

كتب إلى أمه يوماً — وقد ثقل من الجراح التى نالته ويئس من نفسه — يعزّيها ويخفف من لوعتها بقوله :

مصابى جليلٌ ، والعزاء جليلُ ... وظنى بأن الله سوف يزيلُ
جراح تحاماها الأساةُ مخافةً ... وسقمان : بادٍ منهما ودخيلُ
وأسر أقاسيه ، وليلٌ نجومه ... أرى كلَّ شىءٍ غيرهنَّ يزولُ
تطولُ بىَ الساعات وهى قصيرةٌ ... وفى كلِّ دهر لا يسرّك طولُ
تناسانىَ الأصحابُ إلاّ عصيبة ... ستلحق بالأخرى غداً وتحولُ

ومنها

أقلّب طرفى لا أرى غير صاحب ... يميلُ مع النعماء حيث تميلُ
أكلّ خليلٍ أنكدٍ غير منصف ... وكلّ زمان بالكرام بخيلُ ؟
نعم ، دعت الدنيا إلى الغدر دعوةً ... أجاب إليها عالمٌ وجهولُ
فيا حسرتى من لى بخلٍّ موافق ... أقولُ بشجوى تارةً ويقولُ

ثم يناجى نفسه مخاطباً أمه بقوله :

وإن وراء الستر أمًّا بكاؤها ... علىّ ، وإن طال الزمانُ ، طويلُ
تأسّى كفاكِ الله — ما تحذرينه ... فقد غال هذا الدهر بعدك غولُ

وقصائده إلى أمه العجوز ، قعيدة منبج ، كثيرة اجتزأنا منها بالقدر الذى قدمناه ، ويحدثنا « بروكلمن » أن العالم الألمانى « آلفرات » ترجم إحدى هذه القصائد إلى الألمانية وقد أثبتها فى الصحيفة ٤٤ من كتابه « عن الشعر العربى »..

* * *

ولننظر نظرة عجلى إلى قصائده التى أرسلها إلى سيف الدولة وإلى أصحابه ، فهى وإن كانت لا تعطينا صورة من تلك النفسية المتألمة الصادقة التى نراها فى قصائده إلى أمه إلا أننا نلمس إلى جانب آلامه البادية صورة ند يخاطب نداً ؛ ونراه يذكر نفسه مقرونة إلى أعماله وجهاده الخالد ؛ ونراه يهمس فى أذن سيف الدولة همسات فيها من التقريع والتأنيب ما لا حد له ؛ يذكره بذلك وبمواقفه العصيبة التى كان يلقى فيها كل ألف رومى بسبعين فارساً من كماة العرب ؛ ثم نلمس نزوات الألم واللوعة تدفعه إلى مخاطبة ابن عمه بقصيدة طويلة نأخذ منها هذه الأبيات :

فلا كان كلبُ الروم أرأفَ منكمُ ... وأرغب فى كسب الثناء المخلد
ولا بلغ الأعداء أن يتناهضوا ... وتقعُد عن هذا العلاء المشيّد
أأضحوا على أسراهمُ لىَ عوّداً ... وأنتمْ على أسراكمُ غير عوّد
التى تخلف الأيام مثلى لـكم فتًى ... طويلَ نجاد السيف رحبَ المقلد
متى تخلف الأيام مثلى لكم فتىً ... شديداً على البأساء غير ملهّد[1]
فإن تفتدونى تفتـدوا لعلاكمُ ... فتًى غير مردود اللسان ولا اليـد
يطاعنُ عن أحسابـكمْ بلسانه ... ويضربُ عنكم بالحسام المهنَّـد

وقد أرسل هذه القصيدة على أثر رجوع الروم إليه وهو فى الأسر لفك أسراهم على حين تقاعس سيف الدولة بل لم تطاوعه عزة نفسه وإباؤه أن يرجع إليهم بهذا الأمر !

ويظهر أن الوشاة لعبوا دورهم طيلة غيابه — شأنهم فى كل زمن — فكانوا يوترون سيف الدولة على أبى فراس الذى وقف شبابه وما يملك من قوة وجهد على تدعيم ملكه ؛ وتظهرنا قصائده من الأسر أن لسان سيف الدولة قد زلق غير مرة بكلمات وصلت إلى مسامع ابن عمه من خلص أصدقائه فكتب إليه قصيدة طويلة لا تقل فى الوخزات عن سابقتها ؛ نجتزئ منها الأبيات الآتية :

(١) غير ملهد لا ذليل ولا ضعيف .

وهبتُ شبابى ، والشبابُ مضنّةٌ … لأبلجَ من أبناء عمّى أروعا
أبيتُ مُعَنَّى من مخافة عَتْبِه … وأصبح محزوناً وأمسى مروّعا

ومنها :

تطلّبتُ بين الهجر والعتب فرجةً … وحاولتُ أمراً لا يرام ممنّعا
وصرت إذا ما رمتُ فى الخير لذّةً … تتبعتها بين الهموم تتبعا
أما ليلةٌ تمضى ولا بعض ليلة … أسرّ بها هذا الفؤادَ الموجّعا
أما صاحبٌ فرْدٌ يدوم وفاؤه … فيصفى لمن أصفى ويرعى لمن رعى
أفى كلّ دار لى صديق أودّه … إذا ما تفرّقنا حفظتُ وضيّعا
إذا خفتُ من أخوالى الروم خطّة … تخوّفت من أعمامى العرب أربعا
وإن أوجعتنى من أعادىّ شيمةٌ … لقيتُ من الأحباب أهى وأوجعا
تنكّر سيف الدين ... لما عتبته … وعرّضَ بى تحت الكلام وقرّعا
فقولا له : من أصدقَ الود أننى … جعلتكَ مما رابنى الدهر مفزعا

ومنها :

ولا تقبلنّ القول من كلّ قائلٍ … سأرضيك مرأى لست أرضيك مسمعا

وكتب إلى القاضى أبى حصين بن عبد الملك — وكانت بينهما مودة أكيدة — قصيدة طويلة جاء منها قوله :

هل أنت مبلغه عنى بأنّ له … ودًّا تمكن فى قلبى يجايره
وأننى مَنْ صفتْ منه سرائره … وصحّ باطنه منه وظاهره
وما أخوك الذى يدنو به نسبٌ … لكن أخوك الذى تصفو ضمائره

ومثل هذه النبرات كثيرة ، لو شئنا أن نسترسل فى عرضها لضاق بنا المجال وللأنا عدة صفحات .

مصرعه ووفاته

رجع أبو فراس من الأسر وهو أوفر نشاطاً وأقوى عزيمة ، وأكثر آمالاً ، وأثبت جناناً منه قبل أسره، رجع ونفسه جياشة بمطامع المجد،ولكن رزانته كانت تمسك به عن الاندفاع فى مجاهل الخطر ، كان يترقب الفرص وما زال حتى توفى ابن عمه سيف الدولة فى عام ٣٥٦ هـ أى بعد رجوعه من الأسر بعام واحد ، فنهض بعد مماته نهضة مليئة بعزيمة الشباب يريد التغلب على حمص وإدخالها تحت حوزته ، وحمص وقتئذ فى يد أبى المعالى بن سيف الدولة ، وما كادت تبدو منه هذه الرغبة التى يتجلى فيها الانتقام لنفسه من نكد الأيام ولأبيه سعيد من ابن عمه ناصر الدولة ، هذه الرغبة التى دفعت به إلى حيث بريق الملك وصولجان الإمارة — حتى أحسها أبو المعالى فأنفذ إليه من أتباعه من قاتله وما زال حتى تغلب عليه وقتله . وقد اختلفت الروايات فى قتله ، فمنها أن أبا المعالى أرسل غلام أبيه « قرعويه » فقتله وضربه ضربات أيمة حتى مات فى الطريق ، ومنها أن أبا فراس قتل فى قرية تعرف « بصدد » وفى تاريخ ثابت بن سنان الصابئ أن حرباً جرت بين أبى فراس وكان مقيما فى حمص وبين أبى المعالى الذى استظهر عليه فقتله فى الحرب وأخذ رأسه وبقيت جثته مطروحة فى البرية إلى أن جاءه بعض الأعراب فكفنه ودفنه . وفى رواية غير التى قدمناها أن « قرعويه » لما قتل أبا فراس لم يعلم به أبو المعالى وأنه لما بلغه الخبر شق عليه. وفى ديوانه الذى اعتمدنا عليه فى كثير من الحوادث أن أبا فراس ضرب فى هذه الحادثة ضربات فمات فى الطريق وأنه أنشد قبل موته الأبيات الآتية :

إذا لم يُعِنْكَ الله فيما تريدهُ فليسَ لمخلوق إليه سبيلُ
وإن هولم ينصرْكَ لم تلق ناصراً وإن عزّ أنصارٌ وجلّ قبيلُ
وإن هولم يرشدك فى كل مسلك ضللت ولو أن السماك دليلُ

وأنشد أيضاً :

أرانى وقومى فرّقتنا مذاهب وإن جمعتنا فى الأصول المناسبُ

وأعظمُ أعداء الرجال ثقاتهــا وأهون من عاديتَه من تحاربُ

والقصيدة لا تزيد على سبعة أبيات ، وهى آخر ما قاله من الشعر فى رواية أبى عبد الله الحسين بن محمد بن خالويه .

ونضيف إلى ما قدمنا رواية لا نذكر أين عثرنا عليها وهى أنه قد أثقل — بعد المعركة — بالجراح وما زال يشكو حتى حضرته الوفاة فى عام ٣٥٧ هـ وأنه كان يخاطب ابنته بهذه الأبيات :

أبنيّتى لا تجــزعى كل الأنام إلى ذهابْ
نوحى عــلىّ بحسرة من خلف ستّرك والحجابْ
قــولى إذا كلمتِنى فعييتُ عن ردّ الجواب :
زين الشباب أبو فــرا س لم يمتّــع بالشبابْ

وإذا كان الشعر هو أصدق خالجة من خوالج النفس فتكون هذه الرواية هى أقرب إلى الحقيقة من كل ما قدمناه . أى أنه رجع إلى بيته بعد صراع طويل قام بينه وبين قرعويه .

وقد وقع نعيه كالصاعقة على صحبه وذويه وعلى أمه العجوز « سخينة » فارتمت مذهولة تبكى شبابه الغض بدموع حرّى وبقلب دامٍ ونفس ملتاعة ، وما زالت فى ثورة من الذهول وفى بحر من الدموع تلطم خدها وتنوح نوح الخنساء على صخر حتى امتدت يدها بدون وعيها — كما رووا — إلى عينها فقلعت !

وهكذا ، قضى أبو فراس وهو لدن العود ، غض الإهاب ، لم يمتع بشبابه الذاوى فكان مصرعه شاقًّا على صحبه وخلانه ، ولم يترك من تراث المجد غير ذكرى البطولة الخالدة التى تزين مفرقه ، وديوان شعر يضم قصائده التى ينشدها محبو الأدب بلذة وإعجاب ، هذه القصائد المختلفة فى الفخر والغزل والاستعطاف وغير ذلك مما جادت به قريحته الوقادة وقلبه الزاخر بحب المجد والحياة .

* * *

. . . لا أقرأ قطعة من شعر أبى فراس إلا ويتمثل أمامى شاب من فرسان العرب الأشداء فيه كل صفات الرجولة والفروسية : شعر فاحم قد انسدلت ضفائره على كتفيه ، ووجه مستدير يفيض بدم الشباب ،وعينان سوداوان يشع منهما النور وينبعث عنهما الذكاء . يتمثل لى فى هذه الصورة الحلوة العذبة وقد تمنطق خنجراً من خناجر الروم وامتطى جواداً من كرام الأصائل ، وبيده رمح يعلو به على الأرض فى سيره وخببه . نعم ، أتمثله بهذه الصورة الجذابة وقد طبعته الصحراء بشمسها اللاذعة ورمالها الغبراء وفتحت أمام ناظريه مناحى المجد والمغامرة فشغف بها وامتلأ قلبه بحب المفاخر وكأنما فطمت نفسه على المكرمات فكانت حياته رخيصة بين كفيه يلاعبها كما يلاعب الطفل كرته فى سبيل عبثه ولهوه .

ألمح هذا من سجوف القرون السحيقة ولا إخالنى إلا صادق النظرة فيما ألمحه ، فحياة أبى فراس مليئة بصفحات الفروسية والمغامرة وهو بهما جدّ فخور . ولعل أحب شيء إلى نفسه وإلى سمعك حين يغنيك نغمة من تلك النغمات التى توحيها إليه معركة من المعارك الدامية — هذه المعارك التى سجّل فيها أكثر هذه الوقائع والتى كانت الحرب فيها سجالاً بين العرب والروم فى هذه الديار وفى نواحيها الشمالية. وهو فياض الشعور حين يصف لك أسره بشعر رقيق يستنزل الدموع الحرّى من مآقيك ويهز منك شعاب القلب لوعة وأسى . وهو عذب إليك ، محبب إلى نفسك حين يرسم لك إباءه فى الحب وحين يخاطب نفسه وقلبه وعفته بقوله :

فيانفس ما لاقيت من لاعج الهوى ... ويا قلب ما جرّتْ عليك النواظرُ
ويا عفتى ما لى وما لك كلّما ... هممتُ بأمر همّ لى منك زاجرُ
كأنّ الحجى والصّون والعقلّ والتقى ... لدىّ ، وربّات الحجال ضرائرُ
وهنّ وإن جانبتُ ما يبتغينه ... حبائبُ عندى منذ كنّ أثائر
وكم ليلةٍ خضت الأسنّة نحوهـــا ... وما هدأت عينٌ ولا نام ساهرُ
فلما خلونا — يعلم الله وحده — ... لقد كرمتْ نجوى وعفّت ضمائر
وبتُّ يظنّ الناس فىّ ظنونهم ... وثوبىَ ممـــا يرجم الناسُ طاهـــرُ

بمثل هذا الشعر الجزل الممزوج برقة المعنى وبفخامة اللفظ يرسم خفقان قلبه ويصور لوعات حبه . وكم له من وقفات صادقة فى تصوير هذا الحب .

وعلى ضوء هذه الصورة التى رسمناها نريد أن نرسم صورة من لهوه وعبثه ، لقد كان أبو فراس يلهو ويعبث . ولكن أى لهو هذا ؟ لقد كانت أجمل ساعات لهوه هى التى يقضيها فى الصيد، ونحسب أن هذه الصورة التى سنعرض إليها والتى تتناول وصف صيده مع صفوة من إخوانه هى من الصور القليلة الجميلة التى تراها فى الشعر العربى . .

* * *

الوقت صحو، والسماء مزدانة بالنجوم، والنسيم يهب فيوقظ الأرواح، وأبو فراس فى قصره مع نفر من صحبه وخلاّنه يتسامرون ويقصّون أعذب القصص وأروع الأحاديث ؛ وكل أصدقائه فى فجر الشباب ، ولكل واحد قصة من أقاصيص المجد والحب والمكرمات ، هذا يقص لك وقائع الماضى وعبر الأيام ، وذاك يروى تنافس القبائل وتطاحنها المريع فى غاراتها الشعواء ، وآخر يهزأ بهذا التنافس الذى يقوم على عصبيات مجزأة ويود لو تتحقق أحلامه بزوال هذا وبوحدة الجزيرة العربية والثغور الإسلامية لتكون حصناً يرد عاديات الأيام ، ويعلو غيره فى تفكيره الفلسفى فيود لو زالت الفوارق المذهبية بين الأمم وأصبح العالم فى « وحدة إنسانية مستقلة » فلا تكون أحلامه إلا مبعث ضحك الحاضرين وهزئهم القوى ، ويضيق آخر بهذه الأحاديث لأن لقلبه قصة يريد أن يبثها إخوانه الخلّص ليحملوا عنه بعض ما يضنى فؤاده ويستنزل دموعه الحرى ، وأبو فراس ينصت إلى الجميع ، وما هى إلا لمحة حتّى يفيض قلبه بأحاديث المجد والمكرمات ؛ وما يكاد صوته العذب يرنّ فى جوانب القصر حتّى ينفذ إلى جوانب القلوب ، يروى لهم مغامراته ويهزأ بمنافسيه . ومن هم منافسوه ؟

« إلى الله أشكو عصبةً من عشيرتى   يسيئوننى فى القول غيباً ومشهداً

. . . هذا جواب لا سبيل إلى الإفاضة به فى هذه الناحية من حياته

وما يكادون يفرغون من أحاديث المجد والحب والشباب حتّى يطيب لأبى فراس — وهم فى هدنة مع الروم — أن يخرج إلى الصيد مع أصحابه . وكيف يخرجون ؟ هل يكتفى كل واحد بنبلة وكلب ؟ لا . . . إنه ينوى رحلة طويلة مضنية ، ولا بد من إعداد كل ما يلزم لهذه الرحلة الطويلة من العدد . إنه لا يكتفى بأن تحمل النبال والغدارات وأن تطلق « السلوقيات » وأن تعتلى ظهور الجياد المطهمة ! لا ، إنه لا يكاد ينتبه من نومه عند السحر حتّى يصرخ بالخدم أن يختاروا له الخيول المطهمة التى لا يشق لها غبار ، وأن يخصص بعضها لصيد الأرانب وبعضها لصيد الغزلان ، وهو يوصى أن ترسل كلاب الصيد على نوبتين : أى أن يكون إرسالها اثنين ثم يختار خمسة أفهد [1] وقسما غير قليل من الصقور ذات المخالب الحادة التى تنقضّ من حالق السماء على الطيور الصغيرة فتوقعها بمناسرها . ولا تكاد تهيأ هذه المعدات حتّى يصيح بأصيحابه هيا استعدوا إلى الطراد ولينفض كل واحد منكم آثار همه ووصبه وينشدهم :

ما العمرُ ما طالتْ به الدهور   العمرُ ما تمّ به السرورُ
أيام عزّى ونفـــاذُ أمرْى   هى التى أحسبها من عمرى

ولا يكادون يمتطون ظهور خيلهم فى يوم جميل رقّ هواؤه حتّى يولوا وجوههم نحو « عينْ باصر » وهو مكان يبعد عن « منبج » مسيرة يوم ويكثر فيه الصيد :

ثم قصدنا صيدَ « عين باصرِ»   مظنّة الصيد لكلّ خـــابر
جئناهُ والشمسُ قبيلَ المغربِ   نختال فى ثوب الأصيل المذْهبِ

إنهم الآن يستعدون للطرد والصيد ، ففى ناحية قريبة منهم يسمعون صياح الدراج [2] إنه يغنى لحن حبه ويشدو أعذب النغمات ، إنه ينعم بحريته وبفضائه

---

(١) الفهد : سبع يصاد به . وهو من هذا النوع المعروف بضيق الخلق وشدة الغضب . له وثبات قوية بعد النوم .

(٢) الدراج : طائر جميل المنظر . ملون الريش وهو يطلق على الذكر والأنثى . والدرجة : طائر باطن جناحيه أسود وظاهرهما على شكل القطا إلا أنه ألطف .

الواسع بدون أن يعلم أن سهام الأجل ترقبه ، وهنا يرق أبو فراس ويصف زقزقة الدراج بقوله :

وأخذ الدرّاج فى الصياحِ مكتنفاً من سائر النواحى
فى غفلة عنا وفى ضلالِ ونحنُ قد زرناه بالآجالِ
يطربُ للصبح وليس يدرى أنّ المنايا فى طلوع الفجرِ

ولكنه لا يريد أن يعرف عنه هذا الحنو فهو يمضى فى سيره ويبعث أحد أتباعه ليرقب ظبياً فى فجوة من الفجوات ،وما يكاد الغلام يلمحه عن بعد حتّى يصيح بسيده الذى يتساءل إن كان العيان قد صدق :

سرت إليه فأرانى جاثمة حسبتها يقظى وكانتْ نائمه
ثم أخذتُ نبلةً كانت معى ودرتُ دورَين ولم أوسّع
حتى تمكنتُ فلم أخطِ الطلبْ لكل حتف سببٌ من السببْ

وهنا تضج الكلاب فى مقاودها وتطلب هذه الصيدة بعد جهد جهيد، ثم يحب أبو فراس أن يداعب مَن معه فيفاخر ببازيه[1] ويعرّض ببازى غيره ويعرض لهم البراز فيقدم إليه أغيد، وسيم الطلعة، صبيح الوجه، فيعرّض به ويود لو فكر فيم يقدم عليه . ثم يقول له هيا قابلنى وراء النهر ، أنت لشطر وأنا لشطر . وهنا تطير دراجة ويرسل الأغيد بازه وتعلوْ العطعطة والضجيج . ولكن علامَ ذلك ؟ . لا شىء إلا لأن من آلة الصيد الصياح ! . . . ثم تطير « سلوى »[2] أمام أبى فراس فتحلّ بها « قبل العلو البلوى » ! وجميل من أبى فراس حين يفاخر ببازيه ويعرّض ببازى الأغيد :

صحت : أهذا البازُ أم دجاجه ؟ ليت جناحيه على درّاجه !

وهنا تحمر الأوجه ويبدو من « الأغيد » اعتذار كله ضعف ودلال

---

(١) الباز : الصقر .
(٢) السلوى : طائر أبيض مثل السمانى واحدته « سلواة » .

وبعض النزق فينسب إخفاقه إلى المكان الذى هم فيه ويود لو رجعوا إلى « منبج » فيخاطب أبا فراس :

اعدِلْ بنا للمنبجِ الخفيفِ والموضع المنفرد المكشوفِ

فيظهر أبو فراس التبرم بهذه الرفقة وبهذا الاعتذار :

نحنُ جميعاً فى مكان واحدِ فلا تعلَّل بالكلام الباردِ

ثم يطلب إليه أن يقص جناحى الباز وأن لا يستصحبه إلى الصيد وأن يفلته فى الدار مع الدباشى [1] ومع القمارى . يقول له هذا فيخجل ويخفق جنانه لهذا الفشل وتصطبغ وجنتاه بحمرة الورد . ولكن أبا فراس يريد أن ينقذ الأغيد من هذا الموقف فما هو السبيل ؟ . . انظر إليه كيف ينقذه ليوقعه فى ورطة أخرى ! . . ويظهر أن ولعه لم يقف عند صيد الطيور بل تعداه إلى صيد « الغيد » ! ها هو ذا يهبه بازياً ليكون عدته فى مثل هذه المواقف ولكيلا يقع فى ورطة ما . ولكن ما ثمن هذه الهبة ؛ تمهل قليلا فسأجيبك بعد أن أريك كيف يصف أبو فراس هذا البازى الذى سيهبه للأغيد، إنه وصف دقيق لم يسبقه شاعر عربى إليه :

جئت ببازٍ حسن وهرجِ دون العقاب وفويق الرمجِ [2]
زين لرائيه وفوق الزينِ ينظر من نارينِ فى غارَيْنِ
كأنّ فوق صدره والهادى آثار متنِ الدار فى الرمادِ
ذى منسر فخمٍ وعينٍ غائره وأفخذٍ مثل الجبال وافرهْ
خضم قريب الدستبان جداً يلقى الذى يحمل منه كدّاً

قل لى أى قارئى الكريم لو كنت ولعاً بالصيد ووقعت فى ورطة كهذه التى عرضنا إليها وقدم لك هذا البازى ليكون عدتك فى الصيد ولينقذك من ورطات

(١) الدباشى : الدبشى . طائر أدكش يقرقر .
(٢) الرامج : جنس من الطيور تصاد به الجوارح كالصقور ونحوها .

الحجل إزاء أمير عربى كريم فكم تدفع ثمنه ؟ أديناراً . . أعشرة ! أمائة ! لا . إن أبا فراس يريد أن يهب هذا البازى إلى « أغيده » . . . بقبلة فقط !

قلتُ فخذْهُ هبـــةً بقبْله فصدَّ عـــنى فعدته خجله
فلم أزل أمسحهُ حتى انبسطْ وهشَّ للصيد قليلاً ونشطْ

وأحب منك أيها القارئ أن تتمعن بشطر البيت الثانى — فلم أزل أمسحه حتى انبسط — . . ففيه كل المعانى التى تفسر لك هذه المغامرة التى أقدم عليها أبو فراس ! . .

* * *

. . . ويستأنفون الصيد مرة ثانية ، فى جهة غير الجهة التى أخفق فيها الأغيد فى « نهر الوادى » حيث الطيور كثيرة بعدد الجراد . . ويحدثنا هنا كيف أطلق شاهينين [1] وكيف رميا أربعة طيور : « ثلاثة خضراً وواحداً أبقعاً » [2] وكيف ذبحوا هذه الطيور ليأكلوها هنيئاً ويشربوا عليها مريئاً ، ثم يحدثنا كيف أطلقوا شاهينين مرة أخرى فرموا أربعة طيور كالمرة الأولى إلا أنها أكبر منها بعض الشىء . يحدثنا عن هذا بشعر سهل رقيق يسيل عذوبة ويفيض بالجزالة ودقة الوصف البديع . ثم ينتقل بنا إلى صيد الكراكى [3] الجاثمة بقرب النهر وكيف صاد منها عشرة أو أكثر من عشرة فيحدثنا أيضاً كيف أطلق بازيه فى هذا الصيد وكيف صاح بالطباخ لينزل النهر ويأتيه بما تساقط على ضفتيه . ويأتى الطباخ حاملاً الكراكى والحجل والدراج ، ويود هنا لو نزل قليلا ليستريح ولكنه بعد تفكير قليل رأى أنه لم يرو أوار ظمئه من الصيد وأن صيد الطيور أقل مما يشبع عبثه ولهوه ، وأنه لا بد من أن يتحول من ضفاف الأنهر ومن قلب الحدائق إلى الصحراء ، فيصيح بصحبه أن هيا نلتمس الوحوش والظباء فى الصحراء . وما تكاد صيحته

---

(١) الشاهين : طائر من جنس الصقر .

(٢) طير أبقع : مختلف اللون .

(٣) الكركى : طائر يقرب من الوز ، أبتر الذنب رمادى اللون وفى خده لمعات سود ، قليل اللحم ، صلب العظم ، يأوى الماء أحياناً . جمعه : كراكى .

تلمس أعماق القلوب حتّى أطلقوا العنان لخيولهم تنهب الأرض نهباً . وما هي إلا برهة حتّى طوَوْا الفيافي والقفار إلى جزع واد قد سقّى أرضه الوسمي فاخضلت وازدهرت بشتّى الحشائش والنبات ، واد موحش لم تطرقه رجل الإنسان فهو مرعى خصب للغزلان الشاردة التي كانت ترعى فيه مذعورات ! . وهنا يصف لنا كيف أطلق الصقور والفهود وكيف أن أحد فهوده قد جدل « الكبير الأقرنا » وكيف شد على مبطنه ، وكيف أن فهداً آخر قد جدل « عنزاً حائلا » قد رعى حمى الغورين مدة حول كامل ! يحدثنا عن هذا فيرينا كيف رمى الباقي بالصقور . ولا تقرأ وصف هذه المعركة إلا وتحس كأنما تشاهد معركة دامية . ويقف عند هذا الحد موفور الغضب فيريد أن ينتهي من رحلته الطويلة التي دامت سبع ليال كاملة وكيف ينهيها قبل أن يصعد الجبال الوعرة الشاهقة ليرى ما في أوكارها ومخابئها من صيد لذيذ ، وقد يكون من الطريف أن ننصت له لنريك كيف ينهي هذه الرحلة اللذيذة التي لم نقرأها مرة إلا وددنا لو تأخر بنا الزمن ألف سنة فقط لنشهد بعض سمره وبعض هذه الرحلات الممتعة ! . .

ثمّ عدلنا عدلةً إلى الجبَلْ ... إلى الأراوي (١) والكباش والحجَلْ
فلم نزلْ بالخيلِ والكلابِ ... نحوزها حوزاً إلى الغيابِ
ثمّ انصرفنا والبغال موقَرهْ ... في ليلةٍ مثل الصباح مسفرهْ
حتّى أتينا رحلنا بليلِ ... وقد سبقنا بجياد الخيلِ
ثم نزلنا وطرحنا الصّيدَا ... حتّى عددنا مئةً وزيدَا
فلم نزلْ نلقي ونشوي ونصبْ ... حتّى طلبتُ صاحباً فلم أصِبْ
شرباً كما عنّ من الزّقاقِ ... بغير ترتيبٍ وغير ساقِ
فلم نزلْ سبع ليال عدّدا ... أسعد من راح وأحظى من غدَا

وهنا تمّ الرحلة .

* * *

---

(١) الأراوي : الوعول .

وأحسب أن لا حاجة إلى أن نزيد شيئاً على هذه الأرجوزة الخالدة التى جادت بها قريحة أبى فراس فى سويعات هدوئه ومرحه . والتى عرضنا بعض مقطوعاتها ، فهى من فرائد الأراجيز البليغة التى تصف رحلة صيد بهذه الروعة ، والتى يستطيع القارئ أن يلمس فيها « الوحدة » التى نتطلبها فى الشعر العربى فلا نجدها إلا لماماً . وقد يكون سبب ذلك أنها خرجت من قيد « القصيدة » ذات البحر الواحد والقوافى الواحدة إلى الأرجوزة التى لا تخضع لهذه القيود .

الفارابى

ممن ضمهم بلاط سيف الدولة ، إلى ما ضمه من العلماء والأدباء والشعراء والفنانين — الحكيم أبو النصر الفارابى الذى يتفق المؤرخون على اعتباره من أكابر فلاسفة المسلمين [1] وفيلسوف الإسلام غير مدافع [2] أو على رأى المستشرق ديتريسى الذى يقول إن الفارابى مؤسس الفلسفة العربية [3] .

ولد سنة مائتين وتسعة وخمسين (٢٥٩ هـ)[4] فى وسيج[5] ونسب إلى ولاية فاراب[6] الواقعة وراء نهر سيحون على تخوم بلاد الترك ، ولا يعرف شىء عن طفولته وشبابه ، إنما يقول المؤرخون إنه خرج من بلده وانتقلت به الأسفار حتى وصل إلى بغداد . وكان يتكلم التركية والفارسية ، وفى رواية ،كان يتكلم عدة لغات أخرى عدا العربية التى تعلمها فى بغداد ، وتتلمذ على المعلم المسيحى يوحنا بن حيلان . فأخذ عنه المنطق والرياضيات . . وكان زميله فى الدراسة متى بن يونس النصرانى المشهور بترجمته للكتب اليونانية .. وفى رواية أن الفارابى تتلمذ عليه أيضاً [7] . .

وقد تفتحت مواهب الفارابى وهو شاب فتعلق بالعلوم الفلسفية وامتزج امتزاجاً

---

(١) ابن خلكان يقول إنه أكبر فلاسفة المسلمين ، ولم يكن بينهم من بلغ رتبته فى فنونه ، والرئيس ابن سينا ، بكتبه تخرج وبكلامه انتفع فى تصانيفه .

(٢) القفطى ص ١٨٢ .

(٣) المستشرق الألمانى ديتريسى فى مقدمته لرسائل الفارابى (طبع ليون ١٨٩٠ م ص ٣) .

(٤) يقول الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق فى بحث نشره عن الفارابى فى مجلة المجمع العلمى العربى المجلد ١٢ ص ٣٨٥ عن مولده أيضاً : ولسنا نعرف مولد الفارابى إلا بالتقريب استنتاجاً مما ذكره المؤرخون فى وفاته فقد ذكر ابن خلكان أنه توفى سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠ — ٩٥١) وقد ناهز ثمانين سنة ويكون إذاً مولده حول سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ — ٨٧٣ م) .

(٥) ويقول ابن حوقل إن على الشاطئ الغربى من سرداريا كانت توجد مدينة « وسيج » التى ولد بها الفيلسوف أبو النصر الفارابى والمستشرقون يستمدون هذا القول . راجع بحث الأستاذ عبد الرازق فى المصدر المتقدم ذكره .

(٦) معجم البلدان ج ٦ ص ٣٢٣ .

(٧) الشيخ مصطفى عبد الرازق مجلة المجمع العلمى العربى المجلد ١٢ ج ٨٥٧ ص ٣٨٧ .

كلياً بفلاسفة اليونانيين ، بأرسطو وأفلاطون ، وما زال فى معالجته المواضيع الفلسفية حتى اعتبر إماماً فى مباحث ما بعد الطبيعة أو إمام أصحاب المنطق الذين يسلكون فى أبحاثهم منهجاً أكثر دقة وصرامة من مناهج المتكلمين (١) .

كتب عدة رسائل فلسفية قيمة ، وقد بلغت من العظم حداً جعل المستشرق الألمانى شتينشنيدر يخصص لها مجلداً ضخماً (٢) ومع أن أكثر هذه المصنفات الثمينة قد ضاع فقد بقى منها إلى يومنا هذا أربعون رسالة : إحدى وثلاثون بالعربية وست بالعبرية واثنتان باللاتينية (٣) وقد اشتملت رسائله مختلف المباحث الفكرية و « كتابه إحصاء العلوم » يدلنا على مدى ثقافته الواسعة وإحاطته العجيبة فى مختلف علوم ومعارف جيله ، ومن أشهر كتبه « الجمع بين رأبى الحكيمين : «أفلاطون وأرسطو » و « المدينة الفاضلة » و « إحصاء العلوم » و « شرح كتاب أرسطو فى علم الأخلاق » و « شرح مقالة النفس للإسكندر الأفروديسى » و « العقل والمعقول » و « الواحد والواحدة » و « الجوهر والزمان » و « الخلاء والمكان » و « فصوص الحكم » و « صناعة علم الموسيقى » . . ويعتبر كتابه « المدينة الفاضلة » من أنفس ما كتبه عالم فيلسوف ، فهو تصوير دقيق لآرائه الفلسفية فى الله والكون ، فى النفس والحياة ، فى العالم السماوى والفردوس الأرضى ، وبعبارة أدق « هو مجموع فلسفى مختصر ، يجد فيه المطالع كل ما يحتاج إليه من نظريات الفيض والنفس والإرادة والاختيار والسعادة والوحى » (٤) .

ولا يتسع المجال لتلخيص هذا الكتاب « الذى يشرح لنا فيه تصوره للنظام الذى ينبغى أن تقوم عليه « المدينة الفاضلة » التى يكون الحكم فيها للفلاسفة كما هو الشأن فى « جمهورية أفلاطون (٥) » والذى تراءت له « السعادة ممكنة على

---

(١) ت . ج . دى بور الأستاذ بجامعة أمستردام فى كتابة « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » نقله إلى العربية الأستاذ محمد أبو ريدة ص ١٢٨ .

(٢) إحصاء العلوم لناشره عثمان محمد أمين ص ٢٠ .

(٣) تاريخ الأدب العربى تأليف المستشرق الألمانى الكبير بروكلمان ج ١ ص ١١٠ — ٢١٣

(٤) من أفلاطون إلى ابن سينا للدكتور جميل صليبا ص ٤١ .

(٥) كارا دى فو فى دائرة المعارف الإسلامية — مادة الفارابى .

وجه الأرض ، إذا تعاون أفراد المجتمع على نيلها بأعمالهم الفاضلة [١] » ، ولا لتلخيص مذهبه الفلسفي المنبث في جميع تصانيفه وهو مذهب الأفلاطونية الحديثة مطبوعاً بالطابع الإسلامي — ذلك المذهب الذي بدأ بترتيبه فيلسوف العرب الكندي والذي أكمله الرئيس ابن سينا [٢] — نعم ، لا يتسع المجال لكل ذلك فلندخل من هذا الإلماع السريع عن حياته الفلسفية إلى مناسباته مع سيف الدولة .

* * *

ترك الفارابي بغداد إلى حلب حين شاهد تقلص ملك العباسيين وازدهار دولة الحمدانيين ، وقد لا نعلم بالضبط ، ما هي الحوافز التي حفزت الفارابي لهجرة بغداد . . أهي اضطراب الحالة السياسية فيها كما ذهب إليه بعض الذين عرضوا لتاريخ حياته ؟ أم هي نزعة التجوال في بلاد الله ؟ أم درس طباع البشر في مختلف المدن ليزداد خبرة في شرح مبادئه الفلسفية التي دوّنها في كتابه « المدينة الفاضلة » ولا سيما أن كتابه هذا قد بدأ بتأليفه في بغداد ، وكتب قسما منه في دمشق ، وأتمه في مصر ؟ وبدون أن نفترض افتراضات مجردة نتساءل : أتراه كان يبحث عن المدينة الملائمة ليطبق عليها آراءه الفلسفية فاختار مدينة حلب ؟ لا أميل إلى هذا الافتراض ، ولكن حوادث التاريخ تنبئنا ، أن ازدهار الحركة العقلية في عاصمة الحمدانيين ، أيام سيف الدولة ، كانت من العوامل التي حفزته ليحط رحاله في ربوعها ، وينعم بطيب هوائها . وجمال أرضها وربوعها .

دخل الفارابي مدينة حلب ، في أطمار الفلاسفة الزاهدين ، لا يعتز إلا بما

---

(١) الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٨٧ مصر ١٣٢٣ هـ ويقول الدكتور جميل صليبا في كتابه من أفلاطون إلى ابن سينا ص ٤٥ ، إن كل مدينة يمكن أن تنال بها السعادة ، ولكن أكمل اجتماع إنساني ، كما يرى الفارابي ، هو الاجتماع الذي يشمل جميع أمم الأرض ، وأحسن دولة . تنال بها السعادة هي الدولة الكبرى ، ففيلسوفنا الكبير تنبأ ، منذ ألف عام ، باجتماع الأمم كلها ، واتصالها بعضها ببعض واتحادها ، فكأنه رجل من رجال القرن العشرين ، يؤمن بالسلام ويثق برسالة جامعة الأمم .

(٢) راجع مقال كارا دي فو في دائرة المعارف الإسلامية ، مادة — الفارابي .

فى صدره من علم ومعرفة ، وما فى قلبه من آراء وخيالات ، وما فى ضميره من هواجس وأحلام .

دخل عاصمة الحمدانيين غريباً لا يعرفه أحد ، أو لم يشأ أن يعلن عن نفسه فما كاد يستقر قليلاً ، وينفض عنه غبار السفر حتى قصد توًّا بلاط الأمير . . وكان يغصّ كعادته بالأدباء والعلماء . . فدخله غير مرتاع ولا وجل . . وخلافاً لنزعة التواضع التى امتاز بها العلماء فقد قعد إلى حيث مجلس سيف الدولة ، وأثار هذا الفضول كل من فى مجلس الأمير فتساءلوا منْ يكون هذا الوقح ؟ وكأن الفارابى أراد بهذه الطريقة أن يفهمهم من هو ؟ وما مكانته ؟ وأن ما فى صدره من علم وفلسفة ، وما يتميز به من أدب ومعرفة يجب أن يكون مقره الصدر لا الأعتاب ! . .

أخذ الأدباء والشعراء يتهامسون ، وكأنهم شعروا بوطأة هذا الدخيل على مجلسهم أو وطأة هذا المتطفل الذى يريد أن يقاسمهم عطايا الأمير . . قالوا : أتراه مجنوناً أم شاعراً ؟ أيكون مخبولاً أم مشعوذاً ؟ ولم يمهلهم الفارابى ، فسرعان ما كشف عن نفسه مبدداً حيرتهم .

قال ابن خلكان يصف قصة دخوله بلاط الأمير :

. . . لما قدم الفارابى على سيف الدولة وجده فى مجلسه مع العلماء ، فزاحمه على مجلسه ، فهدده سيف الدولة ثم عفا عنه ، فأخذ الفارابى يتكلم مع العلماء الحاضرين فى المجلس فى كل فن ، فلم يزل كلامه يعلو ، وكلامهم يسفل حتى صمت الكل ، وبقى يتكلم وحده ، ثم أخذوا يكتبون ما يقوله ، فصرفهم سيف الدولة وخلا به[1] .

لقد كانت أحاديثه الطلية وسعة معلوماته ، ثم قدرته على مناظرة من ضمه بلاط سيف الدولة — من الظواهر التى جعلت الأمير يوليه كل عطف، وما كان لسيف الدولة أن تغيب عنه مزايا هذا الرجل . . فسرعان ما أنزله من مجلسه أرفع

---

(١) ابن خلكان ص ١٠٠ .

مكان ، ومن نفسه أسمى منزلة . . كان يخلو به ويتحدث إليه فى فلسفة الحياة طويلا . ولا نعلم ماذا كان رأى الفارابى فى غزوات الأمير وحروبه ؟ هل كان يقرها أم كان ينكرها ؟ هل كان يريد أن تقف المطامع الإنسانية عند حد ، وأن تعيش البشرية فى جو من الطمأنينة والسلام بدلاً من الخصومات والقتال ؟ لا شك أن الفارابى كان يصدر فى آرائه عن فلسفة إنسانية سامية . ولا شك أن الأمير الحمدانى كان يجادله جداله العنيف فى آرائه ، كان يناقشه فى فكرة الدولة التى عرض إليها الفارابى فى كتابه « المدينة الفاضلة » . . وليس فى كتب الأدب ولا فى كتب التاريخ نصوص تكشف عن مثل هذه المناقشات الطريفة بين الفيلسوف والأمير ولكن مما لا ريب فيه أن حب سيف الدولة للفارابى كان يفوق حبه جميع من ضمهم مجلسه من الشعراء والأدباء والعلماء والفنانين . إن الفارابى لم يمدح سيف الدولة ، ومع رغبة الأمير فى سماع الأماديح من أفواه الشعراء فقد كان ميله إلى سماع آيات الحكمة أقوى . . وهذا يدلنا على ثقافة الأمير وواسع معارفه . . لقد اتخذه صديقاً يأنس إليه فى مدلهمّ الأحداث ، ويخلو إليه فى سويعات الراحة والاستجمام . . وودّ أن يجرى عليه النعم الكثيرة من بيت المال ولكن الفارابى الذى عاش حياته فى « عالم العقل ابتغاء الخلود » [1] قد اقتصر على أربعة دراهم فى اليوم ، لأنه كان يعيش عيشة زاهدة ، بعيداً عن زخارف الدنيا وأضاليل الحياة . . لا يُرى « إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض » يكتب فى الفلسفة وفى المنطق ، ويتأمل أسرار الطبيعة التى أبدعها الخالق الحكيم .

وقد عبر عن فلسفته فى الحياة بقوله :

بزجاجتين قطعتُ عمرى ... وعليهما عوّلت أمرى
فزجاجة ملئتْ بحبر ... وزجاجة ملئت بخمر
فبذى أدوّن حكمتى ... وبذى أزيل هموم صدرى

لقد رافقت سيرة الفارابى — وهو فى بلاط سيف الدولة — الكثير من القصص

(١) الأستاذ ت . ج دى بور فى كتابه تاريخ الفلسفة فى الإسلام النسخة العربية ص ١٥٤ .

وهى على غرابتها تدل على علو مكانته وعلى فرط شذوذه معاً ، ويروى المؤرخون القصة التالية كلون من ألوان شذوذه . . فى مقابلته الأولى لسيف الدولة — تلك المقابلة الغريبة التى تلقاها الأمير وجميع من ضمهم مجلسه بالوجوم والاستغراب والتى انتهت بالترحاب وتقدير مكانته . سأله الأمير : هل لك أن تأكل . قال : لا . . فسأله : هل تشرب ؟ قال : لا . . فقال : هل تسمع ؟ قال نعم .. فأمر سيف الدولة بإحضار القيان . . فحضر كل ماهر فى هذه الصناعة عليم بأنواع الملاهى . . فلم يحرك أحد منهم آلته إلا وعابه أبو النصر وقال له : أخطأت . فقال له سيف الدولة : وهل تحسن فى هذه الصناعة شيئاً ؟ فقال : نعم ، ثم أخرج من وسطه خريطة ، ففتحها وأخرج منها عيداناً ، وركبها ثم لعب بها ، فضحك منها كل من كان فى المجلس ، ثم فكها وركبها تركيباً آخر . . ثم ضرب بها فبكى كل من كان فى المجلس . . ثم فكها وغير تركيبها . . وضرب ضرباً آخر فنام كل من فى المجلس حتى البواب فتركهم نياماً وخرج . . وهذه القصة مخترعة بدون شك ، وأكثر من عرض إلى حياة الفارابى يجعل هذه القصة وقصة معرفته سبعين لغة من الأساطير . . وإذا أنكرنا نحن هذه القصة على ضوء التحقيق التاريخى كما أنكرها الكثيرون فإننا لا نستطيع أن ننكر هيكلها . . فقد كان عالماً فى فن الموسيقى ، وكان موسيقاراً بارعاً ، ويعزى إليه اختراع القانون أو اختراع آلةموسيقية شبيهة بها .. وله فى الموسيقى أكثر من مؤلف واحد وتحتفظ دار الكتب المصرية بنسخة مخطوطة لمؤلفه « صناعة علم الموسيقى » [1] وهى نسخة غير كاملة وقد جمع المستشرق ديرلانجه جميع رسائله فى فن الموسيقى من مختلف مكاتب الشرق والغرب : من الأسكوريال ومن ميلانو ومن لندن ومن بيروت[2] وضمها فى كتاب ضخم بلغت صفحاته السبعمائة ويحتفظ الموسيقار الحلبى الشيخ على درويش بنسخة من هذا المخطوط النفيس الذى يقول عنه إنه المرجع الوحيد

---

(١) مخطوطات دار الكتب المصرية تحت رقم ٥١٢ فنون جميلة .

(٢) ترجع مخطوطة جامعة ليدن إلى سنة ٩٤٣ هـ ومخطوطة مكتبة ميلانو إلى سنة ٧٤٨ هـ أما مخطوطة الأسكوريال فهى بدون تاريخ وكذلك مخطوطة بيروت فهى بدون تاريخ وغير كاملة .

لمعرفة أصول الموسيقى العربية القديمة ، وقد أعلمنى أن نسخة مصر قد احتوت على المدخل فقط فى حين أن نسخة ديرلانجه تحتوى على ستة كتب :

الأول	: فى المدخل	الثانى	: فى صناعة الموسيقى
الثالث	: فى العود	الرابع	: فى الطنبور البغدادى والخراسانى
الخامس	: فى الناى	السادس	: فى الإيقاع

وقيمة هذه النسخة أن أصولها منقول من نفس النسخة التى خطها الفارابى بيده — وهى النسخة التى جمعها ديرلانجه من مختلف مكاتب الشرق والغرب ومكث اثنتين وعشرين سنة فى تونس الخضراء يضبط أصول الموسيقى العربية القديمة على الشيخ على الدرويش الحلبى [1] الذى استدعاه إلى تونس على حسابه وظل يعمل معه أربع سنوات كاملة ، ومن المؤسف أن يترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية وأن تظل نسخته العربية مخطوطة دون طبع .

وليس علينا بعد أن عرفنا قدرة الفارابى فى فن الموسيقى وفى نسبة اختراعه تلك الآلة الموسيقية التى كان يوقع عليها فتحدث فى النفس انفعالاً يضحك السامع ويبكيه — ليس علينا إذا أخذنا بهيكل القصة وطرحنا شكلها بعد أن عرفنا أن الفارابى هو الفيلسوف المسلم الوحيد الذى كتب فى الموسيقى العربية كتاباً علمياً نفيساً حفز أحد كبار المستشرقين بعد ألف سنة — أن يشتغل به ربع قرن ثم يذيع ترجمته فى اللغة الفرنسية .

لقد مجد سيف الدولة فى الفارابى شخصيته الفلسفية وشخصيته العلمية معاً ، كما مجد الفارابى فى سيف الدولة صفاته الفذة كأمير شجاع جمع إلى صفات البطولة صفات السلطان الذى يفنى ذاتيته فى سعادة قومه . . ولا نعلم إذا كان

---

(١) جمع الشيخ على الدرويش الموسيقار الحلبى جميع الموشحات العربية المستعملة الآن وقديماً فى مصر وسورية والعراق والمغرب ودونها على النوطه وأشرف المستشرق بارون ديرلانجه على تدوينها وهى فى أربعة مجلدات ضخمة بلغ عددها ١٥٠٠ موشح وهى أصول الموسيقى العربية التى كادت تنقرض لولا وجود هذا الموسيقار الحلبى . . وقد ضبطت مع إيقاعتها وساعده المرحوم أحمد شوقى وأحمد رامى بتصحيح الكلام إلى اللغة الفصحى .

الفارابي الفيلسوف رأى فى الأمير الحمدانى هذه الصفات التى حددها للملك الفاضل ! ولا نعلم إذا كان التمس من هذا الحشد الأدبى الذى ضمه بلاط سيف الدولة — وسيلة لقلب نظام الحكم وتطبيق آرائه الفلسفية فى حلب كما فكر أفلاطون فى تطبيق مبادئه الجمهورية فى أتينة وإسبارطه ، ولكن الشىء الواضح أن الفارابي أنس بلقيا سيف الدولة كما أنس الأمير بلقيا الفيلسوف الذى لم تمنعه شيخوخته ، وهو فى الثمانين من عمره ، أن يصحبه فى إحدى غزواته إلى دمشق ، وكأنما هذا السفر الطويل قد أنهك قوى الشيخ الجليل ، فلم يكد يصل إلى دمشق حتى وافته منيته ، فحزن عليه الأمير الحمدانى حزناً عميقاً ، وصلّى عليه فى نفر من خاصته ، ورجع وهو يذكر خلو بلاطه من أكبر فيلسوف إسلامى ، ويذكر مصاب العلم والمنطق بفقد الرجل الذى استطاع أن يرتفع بمواهبه الفذة إلى مصاف الخالدين من مفكرى العالم .

ابن نباتة الخطيب

« الخطابة ضرب من الكلام يراد به التأثير فى الجمهور من طريق السمع والبصر معا ، وهى فطرية فى الإنسان كالغناء والنطق ، ولهذا تجد آثارها عند الأقدمين فى كتب الهند المقدسة وكتب مصر وفارس والصين . ولا ريب أن الأعمال العظيمة التى خطت على جبين الدهر من بطولة وكرم ومجد كان الدافع إليها خطب الأفراد الذين امتازوا بسرعة الخاطر وقوة العارضة وجرأة الفكر وذلاقة اللسان ، فمن أبطال أوميروس إلى الإسكندر وقيصر ، إلى بطرس الناسك وتوما الإكوينى ، إلى لوثر وكلفن ، إلى ميرابو ودانتون وروبسبير ، إلى دزرائيلى وغلادستون وتيارس وغامبتا ، إلى جوريس بالأمس وموسولينى اليوم لا تزال البلاغة أداة الإقناع والعامل الأكبر فى إنهاض الهمم وتنبيه العزائم وإذكاء الشعور. بها آثار سولون حماسة الأثينيين فخاضوا غمرات الموت لاسترجاع « سلامين » ، وبها كان شيشرون يقود الشعب الرومانى المعلق بشفتيه من دار القضاء إلى السوق ومن السوق إلى دار القضاء . وبها أسكت أبو بكر أهل المدينة وأخمد هياجهم بعد موت النبى ، وبها اندلعت نيران الثورة الفرنسية فغيرت شكل الاجتماع ، ولولاها لما سحرت الأديان عقول البشر ولا كان لها أبطال وشهداء فى بدو ولا حضر[1] » .

هذا هو تأثير الخطابة فى الثورات والانقلابات ، وفى الحروب والغزوات ، وبدهى أن لا يهمل سيف الدولة هذا العامل الكبير فى حروبه مع البيزنطيين وفى إثارة الجمهور وتسييره فى الاتجاه الذى خطه لإنقاذ الوطن من أخطر حرب بيزنطية ، لقد كان بلاطه يغصّ بالشعراء والأدباء والخطباء ، فمن هو الخطيب الذلق اللسان الذى استطاع أن يقوم بهذه المهمة وأن ينال إعجاب سيف الدولة الخبير بأسرار البلاغة وأفانين الكلام ؟ لقد حظى بهذا الشرف الرفيع ابن نباتة الخطيب . . .

---

(١) الخطابة للدكتور نقولا فياض ص ٥ .

وكما كان المتنبى شاعر سيف الدولة كان ابن نباتة خطيبه المصقع الذى أثار حماسة الناس فى سبيل الجهاد وإعلاء كلمة الله والوطن ، وابن نباتة هذا هو غير ابن نباتة الشاعر المصرى وصاحب الديوان الموسوم باسمه ، لأن الذين اشتهروا بابن نباتة ثلاثة :

الأول : ابن نباتة الخطيب وهو هذا الذى نلم بسيرته .

والثانى : محمد بن محمد بن محمد نباتة المصرى الشاعر المتوفى سة ٧٦٨ هـ وصاحب كتاب « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » .

والثالث : هو عبد العزيز ابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ والذى عاصر سيف الدولة ومدحه بعدة قصائد .

والذى يعنينا الآن ابن نباتة الخطيب فمن هو؟

يقول ابن خلكان : «كان إماماً فى علوم الأدب ورزق السعادة فى خطبه التى وقع الإجماع على أنه ما عمل مثلها ، وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته ، وهو من أهل « ميافارقين » ، وكان خطيب حلب وبها اجتمع بأبى الطيب المتنبى فى خدمة سيف الدولة ابن حمدان . وقالوا إنه سمع عليه بعض ديوانه ، وكان سيف الدولة كثير الغزوات فلهذا أكثر من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ويحثهم على نصرة سيف الدولة .

ولد ابن نباتة الخطيب ، على ما رواه ابن الأزرق الفاروقى فى تاريخه ، سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وتوفى سنة أربع وسبعين وثلاثمائة بميافارقين ودفن فيها ، أى أنه مات وهو فى اكتمال شبابه . ويقول ابن خلكان أيضاً إنه أنشأ بعض الخطب وهو ابن ست عشرة سنة وهى الخطب التى خطب بها سنة ٣٥١ هـ أى فى السنة التى اشتد فيها القتال بين سيف الدولة ونيسفور فوكاس القائد البيزنطى الكبير .

وقد ترك ابن نباتة مجموعة ضخمة من الخطب فى شتى الأغراض ، أغلبها فى شئون دينية بحتة حتى خطب الجهاد ، فهى ذات لون من الحماسة الدينية ،

وكان فى موضوعه سيد من كتب وأبلغ من خطب ، حتى احتذى طريقته كثيرون وأخذ عنه غير واحد من كبار الأدباء والشعراء كالشريف الرضى وأخيه المرتضى ، وحظى ديوانه — أى ديوان خطبه — بعدة شروح لكثير من أئمة الأدب كالعكبرى وعبد اللطيف البغدادى والشيخ طاهر الجزائرى وغيرهم من فحول الأدباء والكتاب .

هذا موجز سيرة ابن الخطيب ، والذى يهمنا منها خطب الجهاد التى كان يرسلها صوتاً مدوياً من الأعماق ، ولا شك أن وقعها كان ذا تأثير مباشر فى نفوس مستمعيها فقد كان البيزنطيون على أبواب حلب ، وسيف الدولة لا تغمض له عين ، وهو مهيأ كل يوم لجهاد جديد ، وكان طبيعياً أن يتأثر ابن نباتة الخطيب بهذا الموقف الحاسم الذى وقفه سيف الدولة وأن تنعكس هذه الأصداء فى خطبه ، ويضيق بنا المجال لو أردنا أن نلم بكل خطب الجهاد التى ألقاها فحسبنا أن نشير إلى بعضها أو إلى فقرات منها لنعطى القارئ صورة من الحماسة التى كان يضطرم بها قلب ابن نباتة الخطيب وهى لا تقل عن حماسة المتنبى حين كان يصف معارك أميره الحمدانى .

قال ابن نباتة الخطيب فى إحدى خطبه :

أيها الناس :

والله ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا
ولا قعدوا عن صون ذمارهم إلا اضمحلوا

وهو إذ يثير الناس ويدعوهم إلى الجهاد يريدهم أن يغالبوا أهواءهم أولاً فيصيح بهم أن « قدموا مجاهدة القلوب قبل مشاهدة الحروب ، ومغالبة الأهواء قبل محاربة الأعداء » .

أى يريد خطيب سيف الدولة أن يذهب الجندى إلى ساحات القتال وقد اطرح من ذهنه لوثات الحياة وأعباءها ونذر نفسه لأنبل غاية وأمجد مكرمة ،

وتغلّب على النزوات التى تحول دون استشهاده وهو يرسم للمجاهد خطة السير أو طريق المجد والفخار فمن اجتازه بصبر وإيمان فتح أمامه باب الجنة الموصد ونقش اسمه فى لوحة الشهداء » :

أيها المؤمنون :

« إن للجنة باباً حدوده تطهير الأعمال ، وتشييده إنفاق الأموال، وساحته زحف الرجال إلى الرجال ، وطريقه غمغمة الأبطال ، ومفتاحه الثبات فى معترك القتال ، ومدخله من مشرعة الصوارم والنبال » ، وهكذا، يضرب على هذه النغمة التى تهز النفوس هزًّا عنيفاً وتدنيها من مثاليتها العليا ، وهو إذ يثير العاطفة الدينية لا يهمل العاطفة الوطنية وله فى هذه الميادين آيات دونها هذه الآيات التى يرسلها القادة والزعماء الوطنيون فى هذا العصر الذى يتميز بالروح القومية والنزعة الوطنية ، فى موقف من مواقف الحماسة يخاطب الجماهير بقوله :

« كم تسمعون الذكر فلا تعون ، وإلى كم تُقرعون بالزجر فلا تقلعون ، كأن أسماعكم تمجّ ودائع الوعظ ، وعدوكم يعمل فى دياركم عمله ، ويبلغ بتخلفكم عن جهاده أمله ، صرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه ، وندبكم الرحمن إلى حقه فخالفتموه، وهذه البهائم تناضل عن ذمارها ، وهذه الطير تموت حمية دون أوكارها » .

ثم يحرضهم على القتال بشجاعة لأن الحياة ألعوبة، والخوف لا يدفع عن الإنسان الموت ، فلماذا الهلع والجزع ؟ وعلام التراجع والاضطراب ؟ وكيف يتوانى الإنسان عن الجهاد طلباً لطول التعمير وهرباً من الموت المقدور، فيصرخ فيهم :

الجهاد الجهاد أيها الموقنون
والظفر الظفر أيها الصابرون
والجنة الجنة أيها الراغبون
والنار النار أيها الهاربون

ثم يحذرهم من الخوف مهما بلغ جيش العدو من القوة فيقول :

« لا يهولنكم عدو الله ولو طبقت الغبراء جنوده وشرقت الفضاء بنوده » .

بهذا الأسلوب الحماسى كان يثير شعور الجمهور ويلهب عاطفته وحينما دوى فى المدينة نبأ الزحفة الكبرى التى أعدها القائد البيزنطى واضطراب الناس عام ٣٥١ هـ ألقى خطبة صبّ فيها كل بلاغته ووصف هول القتال أبلغ وصف ومن يمعن بها يحسب أن كلماتها قدت من نيران المعارك وصيغت من لظى الحرب ولهيبها المندلع ، ولا شك أن تأثيرها كان جدّ قوى فى وعى الجمهور الذى خيّل إليه أنه فى قلب المعركة لا أمام خطيب يزجى الكلام المسجع أو شاعر يرسل الكلام المقفّى وإلى القارئ نبذة من هذه الخطبة التى تدل على براعة ابن نباتة اللغوية وعلى تدفق شعوره فى تصوير رغبات سيف الدولة فى إيقاد نيران المعارك الحامية فى وجه البيزنطيين .

« عباد الله :

. . . استشعروا الثبات فى مختطف الأرواح عند هيقعة الصوارم وشفشفة اللهازم [١] وهينمة الغماغم وزمزمة الهماهم [٢] وافتضاض الغلاصم عند ارفضاض الجماجم [٣] وكر الخيل فى هبوات [٤] كالليل ولمع البواتر فى نقع كالدياجر ، واعتناق القساطل عند اصطفاق الجحافل ، هنالك يشترى الله من المؤمنين أنفسهم بأوفر الأثمان وتفتح للصابرين أبواب الجنان . . . » إلخ .

ولا شك أن القارئ يسمع من هذه الكلمات التى لا تسوغها أذواقنا فى هذا العصر رنين المعارك التى أثارها سيف الدولة فى ذلك العصر الغابر .

---

(١) الهيقعة : حكاية أصوات السيوف عند وقعها .والشفشفة تصويت الرماح . واللهازم : جمع لهزم القاطع من السيوف .

(٢) الهينمة : الحديث على الهدوء . والغماغم : الأصوات المختلطة .

(٣) الغلاصم : جمع غلصمة : طرف الحلقوم .

(٤) الغبار .

لقد ألقى ابن نباتة الخطيب خطبته هذه التى نقلنا فقرات منها ونبأ الزحف الكبير قد رنّ صداه فى العاصمة الحمدانية حتى إذا اجتاز القائد البيزنطى الثغور واجتاح المدن واقترب من أبواب حلب وقف ابن نباتة يحذر الناس من التضعضع ويصف هذه الزحفة ويطلب من الجند ومن جميع الحلبيين أن يبذلوا دماءهم لأن السيادة العربية قد أوشكت أن تتلاشى بعد أن أصبح العدو على الأبواب فيخاطبهم بقوله :

« . . . وقد أقامكم العز من أوطانكم على شفا ، لا ترقبون الا ّ يد غاشم تخطفكم أو ريح عدو هاجم تنسفكم ، كالغنم بغير راع فهى شريدة طريدة بكل قاع ، والعدو يتملك بلادكم قاطناً ، ويفك عرى أمصاركم عروة عروة ، ويدكّ ذرى دياركم ذروة ذروة وأنتم من روح الله آيسون كأنكم النساء وهم الرجال . . . »

ويطول بنا المجال لو أردنا أن نشير إلى كل خطبة أو إلى بعضها فحسبنا ما قدمناه . . وهكذا فقد كان للخطابة كما كان للشعر ولسائر صنوف الأدب — هذا المركز السامى فى بلاط سيف الدولة ، واستطاع الأمير الحمدانى أن يوجّه الأدب هذه الوجهات القومية وأن يوقظ فى قلوب بطانته — وكلهم من رجالات الفكر — هذا الشعور العميق الذى أحس به . فقام رجل كابن نباتة عرف بنزعته الدينية يدافع عن كيان الوطن بهذا اللون من الأدب الحماسى المثير .

الصنوبرى

ما فتق قلبى ، وشحذ فهمى ، وصقل ذهنى ، وأرهف لسانى وبلغ بى هذا المبلغ ، إلا تلك الطرائف الشامية . واللطائف الحلبية التى علقت بحفظى ؛ وامتزجت بأجزاء نفسى .

أبو بكر الخوارزمى

* * *

وأهل الشام فى الأدب القديم تغلب عليهم رقة الطبع ؛ ولهم شغف بصور الجمال ونزعتهم الغزلية فيها لين يندر مثله فى مصر والعراق ؛ وهذا الذى استوحيناه مما قرأنا لشعراء الشام فى المعانى الحسية والوجدانية.

زكى مبارك

من شعراء العرب الذين استهوتهم الطبيعة فعشقوها وهاموا بها ، ونعموا بمباهجها وفتنوا بروائعها ، واندمجوا بأفيائها وظلالها ، وطربوا لأغاريد أطيارها ، وسكروا من عرفها وعبقها وأريج أزهارها وخصوها بشعر يفيض بالحب والوجد والشوق — الشاعر الحلبى أبو بكر الذى رأى النور فى أنطاكية — فى تلك البقعة الغالية التى اقتطعها الأتراك ظلماً من جسم الوطن السورى — تلك الروضة المعطار التى تحاكى غوطة دمشق بكثرة بساتينها ، ووفرة أثمارها ، وفيض خيراتها بل تفوقها بروعة مناظرها وسحر شلالاتها .

فقد اكتحلت عينا الشاعر ، وهو فى المهد بجمال مناظر أنطاكية ، ورضع الحليب مع عطر أزهارها فنشأ وقد أغرم بالطبيعة إغراماً ، وما كاد يترعرع ويذوق حلاوة الأدب حتى انتقل إلى حلب يعيش مع عشرات الشعراء فى ظلال الأمير الحمدانى سيف الدولة .

* * *

والصنوبرى نسبة إلى الصنوبر ، وقد رد بعض المؤرخين هذه النسبة إلى الصين فقالوا أبا بكر الصينى ، ولست من هذا الرأى ، ففى شعره إشارات

صريحة تناقض ما ذهبوا إليه ، فقد سئل الشاعر عن السبب الذى من أجله نسب جده إلى الصنوبر حتى صار معروفاً به فقال :

كان جدى الحسن بن مرار صاحب بيت حكمة فى عهد المأمون ، فجرت بين يديه مناظرة فاستحسن كلامه وحدة مزاجه فقال له : إنك « لصنوبرى الشكل » يريد بذلك الذكاء وحدة المزاج ، وقد كان الشاعر يأنس بأحراج الصنوبر ، وكانت مدينة حلب فى عهده مزدانة بهذه الأحراج المخضوضرة ، وله فى وصفها مقاطع جميلة ، وقد ذكر الشاعر نسبته إلى الصنوبر بقطعة من شعره حيث قال :

إذا عُزينا إلى الصَنوْبرِ لم ... نعزَ إلى خامل من الخشبِ
لا بل إلى باسق الفروع علا ... مناسباً فى أرومة الحسب
مثل خيام الحــرير تحملها ... أعمدةٌ تحتها من الذهب
كأنّ ما فى ذُراه من ثمرٍ ... طيرٌ وقوعٌ على ذرا القضُب
باقٍ على الصيف ، والشتاء إذا ... شابتْ رؤوس النبات لم يشب

إلى أن يقول :

يا شجراً حُبُّه حدانى أن أفـ ... ـديه بأمى محبــةً وأبى
فالحمـــد لله إنّ ذا لقبٌ ... يزيدُ فى حسنه على النسب

ولاحاجة للتدليل بعد هذه القطعة الشعرية على خطأ القول بأن شاعرنا ينتسب إلى الصين وأنه « صينى » لا « صنوبرى » كما ذهب إليه بعض المؤرخين !

* * *

عاش الصنوبرى فى ظلال أمير حلب . وقد كان — على كثرة ما ضم بلاط الأمير الحمدانى من أساطين رجال الفكر والأدب — من أصفى المقربين إليه ، فاتخذه نديماً من أخلص ندمائه ، وأميناً لمكتبة قصره ، وكان الوحيد بين مئات الشعراء الذى ترفّع عن المدح فى سبيل المال على كثرة ما مدحه الشعراء من مختلف

الأقطار العربية استدراراً لعطفه ، وطمعاً بهباته وأعطياته . وإن دل هذا على شيء فعلى أنفة هذا الشاعر وكبريائه ، وعلى ما امتاز به من نبل النفس وصفاء الطبع ، وازدرائه للمادة ، وبعده عن ملق الشعراء وهذا الرياء الذى كانوا يعيشون فى سجوفه — ولعل هذه الصفات هى التى أدنته من قلب أميره وجعلته من خلّص أصدقائه دون أن يطالبه بالثمن .

* * *

لقد شغل الصنوبرى بأفانين الطبيعة عن أكاذيب البشر ، وبروائع الأزهار عن وهج الدينار ، وترك لزملائه الشعراء أن يعيشوا فى جو من الرياء والتزلف طمعاً بالدنانير التى كان ينثرها الأمير الحمدانى فوق رؤوسهم بسخاء فيهرعون إلى بلاطه ليمرغوا وجوههم على أعتابه . . أما هو فقد كان فى شغل عن هذا الزيف ، ولئن أشار بعض مؤرخى الأدب إلى أن الصنوبرى لم يخرج عن سنة الشعراء فى عصره ، فمدح وهجا وسر وشجا كما قال ابن شرف القيروانى ، إشارة إلى مدحه سيف الدولة وأمير الزاب[1] الذى وصله بألف دينار فديحه مديح الإعجاب لا التملق ، وصدى حبه العميق لممدوحه وتأثره بأعماله الضخمة . . نعم ، فقد شغل الصنوبرى بوصف الطبيعة عن مخازى التملق وخسيس الرياء . . كان يقضى أيامه بين الكتب والرياض . يقرأ ويتأمل صنع المبدع الخلاق ، ثم ينظم قلائده الحسان فى وصف الطبيعة الجميلة الخلابة ، وقد أحب سيف الدولة فى الشـــاعر إباءه وعذوبة روحه وتعلقه بالجمال فاتخذه كما قلنا نديمه وصفيه ، وأفسح له المجال أن يحيا هذه الحياة الهانئة فى ظلال الرياض يستجلى فتنة الطبيعة بشتى مباهجها ومختلف صورها ليسمعه هذه النبرات التى فاض قلبه بحبها ، وسكبها قطرات من حسه فى تصويرها .

* * *

حب الصنوبرى للطبيعة ، ووصفه لأفانينها هو الذى ميزه على الكثيرين

---

(١) الزاب : من أعمال إفريقية وأميرها أبو على جعفر بن على مؤسس مدينة المسيلة .

من شعراء العرب ، فعرف عند أئمة الأدب بهذه الظاهرة فقالوا : « روضيات الصنوبرى » كما قالوا «خمريات أبى نواس» و « تشبيهات ابن المعتز » و « زهديات أبى العتاهية » و « مدائح البحترى » .

وقال ابن رشيق فى العمده : « لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه ، ويسهل عليه تناولها كأبى نواس فى الخمر ، وأبى تمام فى التصنع ، والبحترى فى الوصف ، وابن المعتز فى التشبيه ، وديك الجن فى المراثى ، والصنوبرى فى النور والطير ، وأبى الطيب فى الأمثال وذم الزمن وأهله » ! وإن دل هذا على شىء فعلى ما امتاز به الصنوبرى من قدرة على وصف الطبيعة التى أحبها حبًّا ملك عليه كل مشاعره . . .

* * *

شاعرنا هذا الذى عاش فى كنف الطبيعة لم يكن يجد نشوته إلا فى فصل الربيع — فصل الحب والأزاهير . . فالدنيا عنده الربيع ، ولا شىء غير الربيع فلا فاكهة الصيف ، ولا نخل الخريف ، ولا غيث الشتاء الذى يروى ظمأ الأرض — لا شىء من كل هذا إلا الربيع :

إن كان فى الصيف ريحانٌ وفاكهةٌ ... فالأرضُ مستوقدٌ والجوّ تنورُ
وإن يكنْ فى الخريف النخلُ مخترفاً ... فالأرضُ عريانةٌ والجوّ مقرورُ
وإن يكن فى الشتاء الغيثُ متصلاً ... فالأرضُ محصورةٌ والجوّ مأسورُ
ما الدهرُ إلاّ الربيعُ المستنير إذا ... جاء الربيعُ أتاكَ النوْرُ والنُّورُ
والأرضُ ياقوتةٌ والجوّ لؤلؤةٌ ... والنبتُ فيروزجٌ والماءُ بلورُ
تبارك اللهُ ما أحلى الربيعَ فلا ... تغررْ فقايسه بالصيف مغرورُ
منْ شمّ طيب جنيّاتِ الربيع يقلْ ... لا المسكُ مسكٌ ولا الكافورُ كافورُ

نعم ، لم يكن شاعرنا يجد نشوته إلا فى فصل الربيع حين يتأمل يقظة الطبيعة ونشوتها الحالمة ، حين يقضى هذه الساعات الجميلة فى الغياض يصف وردها وزنابقها ؛ ويتغزل بسوسنها وأقحوانها ، ويتأمل خزاماها وبنفسجها

فيخلق من هذه العوالم المزدهرة عالماً جميلاً لا تشوبه الكدورة التى تشوب عالمنا .

وقد ود الشاعر ؛ وهو إنسانى النزعة ، لو خلا عالم الطبيعة مما يموج به عالم الإنسان ... لقد ود الشاعر ذلك . . ولكن هيهات ! فالحب ، والغيرة ، والخيلاء ، والزهو ، والبغض ، والحسد ، والتنافس الذى يموج به عالم الإنسان يموج به عالم الطبيعة ، إى والله . . فالغيرة التى تعصف بقلوب النساء حين تتميز إحداهن على لداتها — حين تتمياز بجمالها ورشاقتها وغنجها هى هى عند الورد والنرجس . . هذا ما يؤكده لنا الشاعر فى قطعة من شعره . .

لقد خلق من هذه « الغيرة » معركة رشيقة من معارك الزهر ، معركة لا هول فيها ولا ذعر ، وإن وصفت المعارك بالأهوال التى تشيب لها رؤوس الأطفال ، يصف لنا الشاعر هذه المعركة بأسلوبه اليقظ أجمل وصف ، ولا ضير علينا أن نرقب معه غمار هذه المعركة ننعم فيها بعبق الزهر وعذوبة الشعر . . .

ها نحن أولاء فى روضة من هذه الرياض الجميلة التى كان يستجلى محاسنها ويقضى أجمل أيامه فى ظلال أفيائها ، ولتكن هذه الروضة حديقته الغناء . . وقد كان للصنوبرى كما تقول كتب الأدب حديقة من أجمل حدائق حلب ، وصفها صديقه الشاعر كشاجم بقوله :

فألهتــك بساتينــُ لك ذات النوْر والزّهرِ
وما شيدت للخلــو ة من دار ومن قصر
وما جمّعت من غرس ومن فسْلٍ ومن بــذر
ونارنــج وريحــانٍ جــنىً طيب النشرِ

نعم ، لندخل قصره الفخم الذى بناه فى قلب الحديقة وقد ازدانت بالغروس والرياحين وبأشجار الليمون والنارنج ، وبالخوخ والتفاح ، وبشتى الأثمار والأزهار ، ولنقض معه لحظات ، إنه من عشاق الورد ، وللورد عنده المقام الأفضل ، هو كشاعر محب للطبيعة يهوى شتى أصناف الزهور ، ولكن حبه للورد أثار « الغيرة » فى قلوب حبيباته الأخريات حين رأينه يفضل الورد

عليهن — على النرجس والأقحوان ، وعلى السوسن والبنفسج وشقائق النعمان :

زعم الورد أنــه أبهى   من جميع الأنوار والريحانِ
فأجابته أعين النرجس الغضّ   بذلٍّ من قولها وهوان
أيما أحسنُ ؟ التورّد أم مق   لة ريم ٍ مريضةِ الأجفان
أم فماذا يرجو بحمرته الور   د إذا لم يكن له عينان
فزها الوردُ ثم قال مجيباً   بقياس مستحسن وبيان
إنّ ورد الخدود أحسنُ من ع   ين بها صفرة من اليرقــان

فهو إذ يفاضل بين الورد والنرجس يصرع النرجس من حيث يريد الدفاع عنه والتدليل على محاسنه ، والواقع أن لكل زهرة عند شاعرنا مكانتها المحببة فهو محب وامق يرعى جميع حبيباته بفيض حبه ، وكأنه يقول فى أعماق نفسه ، قولة ابن أبى ربيعة : إننى شاعر موكل بالجمال أتبعه ، فلا قدرة لى أن أغضبكن أيتها الحبيبات الأثيرات إلى قلبى جميعاً ، ولكن هذا لا يمنع أن أخص إحداكن بحب أكثر ووجد أوفر . .

وفى هذه المعركة التى خلقها خصب خياله يصف لنا صراع الحب وضرام الغيرة بين الزهور ، فى هذه المعركة الرشيقة التى تقوم بين الورد والنرجس — الورد الذى يزهو بجماله ورواثه ، والنرجس الذى لا يقل عنه زهواً وخيلاء . . . وكل زهرة من زهرات حديقته تعتدّ بحسنها وجمالها — وكل واحدة تريد أن تحتل مكانتها من قلب الشاعر وأن تكون المليكة المزهوة فى حديقته ، وكما كان يتنافس الشعراء للحظوة الكبرى عند الأمير الحمدانى ، فقد كانت الأزاهير تتنافس لتكون كل واحدة مليكة فى حديقة الشاعر . . ووقع التنافس ؛ ووقعت الغيرة ، وبدأ التراشق بالسهام ، وأخذت كل زهرة تدل بحسنها وجمالها وفتنتها ، وكان يلاحظ الشاعر على كل زهرة أعراض الغيرة من اصفرار إلى تيه إلى حسد إلى بكاء إلى أنين . . . ووقف يرقب من شرفة قصره أثر هذه المعركة . . . وكيف استطاع الورد أن يؤلب معه الأقحوان والبنفسج والسوسن والياسمين وشتى أصناف

الزهر للقضاء على « النرجس » ملياك الزهور ، وكاد النرجس يتلاشى ويخر صريعاً فى هذه المعركة لولا موقف الشاعر الذى حال دون القضاء عليه فى جلسة رقيقة الحواشى غنت فيها الأطيار واهتزت الأوتار .

خجل الوردُ حين لاحظه النر   جسُ من حسنه وغارَ البهارُ
فعلتْ ذاك حمرةٌ وعلت ذا   صفرةٌ واعترى البهارَ اصفْرارُ
وغدا الأقحوانُ يضحكُ عجباً   عن ثنايا لثامهنّ بهــارُ
ثمّ نمّ النمامُ واستمع السو   سنُ لمـــا أذيعت الأسرارُ
عندها أبرز الشقيقُ خدوداً   صار فيها من لطمه آثارُ
سكبتْ فوقها دموعٌ من الطل   كما تُسكب الدموعُ الغزارُ
فاكتسى البنفسج الغض أثواب   حداد قد خانها الاصطبار
وأضرّ السقامُ بالياسمــين ال   غضّ حتى آذى به الإضرار
ثمّ نادى الخيرىّ[1] فى سائر الزهـ   ـر فوافاهُ جحفلٌ جــرّارُ
فاستجاسوا على محاربة النرجس   بالجـــرم الذى لا يبار
فأتوا فى جواشنٍ سابغاتٍ   تحت سجفٍ من العجاج يثارُ
ثمّ لما رأيت ذا النرجس الغضّ (م) ضعيفاً ما إن لديه انتصارُ
لم أزلْ أعمل التاطف للور   د حذاراً أن يغلبَ النوّارُ
فجمعناهمُ لدى مجلس فيـــ   ـه تغنّى الأطيــار والأوتارُ
لو ترى ذا وذا لقلتَ خدودٌ   تدمن اللحظ حولها الأبصارُ

وهكذا ، فقد خلق لنا الشاعر فى هذه القطعة التصويرية ، معركة رشيقة من معارك الزهر ، شهدها خلص أصدقائه ، وفى طليعتهم الأمير سيف الدولة الذى كثيراً ما كان يترك بلاطه وأماديح الشعراء ليقضى ساعات جميلة فى حديقة صفيّه ونديمه ، يستمع فيها إلى عذب نكاته ورقيق شعره وهما يتعاطيان

(١) المنثور الأصفر .

الكؤوس الصافية . نعم ، كان يجد سيف الدولة فى هذه النغمات ، وفى تلك الجلسات الماتعة بعض سلوته من عناء الحروب وهول المعارك ، لذلك فقد أعفاه من قصائد المديح وتركه يمدح الطبيعة بشتى ظواهرها ومختلف ألوانها ، وإذا كان القدماء اعتبروه سيد من وصف الروض وتغنى به ، فقد اعتبره المحدثون ، وفى طليعتهم آدم متز ، أول شاعر للطبيعة فى الأدب العربى ، ويضيق المجال لو رحنا نورد وصفه لشتى ألوان الزهر ومباهج الأرض وفتون السماء والضياء والهواء وكل ما يزين هذه الدنيا بالألوان والأعراف .

. . . وكما وصف الصنوبري خضرة الأشجار وعطر الأزهار فقد وصف جمال الديار وفيض الأنهار ، فقد تغنى بذكر حلب ودمشق كما تغنى بجمال دجلة والفرات وبردى ووصف « قويق » وصفاً يدلنا على أن نهر حلب لم يكن قبل ألف سنة أحسن منه الآن بفروق ضئيلة .

كان الصنوبري كثير التجوال ، ينتقل من بلدة إلى ثانية فيقضى فيها أجمل أيامه وقد أعفى نفسه من مواضعات الحياة وعنت الأيام ، ومن هذه القيود المرهقة التى تقيد حرية الإنسان ، فكان يأنس بهذه الحياة الناعمة فى ظلال الأفياء ، وقد أشار صاحب تزيين الأسواق إلى هذه النزعة عند شاعرنا فقال :

. . . كان الصنوبرى كثير التجوال فى هذه البلاد يوماً تراه بحزوى ويوماً بالعراق ، يألف الرياحين النضرة والحدائق الملتفة ، يميل إلى الغناء والمداعبة ، ومعاشرة أهل الأدب فأكسبه ذلك ظرفاً فى شمائله وخفة فى روحه ، وصفاء فى ذهنه ، ورقة فى طبعه ، ودقة فى خياله ، وشحذ ذلك قريحته فاستخرج دقائق المعانى والتشبيهات البديعة ، وسهل له حزونها ، فأتانا بالسهل الممتنع فى وصفه للرياحين والغياض والأنهار والأزهار ، ووافانا بجملة مستكثرة فى هذا الباب لا تجدها فى شعر غيره وصار هو المشار إليه فى هذا النوع وهو الإمام فيه. نعم ، كان شاعرنا يقوم برحلات متتابعة ، ينتقل فيها من بلد إلى بلد ، فى هذه الربوع السورية التى خصتها الطبيعة بأجمل روائعها من حلب إلى الرها إلى الرقة يقضى أياماً وأسابيع على ضفاف الفرات يستمتع بجمال هذا النهر وبنسماته العليلة ، ثم يعود

. إلى حلب فلا يلبث فيها طويلاً حتى يغادرها إلى دمشق ينعم بغوطتها وبرداها فيخصها بالشعر الجميل ، فقد وصف الصنوبرى طبيعة دمشق وأيامه فيها أبرع وصف ، ودل فى وصفه هذا على أنه لم يعرف من الحياة إلا مباهجها وجمال ألوانها ونضرة طبيعتها ونغمات أطيارها وعذوبة مائها ، وكما رأى جمال الدنيا فى الربيع ، فقد رأى هذا الجمال — أى جمال الدنيا — فى دمشق التى خصها بالكثير من شعره ، ومن أقواله فيها :

أمرّ بدير مرّان فأحيا ... وأجعلُ بيتَ لهوى بيت « لهيا »
ويبردُ غلّتى بردَى فسقياً ... لأيام على بردَى ورعْيا
ولى فى باب جيرون ظباءٌ ... أعاطيها الهوى ظبياً فظبيا
ونعم الدّار « داريّا » ففيها ... خلا لى العيش حتى سار أريا
صفتْ دنيا دمشقَ لقاطنيها ... ولست ترى بغير دمشقَ دنْيا
تفيض جداولُ البلّور فيها ... خلالَ حدائق ينبتن وشيا
مظللة فواكهها بأبهى الـ ... مناظر فى نواضرها وأهيا
فمن تفاحةٍ لم تعدُ خدّاً ... ومن رمانةٍ لم تعدُ ثدْيا

فإذا ما تنعم من مباهج دمشق وعاد منها . هفت نفسه إلى الرقة ، مصيف هارون الرشيد .. ها هوذا فى طريقه إليها ينعم بجمال حدائقها ويمتّع ناظريه بجمال فراتها ويأنس بدير من أجمل أديرتها — دير طابت فيه الأشربة وصفت فيه الحياة « دير زكىّ » الواقع بين الفرات والبليخ ، فهو يذكره ويذكر جمال موقعه وطيب أيامه هناك فيقول :

معاهدُ بل مآلفُ باقياتٌ ... بأكرم معهدَين ومألفينِ
تضاحكها الفراتُ بكل فنّ ... فتضحكُ عن نضار أو لجين
كأن الروض من حمر وصفر ... إذا اعتنقا عناق متيّمين
وقت ذاك البليخَ يدُ الليالى ... وذاك النيل من متجاورين

ثم يخاطب مكان نزهته فى الدير بقوله :

أيا متنزّهى فى دير زكىّ ... ألم تكُ نزهتى بك نزهتين
أردّد بين ورد نداكَ طرْفاً ... تردّد بين ورد الوجنتين
ومبتسم كنظمى أقحوان ... حلاهُ الطلّ بين شقيقتين
ويا سفنَ الفرات بحيث تهوى ... هوىً الطير بين الجلهتين
تطارد مقبلاتٍ مدبراتٍ ... على عجلٍ تطارد عسكرَيْن
ترانا واصليكَ كما عهدنا ... بوصلٍ لا تنغصّه ببين
ألا يا صاحبىَّ خذا عنانى ... هوایَ ، سلمتما من صاحبيْن
لقد غصبتنىَ الحمسون فتكى ... وقامت بين اللذاتى وبينى
كانّ اللهوَ عندى كابنْ أمّى ... فصرنا بعد ذاك كعلّتين

ومع ذلك فقد أعفى شاعرنا نفسه من لوم اللائمين ، وقدح القادحين ، فهو صاحب مذهب فى الحياة ، يريد أن ينعم بمباهجها ولذاتها قبل أن يلفه العدم بدثاره الجون ، يريد أن يقتل سأم الحياة باللهو والشراب ، وها هو ذا ينادى صاحبه بقوله :

يا نديمى أما تحنّ إلى القصـ ... ـف فهذا أوان يبدو الحنينُ
لو على الدير عجتَ يوماً لألهتـ ... ـك فنونٌ وأطربتك فنونُ
لائمى فى صبابتى قدْك مهْلاً ... لا تلمنى إنّ الملامَ جنونُ

فهو مفتون بهذه الغياض التى تحيط بهذا الدير الجميل الذى يجد فيه كل ما تشتهيه النفس وتسرّ به العين ويخفق له القلب :

حبذا المرجُ ، حبّذا العمرُ، لا بل ... حبذا الديرُ ، حبّذا السّرْوتانِ
قد تجلى الربيعُ من حلل الزهـْ ... ـر وصاغ الحمامُ طيبَ الأغانى
زيّنت أوجهُ الرياض فأضحتْ ... وهىَ تزهى على الوجوه الحسان

أخضر اللون كالزّبرجد ، فى أحـ ـمر صافى الأديم كالعقيـان
وبهار مثـل الزّنابير محفـو فٍ بزهر الخيرىّ والحـوذان
اسقيانى بكلّ لونٍ من الـرّا ح على كلّ هـذه الألوان

يا لهذا الشاعر الذى أسكرته الطبيعة فهام بها هيام المجانين ، فلا يكاد يفيق من غيبوبته ، حتى تطلب نفسه الخمرة على شتى ألوانها — خمرة مختلفة الألوان يحاكى كل لون منها لون هذه الأزاهير :

اسقيانى بكل لون من الرا ح على كلّ هذه الألـوانِ

ويعاوده الحنين إلى حلب ، بعد أن يقضى فترة من الزمن فى تلك الجنان المزدهرة فيذكر أيامه فى بطياس والصالحية — وهما قريتان قريبتان من حلب — ويحن إلى أيامه الجميلة فيهما فينشد :

إنى طربتُ إلى زيتون بطياس بالصّالحية ذات الوردِ والآس
من ينْس عهدهما يوماً فلست له وإن تطاولت الأيامُ بالناس
وقائل لى أفق يوماً فقلتُ له من سكرة الحب أم من سكرة الطاس

و بدهى أن لا ينسى الشاعر حلب ومغانيها ، فكما وصف دمشق وبغداد وأيامه فى الرقة والرها ، وعلى ضفاف بردى والفرات والبليخ وفى هذه القرى الجميلة المنتثرة هنا وهناك ، فقد وصف حلب ومغانيها وخصّ نهرها بشعر تجرى فيه الأحاسيس المتباينة ، فهو يصف نهر قويق ويقسو عليه ، يذكره مداعباً وممازحاً . . وأى حلبى يستطيع أن يفاخر بنهره بعد أن يرى النيل ودجلة والفرات مثلا . . . نعم ، فحين يذكر الحلبى نهره تفيض فى نفسه اللوعة والألم ، فلكل بلدة من بلاد الله نهرها الجميل العذب الرقراق الذى يروى أرضها وسهولها ويسقى حدائقها وبساتينها ، ويزيد فى جمالها ونضارتها ، ويفيض عليها الخصب والنماء ، فلدمشق برداها الذى يصفق بالرحيق السلسل كما يقول الشاعر القديم ، ولمصر نيلها الجميل الذى يعد من أطول أنهار المعمور وأعذبها والذي كتبت بحقه

الكتب والمجلدات ودرس تاريخه كما يدرس تاريخ الأمم والحضارات لما له من أثر فى حياة مصر منذ أقدم الأزمنة حتى عبده الفراعنة وألّهوه ، ولبغداد دجلتها وفراتها ، إلا حلب ، فقد حرمها الله من هذه النعمة الجميلة ، فكان لقلة المياه أثره فى يبوسة الطباع ، ولئن خص الله هذه المدينة الجميلة ، بجودة المناخ وجمال الهواء ، فقد حرمها من أجمل نعمة ــ حرمها من وفرة المياه ومن نهر جميل تسرّ به الأعين ــ فالواقع ، أن لنا نهرًا هو وصمة هذه المدينة ، يأخذ فى الشتاء شكل الأنهر الصغيرة وقد يفيض فيطغى على الشوارع ، وقد يثور فيقتلع الدور الصغيرة وينقلب نفعه ضرراً . . .

ولكن لا يلبث أن يهدأ ويرجع إلى حالته المزرية ، فلا هو بالنهر الصغير ، ولا هو بالساقية الحيية . . . بل يصبح ماذا ؟ . . مجرى من مجارى الوحول والمياه الآسنة ، وبالرغم مما هو عليه من ضآلة المياه وقلتها فالأتراك قد حولوا مجراه إلى أراضيهم فغصبونا أقدس حقوقنا الطبيعية . . . وإقراراً للواقع نقول إن نهرنا منذ القديم مجرى لمياه قليلة تجف فى الصيف وتزداد فى الشتاء وكان تغنّى الشعراء به لوناً من الحسرة والأنين ، وصفوا اصفرار لونه واربداد وجهه ، أى أنه اليوم كما كان قبل ألف سنة ، وهذا ما يؤكده الصنوبرى بقوله :

قويقٌ من الصفراء ركّبَ جسْمهُ ... رُباه بهذا شُهّدٌ وحدائقُهُ
إذا جدَّ جدُّ الصيف غادر جسمه ... ضئيلاً ولكنّ الشتاء يوافقُهُ

ويصوره فى قطعة ثانية تصويراً رائعاً بقوله :

قويق إذا شمّ ريح الشتا ... ءِ أظهر تيهاً وكبراً عجيبا
وناسبَ دجلة والنيل والـ ... فرات بهاء وحسناً وطيبا
إذا أقبل الصيف أبصرته ... ذليلاً حقيراً حزيناً كئيبا
إذا ما الضفادع نادينه ... قويق قويق أبى أن يجيبا
فيأوين منه تقايا كُسِـ ... ـين من طحلب الصيف ثوباً قشيبا

وتمشى الجرادةُ فيـــه فـــلا تـــكاد قوائمها أن تغيبـــا

ثم يتلمس الشاعر لجفاف النهر ونضوب مائه عشرات الأعذار فى قصيدة طويلة مطلعها « قويق له عهد علينا وميثاق » حيث يقول :

يهاب قويق أن يمل فإنمـــا يقيم زماناً ثم يمضى فنشتاقُ
وقالوا أليس الصيف يبلى لباسَه فقلتُ الفتى فى الصيف يقنعه طاقُ
وما الصبحُ إلاّ آيبٌ ثم غائبٌ تواريه آفاقٌ وتبديه آفاقُ
وما البدرُ إلاّ زائدٌ ثم ناقصٌ له فى تمام الشهر حبسٌ وإطلاقُ

ثم يقول :

فلو دامَ فى الحبّ الوصالُ ولم يكنْ فراقٌ ولا هجرٌ ، لما اشتاقَ مشتاقُ

وهذه نهاية البراعة فى الاعتذار لحالة نهر صغير قضى شطراً كبيراً من حياته يستمتع بجماله حين تفيض مياهه فى الشتاء :

هو الماءُ إنْ يوصَفْ بكُنْهِ صفاته فللماء إغضاءٌ لديه وإطـــراقُ
ففى اللون بلّورٌ ، وفى اللمع لؤلؤٌ وفى الطيب قنديدٌ وفى النفع درياقُ
إذا عبثتْ أيدى النسيم بوجهه وقد لاحَ وجهٌ منه أبيَض برّاقُ
فطوراً عليه منه زرق حقيقــه وطرا عليه جوشن منه رقـــراق
وكمْ بعدَه لينوفرٌ متشـــوّفٌ بأرؤس تبر والزبرجدُ أعنـــاقُ
له ورَقٌ يعلو على الماء مطْبَقٌ كأطباق مدهون يليهنّ أطباقُ
وقد عابهُ قـــومٌ وكلّهمُ لـــه على ما تعاطوْهُ من العيب عشّاقُ

وأشهد أنى فى حالة نضوبه وجفافه ، لست من عشاقه :

وكما خص الصنوبرى نهر حلب بأكثر من قصيدة فقد خص حلب ، وطنه الجميل، بالقصائد الكبيرة والمقطوعات الصغيرة وحسبنا الإلماع إلى قصيدته الكبرى التى يقول فى مطلعها :

احبِسا العيسَ احبِساها وسلا الدار سلاها
وسلا أين ظباءُ الـ ـدار أم أين مهاها

فى هذه القصيدة لا يترك ناحية من نواحى حلب ، إلا وقد وصفها وصف المحب الوامق — ذكر تلك المواقع والأحياء التى عرفتها حلب قبل ألف سنة والتى لا تزال تحتفظ بأسمائها إلى يومنا هذا ، فذكر بانقوسا وباب الله وبعاذين والقناة ومجارى بركة حيلان والراموسة والسليمانية والجوشن ثم وصف جامعها الكبير والمئذنة وقبة الجامع فقال :

قبـة أبدع بانيـ ـها بناءً إذْ بناها
ضاهت الوشى نقوشا فحكتـه وحكاهـا
لو رآها مبتنى قبـة كسرى ما ابتناهـا
فبذا الجامع سروٌ يتبـاها من تباهـا

فأين أشجار السرو هذه وأين الحدائق المحيطة بالجامع ؟ لقد طغت المادة على الروح واستحالت الحدائق حوانيت مختلفة المهن حتى مهنة الحدادة التى يفسد ضجيجها على المصلين صلواتهم وتهجداتهم ؟ . . .
ثم يعود الصنوبرى فيذكر مقاصف حلب ومنتزهاتها ودورها وكل تزاويقها ومحاسنها فيقول :

أنا أحمى حلباً دا رأ وأحمى من حماها
أىُّ حسن ما حوته حلبٌ أو ما حواها
سروُها الدانى كما تد نو فتاةٌ من فتاها
آسُها الثانى القدودَ الـ ـهيفَ لمـا أنْ ثناها

وبعد أن يتغزل بنخلها وزيتونها وشتى أثمارها ولا ينسى طيورها من القمرى إلى الدراج إلى الحبارى إلى القطا يقول :

بين أفنان تناجى طائريها طائراها

حلب أكرم مأوى — وكريم من أواها
بسط الغيثُ عليها — بسط نور ما طواها
وكساها حُللاً أب — دع فيها إذْ كساها
حللاً لُحمتُها السو — سن والوردُ سداها
اجن خيريّاتها باللحظ — لا تحرم جناها
وعيون النرجس المن — هلّ كالدّمع نداها
وخدود من شقيق — كاللظى الحمر لظاها
وثنايـــا أقحوانـــا — ت سنا الدرّ سناها

ثم يختم قصيدته . بعد أن يعدد جميع زهورها ويصفها هذا الوصف الشعرى الجميل ، بقوله :

فاخري يا حلبُ المدْ — نَ يزدْ جاهكِ جاها
إنه ، إن تكن المدْ — ن رخاخا كنت شاها

ويضيق المجال ، لو رحنا نورد مقطوعات من شعر الصنوبرى فى بلدته حلب وما خصها الله من محاسن وتزاويق ، فحسبنا هذه الصور التى ترينا هذا الشاعر الذى عاش حياته فى كنف الطبيعة ، يصف أزهارها وأطيارها ، أرضها وسماءها ، ربيعها وشتاءها ، وكل ظاهرة من ظواهر الحياة فيها حتى أصبح بحق شاعر الطبيعة فى الأدب العربى وصاحب مدرسة تأثره كثيرون من شعراء العربية ورأوه أستاذهم الأكبر فى رسم مباهج الأرض وجمال الطبيعة الفتان .

نصوص

رأينا من فائدة القارئ أن نتبع هذه الرسالة بنشر نصوص جغرافية وتاريخية عن حروب سيف الدولة مع البيزنطيين كما كتبها مؤرخو العرب القدماء لتكون مادة خصبة لمن يريد أن يتوسع بدراسة هذا العصر .

الشام

وصف جغرافى للبلاد التى خضعت لسيف الدولة وللحدود العربية ــ البيزنطية

أحوال الشام :

أما الشام فإن غربيها بحر الروم ، وشرقيها البادية من أيلة[1] إلى الفرات ، ثم من الفرات إلى حد الروم، وشماليها بلاد الروم أيضاً، وجنوبيها حد مصر وتيه بنى إسرائيل، وآخر حدودها مما يلى مصر رفح، ومما يلى الروم الثغور المعروفة، كانت قديماً بالجزيرة وهى ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة وأذنة وطرسوس .

قد جمعت الثغور إلى الشام وبعض الثغور يعرف بثغور الشام وبعضها يعرف بثغور الجزيرة وكلها من الشام ، وذلك أن كل ما كان وراء الفرات فمن الشام ، وإنما سمى من ملطية إلى مرعش ثغور الجزيرة لأن أهل الجزيرة بها كانوا يرابطون ويغزون منها ، لا لأنها من الجزيرة ؛ وكور الشام إنما هى جند فلسطين وجند الأردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين والعواصم ، وبين ثغور الشام وثغور الجزيرة جبل اللكام وهو الفاصل بين الثغرين ، وجبل اللكام جبل داخل فى بلد الروم ويقال إنه ينتهى إلى حد مائتى فرسخ ويظهر فى الإسلام بين مرعش والهارونية وعين زربة فيسمى اللكام إلى أن يجاوز اللاذقية ثم يسمى جبل بهراة وتنوخ إلى حمص ثم يسمى جبل لبنان ثم يمتد على الشام حتى ينتهى إلى بحر القلزم من جهة ويتصل بالمقطم من أخرى .

* * *

أما جند حمص فإن مدينتها حمص وهى مدينة فى مستواة خصبة صحيحة

---

(١) أيلة : على خليج العقبة ، فى أقصى شمالى الحجاز .

الهواء من أصح بلدان الإسلام . . . ودخلها الروم فى وقتنا هذا وأتوا على سوادها وأخربوها . وجميع طرق حمص من أسواقها وسككها مفروشة بالحجارة والبلاط. وأما أنطرسوس فحصن على البحر ثغر لأهل حمص فيه مصحف عثمان بن عفان، وعليه سور من حجارة يمنع أهلها من بادرة ، ولقد نجوا من الروم فى حيننا هذا عند قصد نقفور ، ساحل الشام . وأما شيزر وحماة فإنهما مدينتان صغيرتان نزهتان كثيرتا المياه والشجر والزروع والفواكه .

وأما جند قنسرين فمدينتها حلب وكانت عامرة جداً ، غاصة بأهلها ، كثيرة الخيرات على طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات ، فافتتحها الروم وكان لها سور من حجار لم يغن عنهم من العدو شيئاً فخرب جامعها وسبى ذرارى أهلها وأحرقها ، وكان بها قلعة غير طائلة ولا حسنة العمارة ، فلجأ إليها قوم من أهلها فنجوا ، وهلك بها من المتاع والجهاز للغرباء وأهل البلد ، وسبى بها وقتل من أهل سوادها ما فى إعادته إرماض لمن سمعه ووهن على الإسلام وأهله ، وكان لها أسواق حسنة وحمامات وفنادق ومحال وعراص فسيحة وهى الآن كالمتماسكة ولها واد يعرف بأبى الحسن قويق وشرب أهلها منه وفيه قليل طفس ، ولم تزل أسعارهم فى الأغذية وجميع المآكل قديماً واسعة رخيصة . . . وعليهم الآن للروم فى كل سنة قانون يؤدونه وضريبة تستخرج من كل دار وضيعة معلومة وكأنهم معهم فى هدنة وليست وإن كانت أحوالها متماسكة وأمورها راخية بحال جزء من عشرين جزءاً مما كانت عليه فى قديم أوقاتها وسالف أيامها .

وقنسرين مدينة نسبت الكورة إليها وهى من أضيق تلك النواحى بناء وإن كانت نزهة الظاهر مغوثة فى موضعها بما كان بها من الرخص فاكتسحتها الروم فكأنها لم تكن إلا بقايا دمن فدينها من دمن . . ومعرة النعمان مدينة هى وما حولها من القرى أعذاء ليس بنواحيها ماء جار ولا عين ، وكذلك جميع جند قنسرين شربهم من السماء وهى مدينة كثيرة الخير والسعة والتين والفستق وما شاكل ذلك من الكروم . . . وأما الخناصرة فهى حصن يحاذى قنسرين إلى ناحية البادية وعلى شفيرها وسيفها كان يسكنه عمر بن عبد العزيز صالحة فى قدرها ، مغوثة

للمجتازين عليها فى وقتنا لأن الطريق انقطع من بطن الشام بإتيان الروم عليه وهلاك ولاته فلجأ الناس إلى طريق البادية بالأدلاء والخفراء .

والعواصم اسم الناحية وليس بمدينة تسمى بذلك وقصبتها أنطاكية ، وهى بعد دمشق أنزه بلد بالشام، وعليها إلى هذه الغاية سور من صخر يحيط بها وبجبل مشرف عليها لهم فيه مزارع وأجنة وأرحية وما يستقل به أهلها من مرافقها ... ... وكان لهم ضياع وقرى ونواح خصبة حسنة استولى عليها العدو فملكها وكانت قد اختلت قبيل افتتاحها فى أيدى المسلمين وهى أيضاً فى أيدى الروم أشدّ اختلالاً وفتحها الروم فى أول سنة تسع وخمسين وثلاثمائة .

ومدينة بالس مدينة على شط الفرات من غربيه صغيرة ، وهى أول مدن الشام من العراق ، وكان الطريق إليها عامراً ، ومنها سابلا ، وكانت فرضة لأهل الشام على الفرات . . . وعلى القرب منها مدينة منبج خصيبة كثيرة الأسواق ، قديمة الآثار ، عظيمة الأسوار فى برية الغالب عليها وعلى مزارعها الإعذاء[1] ، وهى حصينة عليها سور أزلى رومى . وبقربها أيضاً مدينة سنجة وهى مدينة صغيرة بقربها قنطرة حجارة تعرف بقنطرة سنجة [2] ليس فى الإسلام قنطرة أحسن منها ويقال إنها من عجائب الزمان . ومدينة سميساط على الفرات وكذلك جسر منبج وهما مدينتان لهما زرع سقى ومباخس وماؤهما من الفرات .

وكانت مدينة ملطية مدينة كبيرة من أكبر الثغور وأكثرها سلاحاً ورجالاً دون جبل اللكام إلى ما يلى الجزيرة ويحف بها جبال كثيرة فيها الجوز والكروم واللوز وسائر الثمار الشتوية والصيفية مباحة لا مالك لها وهى من أقوى بلاد الروم فى هذا الوقت يسكنها الأرمن وفتحت فى سنة تسع عشرة وثلاثمائة . وكانت المدينة المعروفة بحصن منصور صغيرة حصينة فيها منبر وبها رستاق وقرى برسمها أعذاء فاستأثر القضاء بهلاكها على أيدى الروم وبنى حمدان .

---

(١) عذا المكان : طاب ، وكان بعيداً من الماء والوخم .

(٢) جسر سنجه الرومانى على مصب نهر الفرات اسمه «كوك صو» وكان يقول القدماء عجائب الدنيا أربع : قنطرة سنجة ومنارة الإسكندرية وكنيسة الرها ومسجد دمشق .

والحدث ومرعش مدينتان صغيرتان افتتحها الروم من قبل يومنا هذا فأعادها سيف الدولة علىّ بن عبد الله وعاد الروم فانتزعوها ثانية من المسلمين وكان لهما زروع وأشجار كثيرة وفواكه ، وكانتا ثغرين يرابط فيهما المسلمون ويجاهدون ففسدت النيات وافتتحت الأعمال وارتفعت البركات وفسدت المذاهب ولجّ الملوك فى الظلم والاستئثار بالأموال والعامة فى الإصرار على المعاصى والطغيان فهلك العباد وتلاشت البلاد وانقطعت الجهاد .

وكانت الهارونية من غربى جبل اللكام فى بعض شعابه حصناً صغيراً بناه هارون الرشيد أدركته عامراً حسناً فأهلكته الروم . وكانت الإسكندرية [1] أيضاً حصناً على ساحل بحـر الروم ذا نخيل وزرع وغلة وخصب كثير فأتى عليه العدو . وكذلك حصن التينات حصن كان على شط البحر فيه مقطع لخشب الصنوبر الذى كان ينقل إلى الشام ومصر والثغور وكان فيه رجال فتاك أجلاد لهم علم بمضار بلد الروم ومعرفة بمخائضهم . وكانت الكنيسة حصناً فيه منبر وهو ثغر فى معزل من ساحل البحر يقارب حصن المثقب الذى استحدثه عمر بن عبد العزيز وعمره وكان فيه منبره ومصحفه بخطه وكان فيه قوم سراة من عبد شمس — اعتزلوا الدنيا ورفضوا المكاسب وكان لهم ما يقيم بهم من المباح . وكانت عين زربة بلداً يشبه مدن الغور وبها نخيل وخصب واسعة الثمار والزرع والمرعى وهى المدينة التى كان وصيف الخادم همّ بالدخول منها إلى بلد الروم فأدركه المعتضد بها وكانت حسنة الداخل والخارج ، نزهة داخل سورها جليلة فى جميع أمورها . وكانت المصيصة مدينتين إحداهما تسمى المصيصة والأخرى تسمى كفربيا على جانبى جيحان وبينهما قنطرة حجارة وكانتا حصينتين جداً على شرف من الأرض ينظر منها الجالس فى مسجد جامعها نحو البحر أربعة فراسخ كالبقعة بين يديه خضرة نضرة جليلة الأهل ، نفيسة القدر ، كثيرة الأسواق ، حسنة الأحوال . وجيحان نهر يخرج من بلد الروم حتى ينتهى إلى المصيصة ثم إلى

---

(١) يريد الإسكندرونة .

رستاق يعرف بالملون فيقع فى بحر الروم وكان كثير الضياع غزير الكراع . وكانت أذَنة مدينة كأحد جانبي المصيصة على نهر سيحان فى غربى النهر . وسيحان دون جيحان فى الكبر ، عليه قنطرة عجيبة البناء طويلة جداً ويخرج هذا النهر من بلد الروم أيضاً . وكانت جليلة الأهل ، حسنة المحل ، فى كل أصل وفصل ، وعلى أصل طريق طرسوس .

فأما مدينة طرسوس فالمدينة المشهورة المستغنى بشهرتها عن تحديدها كبيرة عليها سوران من حجارة كانت تشتمل على خيل ورجال وعدة وعتاد وكراع وكانت من العمارة والخصب بالغاية إلى رخص عام على مر الأيام وتعاقب الأعوام وكان بينها وبين حد الروم جبال متشبعة من اللكام كالحاجز بين العملين ، ورأيت غير عاقل مميز وسيد حصيف مبرز يشار إليه بالدراسة والفهم واليقظة والعلم يذكر أن بها مائة ألف فارس وكان ذلك عن قريب عهد من الأيام التى أدركتها وشاهدتها وكان السبب فى ذلك أنه ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والجبال وطبرستان والجزيرة وأذربيجان والعراق والحجاز واليمن والشامات ومصر والمغرب إلا وبها لأهلها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة الجسيمة ، إلى ما كان السلاطين يتكلفونه وأرباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين متبرعين ، ولم يكن فى ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس إلا وله عليه وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات أو مسقف من فنادق فهلكوا فكأنهم لم يسكنوها حتى لظننتم كما قال الله تعالى: «هل تُحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً». وكانت أولاس حصناً على ساحل البحر فيه قوم متعبدون وكان فى آخر ما على بحر الروم من العمارة فكانت مما بدأ به العدو . وبَغْرَس كان فيه منبر على طريق الثغور وكانت فيها دار لزبيدة ولم يكن بالشام دار ضيافة غيرها كبيرة . فأما المسافات بالشام فإن طولها من حد ملطية إلى رفح والطريق من ملطية على منبج وبينهما ٤ أيام ومن منبج إلى حلب يومان ومن حلب إلى حمص ٥ أيام ومن حمص إلى دمشق ٥ أيام . . . وعرضها فى بعض المواضع أكبر من

بعض وذلك أن أعرضها طرفاها وأحد طرفيها من الفرات من جسر منبج على منبج ثم على قورس فى حد قنسرين ثم على العواصم فى حد أنطاكية ثم يقطع جبل اللكام إلى بياس ثم إلى التينات ثم إلى المثقب ثم على المصيصة ثم على أذنة ثم على طرسوس وذلك نحو ١٠ مراحل . وإن سلكت من بالس إلى حلب ثم أنطاكية ثم إلى الإسكندرية [1] ثم إلى بياس حتى تنتهى إلى طرسوس فالمسافة أيضاً نحو ١٠ مراحل غير أن السمت المستقيم هو الطريق الطويل . . .

وجند قنسرين مدينتهـــا ، غير أن دار الإمارة والأسواق ومجمع ناسها والعمارات بحلب ، فمن حلب إلى بالس يومان ، ومن حلب إلى الأثارب يوم ، ومن حلب إلى قورس يوم ، ومن حلب إلى منبج يومان ، ومن حلب إلى الخناصرة يومان.

والعواصم قصبتها أنطاكية وكان منها إلى أذنة ٣ مراحل ومنها إلى بغراس يوم ، وإلى الأثارب يومان وإلى حمص ٤ مراحل ومنها إلى مرعش يومان ، وإلى الحدث ٣ مراحل . وأما الثغور فإنه لاقصبة لها وكل مدينة قائمة بنفسها . ومنبج مدينة قريبة من الثغور ومن منبج إلى الفرات مرحلة خفيفة ومن منبج إلى قروس مرحلتان ومن منبج إلى ملطية ٤ أيام ومن منبج إلى سميساط يومان ومن منبج إلى الحدث يومان ومن سميساط إلى شمشاط مرحلتان ومن سميساط إلى حصن منصور يوم ومن حصن منصور إلى ملطية يومان ومن حصن منصور إلى زبطرة يوم ، ومن حصن منصور إلى الحدث يوم ، ومن ملطية إلى مرعش ٣ مراحل كبار ومن مرعش إلى الحدث يوم فهذه مسافات الثغور بالجزيرة . وأما الثغور الشامية فمن الإسكندرية [2] إلى بياس مرحلة خفيفة ، ومن بياس إلى المصيصة مرحلتان ومن المصيصة إلى عين زربة مرحلة ومن المصيصة إلى أذنة مرحلة ومن أذنة إلى طرسوس مرحلة ، ومن طرسوس إلى أولاس على بحر الروم يومان ، ومن طرسوس إلى الجوزات مرحلتان ومن طرسوس إلى بيكاس على بحر الروم فرسخان ، ومن بياس إلى الكنيسة والهارونية أقل من يوم ، ومن الهارونية إلى مرعش من ثغور الجزيرة مرحلة فهذه جملة مسافات الثغور . (ابن حوقل (١٠٨ - ١٢٧)

(١) ، (٢) يريد الإسكندرونة .

الجزيرة

وأما الجزيرة التى بين دجلة والفرات وتشتمل على ديار ربيعة ومضر فمخرج الفرات من داخل بلد الروم على ما سلكته من ملطية على يومين ، ويجرى بينها وبين المدينة المعروفة بسميساط ، وكانت للمسلمين ، ويمر عليها وعلى جسر منبج وبالس إلى الرقة وقرقيسيا والرحبة وهيت والأنبار. وينقطع حد الفرات مما يلى الجزيرة ثم يعود حدّ الجزيرة فى سمت الشمال إلى تكريت وهى مدينة على دجلة حتى تنتهى عليها مصعداً إلى السنّ مما يلى الجزيرة وإلى الحديثة والموصل ويصعد دجلة إلى جزيرة ابن عمر ثم يتجاوز إلى آمد فينقطع حينئذ حد الجزيرة وتصد دجلة على أقل من يومين فى حد أرمينية ثم يعود الحد مغرباً إلى سميساط ثم ينتهى إلى مخرج ماء الفرات فى حد الإسلام من حيث ابتدائه ومخرج دجلة وإن كان فى بلد الروم فطالما كان فى يد الإسلام وعلى يسار دجلة وغربى الفرات مدن وقرى تنسب إلى الجزيرة وهى خارجة منها وبائنة عنها سأذكرها بما يدل على حالها إن شاء الله تعالى .

وأما حدودها ومسافاتها فمن مخرج الفرات فى حد ملطية إلى سميساط يومان، ومن سميساط إلى جسر منبج ٤ أيام، ومن الجسر إلى بالس ٤ أيام ، ومن بالس إلى الرقة يومان ، ومن الرقة إلى الأنبار ٢٠ يوماً ، ومن الأنبار إلى تكريت يومان فى نفس البرية، ومن تكريت إلى الموصل ٦ أيام، ومن الموصل إلى آمد ١٤ يوماً، ومن آمد إلى سميساط ٣ أيام ، ومن سميساط إلى ملطية ٣ أيام . ومن الموصل إلى بلد مرحلة، ومن بلد إلى نصيبين ٥ مراحل ... ومن نصيبين إلى رأس عين ٣ مراحل ، ومن رأس عين إلى الرقة ٤ أيام، ومن رأس عين إلى حرّان ٣ أيام ، ومن حرّان إلى جسر منبج يومان، ومن حرّان إلى الرها يوم ، ومن الرها إلى سميساط يوم ، ومن حرّان إلى الرقة ٣ أيام .

ومدينة آمد على جبل من غربى دجلة مطل عليها نحو مائة قامة وعليها سور

أسود من حجارة الأرحية ويسمى ذلك السور ميموناً من شدة سواده وذلك أنه من حجارة أرحية الجزيرة وليس لهذه الحجارة على وجه الأرض نظير ، ومنها ما يساوى الخمسين ديناراً وأقل وأكثر بالعراق وهى كثيرة الشجر ولها مزارع — بداخل سورها ومياه وطواحين على عيون تنبع منها وكان لها ضياع ورساتيق وقصور ومزارع برسمها هلكت لضعفهم واقتدار الروم عليهم وقلة المغيث الناصر . . . وأجل مدينة لديار مضر الرقة . . . وفى غربى الفرات بين الرقة وبالس أرض صفين ، وبها قبر عمار بن ياسر (رضه) وأكثر أصحاب أمير المؤمنين علىّ عليه السلام . .

ومدينة حرّان تليها فى الكبر وهى مدينة الصابئين وبها سدنتهم ولهم بها تل عليه مصلى الصابئين يعظمونه وينسبونه إلى إبراهيم ، وهى من بين تلك المدن قليلة الماء والشجر ، وكانت زروعها مباخس ، وكان لها غير رستاق عظيم وكورة جليلة فافتتح الروم أكثرها وأناخت بنو نمير وبنو عقيل بعقوقها وبقعتها فلم تبق بها باقية ولا فى رساتيقها ثاغية ولا راغية . وهى مدينة فى بقعة يحفّ بها جبل مسيرة يومين فى مثلها مستواة ، ومدينة الرها فى شمال هذه البقعة ، وكانت وسطة من المدن والغالب على أهلها النصارى ، وبها زيادة على ثلاث مائة بيعة ودير وصوامع فيها رهبانهم ولهم فيها بيعة ليس للنصرانية أعظم ولا أبدع صنعة منها ، ولها مياه وبساتين وزروع كثيرة ، نوهة وهى أصغر من كفر ثوثا ، وكان بهامنديل لعيسى ابن مريم (عم) فخرج ملك الروم فى بعض خرجاته ونزل بهم وحاصرهم وطالبهم به فسلموه إليه على هدنة وافقوه على مدتها . وجسر منبج — وسميساط مدينتان نزهتان ذواتا مياه وبساتين ومباخس وأشجار وهما عن قرب من الفرات فى حال اختلال ورزوح حال .

ابن حوقل (١٣٧ — ١٥٧)

غزوات سيف الدولة الأولى ضد البيزنطيين
[٣٢٦ هـ ٩٣٧ — ٩٣٨ م
و٣٢٨هـ—٩٣٩—٩٤٠م]

من جملة غزوات سيف الدولة غزاة سنة ست وعشرين، خرج فى ذى القعدة منها حتّى صار إلى حصن دادم ، ووجّه الحسن بن على القوّاس فى سرية إلى حصن التل ، وسار سيف الدولة إلى حصن زياد فسار وفتحه وأقام عليه سبعة أيام ، ووافاه الدمستق فى مائتى ألف فانكفأ راجعاً يطلب شمشاط وخيول الروم تسايره، فنزل ضيعة تعرف بالمقدمية وهم بمناجزة الروم، ثم تطيّر باسمها فلما كان يوم النحر وصل إلى موضع بين حصنى سلام وزياد فتفاءل بأسمائهما ووقف، وأقبلت عساكر الروم وانقطع عنها موكب قد أجاروه فى نحو عشرين ألف بطريق ، ووقع القتال وحمل سيف الدولة فى غلمانه وغلامه يماك وعبد الأعلى بن مسلم فهزم الله الروم وأسر منهم سبعين بطريقاً ولم يزل القتال والأسر فيهم إلى الليل ، وأخذ سرير الدمستق وكرسيه .

* * *

وفى سنة ثمان وعشرين خرج سيف الدولة من نصيبين غازياً فنزل منازكرد يريد مدينة قاليقلا وكان الروم قد بنوا حذاءها مدينة سموها هفجيج فلما علم الروم بمسيره أخربوا المدينة التى بنوها وهربوا ، ففى ذلك يقول النامى :

ونادى الهدى مستصرخاً فأجبته ... بقاليقلا إذ أنت بالخيل سُهّما
ولم تتئد هفجيج أيدى بُناتِها ... أبدتهم تحت السنابك رغما
لئن حسنت عذراء والبحر خدرها ... لقد وجدت فيه ثكولا وأيما

قال ولما هدم الروم المدينة وهربوا رجع سيف الدولة فأقام بأرزن حتى انحسر الثلج وأمكن الغزو ، ثم خرج إلى خلاط ودخل بلد الروم بعد أن جاءه ملك

أرمينية وخزران وما وطئ بساط ملك قط فأحسن إليه وخلع عليه وتسلم منه حصوناً كانت ضرراً على المسلمين ورده إلى بلده سالماً بعد أن استحلفه على الطاعة وحماية السبل . ووردت عليه كتب ملوك أرمنية وخزران بالطاعة والانقياد ثم سار إلى ابن طرنيق وأناخ على مدينة موش فخربها وهدم بيعة جليلة القدر عند النصرانية ، ودخل إلى بلد الروم فهدم حصوناً كثيرة وفتح قلاعاً منيعة ووطئ مواطئ لم يطأها أحد من المسلمين قبله ، وورد إليه كتاب ملك الروم بما أحفظه فأجابه عنه جواباً شديداً وأنفذه إليه . فقال الملك لرسول سيف الدولة : يكاتبنى هذه المكاتبة كأنه قد نزل على قلونية استعظاماً لذلك . فاتصل قوله بسيف الدولة فعزم على قصد قلونية أو يفتحها الله على يديه فكأنه رأى فى بعض أصحابه استعظاماً للأمر فقال : لست أقلع عن قصد هذه المدينة فإما الظفر وإما الشهادة فسار حتى نزل عليها وأحرق رساتيقها وسلب ضياعها وكتب إلى الدمستق وهو إلى الملك كتاباً من قلونية فاستعظم الروم هذا الفعل وخافوه خوفاً عظيماً لأنه بلد ماوطئه أحد من المسلمين . ثم رجع سيف الدولة منها فساوره الدمستق فأوقع به سيف الدولة وقتل من الروم مقتلة لا يحصيها إلا الله تعالى .

ابن ظافر (١ : ٢ — ٣)

رواية أخرى

لحملة سنة ٣٢٨ هـ (٩٣٩ — ٩٤٠ م)

قيل وفى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة سار سيف الدولة من ميافارقين إلى أرمينية ونزل بطيطوانة [١] على البحيرة واستدعى بابن جاجيق بن الديرانى [٢] وأحمد بن عبد الرحمن أبى المعز صاحب خلاط وذات الجوز وأرجيش وبركرى

---

(١) وهى طاوان Tadvan على الشاطئ الغربى لبحيرة « وان » على مسافة ٢٠ كيلومتراً جنوبى خلاط .

(٢) ملك واسپوركا : المتوفى ٩٤٣ م . Gagi K.B. al-Dayrani

وعبد الحميد صاحب منازجرد ودشت الورك والهرك وأشوط بن جرجور بطريق البطارقة [١] بأرمينية وحضروا لديه وأخذ من ابن الديرانى حصن شهران والحامد وبلدانها وما جاورها وأخذ من أحمد بن عبد الرحمن بدليس وما جاورها ، وأخذ من أشوط بلد السناسنة [٢] وفتحه وملك قلعة قلب وحصن سلمان وأعمالها ، ورد ملوك أرمينية فوصلوا تحت حكمه وفى خدمته وسار إلى بلد ابن المرزبان وبلد الخالدية فنهبه وسبى منه خلقاً عظيماً وفتح حصونهم أجمع وذلك فى مدة خمسين يوماً وعاد .

(ابن الأزرق ج ١ ص ١١١ — ١١٢)

الحرب بين العرب والبيزنطيين خلال غياب سيف الدولة

٣٣٠ — ٣٣٣ هـ ٩٤١ — ٩٤٤ م

فى سنة ثلاثين وثلاثمائة فى ربيع الآخر وصل الروم إلى قريب حلب ونهبوا وخربوا البلاد وسبوا نحو خمسة عشر ألف إنسان ، وفيها دخل الثملى من ناحية طرسوس إلى بلاد الروم فقتل وسبى وغنم وعاد سالماً وقد أسر عدة من بطارقتهم المشهورين.

فى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وافت جيوش الروم إلى ديار بكر وسبوا من أهلها جماعة كثيرة وفتحوا أرزن وأخربوا عامة بلدها وبلغوا قرب نصيبين والتمسوا من أهل الرها أن يدفعوا إليهم الأيقونة المنديل الذى فى كنيسة الرها الذى كان سيدنا يسوع المسيح مسح به وجهه فصارت صورة وجهه فيه وبذل الروم لهم أنهم إذا سلموهم هذا المنديل أطلقوا من الأسرى المسلمين الذين فى أيديهم عدداً

---

(١) هو نفس ابن طورنيق الذى ذكره ابن ظافر . وكان بطريق البطارقة لقب يطلق إذ ذاك على ملك الملوك فى أرمنية .

(٢) بلاد السناسنة . وفى التعبير العامى فى حلب يطلق على الأرمن الذين يتولون مهنة خبز الخبز فى الأفران « الصواصنة » ، وكانت هذه المهنة قديماً خاصة بهم ، والسناسنة منطقة جبلية فى جبال طوروس جنوبى طاروق ، تقطنها عشيرة أرمنية من الصواصنة .

ذكروه لهم . فكاتبوا المتقى بذلك وعرض الوزير أبو الحسين بن مقلة على المتقى الوارد فى هذا المعنى واستأذنه فيما يعمله . فأمره بإحضار القضاة والفقهاء واستبيانهم فى ذلك والعمل بما يقولون ، واستحضرهم الوزير أبو الحسين بن مقلة واستحضر علىّ بن عيسى والوجوه من أهل المملكة وعرفهم ما ورد فى هذا المعنى وسألهم عما عندهم فيه وجرى فى ذلك خطب طويل ذكر فيه بعض من حضر حال هذا المنديل وأنه منذ الدهر الطويل فى هذه البيعة لم يلتمسه ملك من ملوك الروم ، وأن فى دفعه غضاضة على الإسلام . والمسلمون أحق بمنديل عيسى عليه السلام وفيه صورته . فقال على بن عيسى : إن خلاص المسلمين من الأسر وإخراجهم من دار الكفر مما يقاسونه من الضر والضنك أوجب وأحق . ووافقته جماعة من حضر على قوله وأشار هو وغيره من قضاة المسلمين بتسليم الأسارى منهم وتسليم المنديل إليهم إذ لا طاقة للسلطان بهم ولا له حيلة فى استنقاذ الأسارى من أيديهم . وعمل فى ذلك محضراً وأخذ فى ذلك خطوط الجماعة الذين حضروا وعرض على المتقى وأمر بكتب الجواب بالعمل بذلك ، واستقر الأمر بين أهل الرها وبين الروم على أن يدفعوا إليهم مائتى نفس من المسلمين ممن كانوا أسروهم ، وشرط أهل الرها عليهم ألا يعبروا فيما بعد على بلدهم وعقدوا بينهم هدنة مؤبدة . وتسلم الروم المنديل وحملوه إلى القسطنطينية ودخل به إليها فى اليوم الخامس عشر من آب ، وخرج أصطفان والبطريرك ثاؤفيلقطس أخوه وقسطنطين أولاد رومانوس الملك إلى باب الذهب مستقبلين له ، ومشى أهل الدولة بأجمعهم بين يديه بالشمع الكثير وحمل إلى الكنيسة العظمى أجيا صوفيا ومنها إلى البلاط وذلك فى السنة الرابعة والعشرين منذ ملك رومانوس الشيخ مع قسطنطين بن لاون . ولم تزل هذه الهدنة مستمرة بين الروم وبين أهل الرها إلى أن نقضها سيف الدولة فى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة فإنه ألزم أهل الرها الغزو معه فى سنة غزاة المصيصة فهلكت فيها كثير منهم .

وعاد الروم إلى ديار بكر فى هذه السنة وفتحوا مدينة دارا يوم الخميس لعشر خلون من شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة ، ورجعوا دفعة أخرى

ودخلوا رأس عين يوم الثلاثاء لاثنى عشر ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وأقاموا فيها يومين وسبوا من أهلها زهاء ألف نفس وانصرفوا.

(يحيى بن سعيد)
(٣٥ – ٣٢) – ٧٣٣ – ٧٣٠

أحداث سنة ٣٣٣ هـ – ٩٤٤ م

فيها غزا سيف الدولة بلاد الروم ورد سالماً بعد أن بدع في العدو، وسبب هذه الغزاة أنه بلغ الدمستق ما فيه سيف الدولة من الشغل بحرب أضداده [1] فسار في جيش عظيم وأوقع بأهل بغراس ومرعش وقتل وأسر، فأسرع سيف الدولة إلى مضيق وشعاب فأوقع بجيش الدمستق وبينهم واستنقذ الأسارى والغنيمة وانهزم الروم أقبح هزيمة. ثم بلغ سيف الدولة أن مدينة للروم تهدم بعض سورها وذلك في الشتاء فاغتنم سيف الدولة الفرصة وبادر فأناخ عليها وقتل وسبى لكن أصيب بعض جيشه .

(الذهبى ١ – ١٦٠)

أحداث سنة ٣٣٦ – ٣٣٨ هـ
٩٤٧ – ٩٤٩ م

نزل سيف الدولة على حصن برزويه وحاصره في سنة ست وثلاثين وثلثمائة وفيه يومئذ أبو تغلب الكردى ونزل لاون بن بردس الدمستق الفوقاس على الحدث وحاصره ووافى نفير الحدث إلى سيف الدولة يستعينون به فأقسم أنه لا رحل عن حصن برزويه أو يفتحه ، وفتح لاون حصن الحدث بالأمان وأخرب سوره وفتح سيف الدولة حصن برزويه في سنة سبع وثلاثين وثلثمائة وسار إلى ميافارقين

(١) بينما كان سيف الدولة مشغولا بالحرب الداخلية كان البيزنطيون يواصلون زحفهم .

واستخلف بحلب محمد بن ناصر الدولة ونزل لاون على بوقا وخرج محمد بن ناصر الدولة للقائه من حلب فأوقع لاون لمحمد ولجماعة من أصحابه وقتل منهم زهاء أربع مائة رجل وأسر خلقاً كثيراً وذلك فى سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة .

وفى شهر ربيع الأول من هذه السنة فتح الروم مدينة قاليقلا وملكوها وهدموا سورها وأعطوا أهلها الأمان وانصرفوا عنها .

(يحيى بن سعيد ٧٦٧ – ٧٦٨)

أحداث سنة ٣٣٩ هـ – ٩٥٠ م

وفيها غزا سيف الدولة . . . فسار فى ربيع الأول ووافاه عسكر طرسوس فى أربعة آلاف عليهم القاضى أبو حصين فسار إلى قيسارية ثم إلى القبدق ووغل فى بلاد الروم وفتح عدة حصون وسبى وقتل ، ثم سار إلى سمندو ثم إلى خرشنة يقتل ويسبى ، ثم إلى بلد صاريخة وبينها وبين قسطنطينية سبعة أيام ، فلما نزل عليها واقع الدمستق مقدمته فظهرت عليه فلجأ إلى الحصن وخاف على نفسه ، ثم جمع والتقى سيف الدولة فهزمه الله أقبح هزيمة وأسرت بطارقته وكانت غزاة مشهورة ، وغنم المسلمون ما لايوصف وبقوا فى الغزو أشهراً ، ثم إن الطرسوسيين قفلوا ورجع العربان ورجع سيف الدولة فى مضيق صعب فأخذت الروم عليه الدروب وحالوا بينه وبين المقدمة وقطعوا الشجر وسدّوا به الطرق ودهدهوا الصخور فى المضائق على الناس والروم وراء الناس مع الدمستق يقتلون ويأسرون ولا منفذ لسيف الدولة ولكن معه أربعمائة أسير من وجوه الروم فضرب أعناقهم وعقر جماله وكثيراً من دوابه ، وحرق الثقل وقاتل قتال الموت ونجا نفر يسير ، واستباح الدمستق أكثر الجيش وأسر أمراء وقضاة ووصل سيف الدولة إلى حلب ولم يكد ، ثم مالت الروم فعاثوا وسبوا وتزلزل الناس ثم لطف الله تعالى وأرسل الدمستق إلى سيف الدولة يطلب الهدنة فلم يجب سيف الدولة وبعث يتهدده ثم جهز جيشاً ، فدخلوا بلد الروم من ناحية حرّان فغنموا وأسروا خلقاً وغزا أهل طرسوس أيضاً فى البحر والبر

ثم سار سيف الدولة من حلب إلى آمد فحارب الروم وخرب الضياع وانصرف سالماً . وأما الروم فانهم احتالوا على أخذ آمد وسعى لهم فى ذلك نصرانى على أن ينقب لهم نقباً من مسافة أربعة أميال حتى وصل إلى سورها ففعل ذلك وكان نقباً واسعاً فوصل إلى البلد من تحت السور ، ثم عرف به أهلها فقتلوا النصرانى وأحكموا ما نقبه وسدوه ، ومعنى الدمستق نائب البلاد فى شرقى قسطنطينية .

(الذهبى ١ – ١٦٣)

* * *

قال أبو الطيب : وقد ركب سيف الدولة فى بلد الروم من منزل يعرف بالسنبوس فى جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وثلثمائة وأصبح وقد صف الجيش يريد سمندو وكان أبو الطيب متقدماً فالتفت فرأى سيف الدولة خارجاً من الصفوف يدير رمحاً فعرفه فردّ الفرس إليه فسايره وأنشده :

لهذا اليوم بعد غد أريجُ ... ونارٌ فى العدوّ لها أجيجُ
عرفتكَ والصّفوفُ معبآت ... وأنت بغير سيفك لا تعيجُ
رضينا والدّمستق غيرُ راضٍ ... بما حكم القواضبُ والوشيجُ
فإن يقدمْ فقد زرنا سمندو ... وإن يحجم فموعدنا الخليجُ

ومر سيف الدولة فى هذه الغزاة بسمندو وعبر آلس وهو نهر عظيم ونزل على صارخة فأحرق ربضها وكنائسها وربض خرشنة وما حولها فأكثر القتل وأقام أياماً، ثم رحل حتى عبر آلس راجعاً، فلما أمسى ترك السواد وأكثر الجيش وسرى حتى جاز خرشنة وانتهى إلى بطن اللقان فى غد ظهراً ، فلقى الدمستق به ، وكان الدمستق فى ألف من الخيل ، فلما نظر إلى أوائل خيل المسلمين ظنها سرية فثبت لها وقاتل حتى هزمهم ، وأشرف عليه سيف الدولة ، فانهزم الدمستق فقتل من فرسانه خلق كثير وأسر من بطارقته وزراورته ووجوه رجاله نيف على ثمانين ،

وأفلت الدمستق وعاد سيف الدولة إلى عسكره وسواده ، فقفل غانماً ، فلما وصل إلى عقبة تعرف بمقطعة الأنفار صافّه العدو على رأسها وأخذ ساقة الناس يحميهم ، فلما انحدر بعد عبور الناس ركبه العدو ، فجرح من الفرسان جماعة ، ونزل سيف الدولة على برَدَّى وهذا نهر ، وضبط العدو « عقبة الشير » وهى عقبة صعبة طويلة فلم يقدر على صعودها لضيقها وكثرة العدو بها ، فعدل متياسراً فى طريق وصفه له بعض الأدلة وأخذ ساقة الناس ، وكانت الإبل كثيرة مثقلة معيية ، وجاءه العدو آخر النهار من خلفه فقاتله إلى العشاء وأظلم الليل وتسلل أصحاب سيف الدولة سوادهم فلما خف عنه أصحابه سار حتّى لحق السواد تحت عقبة قريبة من بحيرة الحدَث فوقف وقد أخذ العدو الجبلين من الجانبين وجعل سيف الدولة يستنفر الناس ولا ينفر أحد منهم ومن نجا من العقبة نهاراً لم يرجع ، ومن بقى تحتها لم يكن فيه نصرة ، وتخاذل الناس ، وكانوا قد ملّوا السفر فأمر سيف الدولة بقتل البطارقة والزراورة وكل من كان فى السلاسل وكان فيها مئات ، وانصرف سيف الدولة واجتاز أبو الطيب آخر الليل بجماعة من المسلمين بعضهم نيام بين القتلى من التعب ، وبعضهم يحركونهم فيجهزون على من ترك فلذلك قال :

وجدتموهم نياما فى دمائكم ... كأن قتلاكم إياهم فجعوا

أحداث سنة ٣٤٠ هـ - ٩٥١ م

توقف سيف الدولة فى الغزاة الصائفة فى جمادى الأولى من سنة أربعين وثلثمائة ببقعة عربسوس على إحراق القرى ، ثم أصبح صافنًا يريد سمندو ، وقد اتصل أن العدو جامع معدّ فى أربعين ألفاً فتهيب جيش سيف الدولة الإقدام عليها وأحب سيف الدولة المسير إليها فاعترضه أبو الطيب فأنشده ، فلما بلغ قوله :

وإن كنتَ سيفَ الدولة العضْبَ فيهمُ ... فدعْنا نكنْ قبلَ الضِّرابِ القنا اللُّدْنا

قال له سيف الدولة : قل لهؤلاء ... وأومأ بيده إلى من حوله من العرب والعجم يقولون كما تقول حتى لا نثنى عن الجيش فما تجمل أحد منهم بكلام. والقصيدة.

نزور دياراً ما نحب لها مغنى ونسأل فيها غير ساكنها الإذنا

وقال أيضاً يمدحه ويذكر هذه الغزاة وأنه لم يتم قصد خرشنة بسبب الثلج وهجوم الشتاء :

عواذلُ ذات الخال فىّ حواسدُ وإنّ ضجيع الخود منّى لماجدُ

بناء قلعة رعبان ومرعش

رَعْبان مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة فى العواصم ، وهى قلعة تحت جبل خربتها الزلزلة سنة أربعين وثلثمائة فأنفذ سيف الدولة أبا فراس ابن حمدان فى قطعة من الجيش ، فأعاد عمارتها فى سبعة وثلاثين يوماً فقال أحد شعرائه يمدحه :

أرضيتَ ربّك وابن عمك والقنا وبذلت نفساً لم تزل بذّالها
ونزلت رَعباناً بما أوليتهـــا تثنى عليك سهولها وجبالهـــا

(ياقوت ٢ – ٧٩١)

* * *

أول الثغور مما يلى جبل اللكام مرعش . . . أخربتها الروم سنة سبع وثلاثين فبناها سيف الدولة بن حمدان فى سنة إحدى وأربعين وثلثمائة وجاء الدمستق ليمنع من بنائها فقصده سيف الدولة فولى هارباً وتمم سيف الدولة عمارتها .

(ابن الشحنة ١٩١ – ١٩٢)

من حلب إلى ديار مضر

فيها رحل سيف الدولة من حلب إلى ديار مضر لاضطراب البلاد بها فنزل حرّان ، فأخذ رهائن بنى عقيل وقشير وعجلان ، وحدث له بها رأى فى الغزو ، فعبر الفرات إلى دلوك إلى قنطرة صنجة ، درب القلة ، فشنّ الغارة على أرض

عرقة ، وملطية وعاد ليعبر الفرات من دربَ موزار ، فوجد العدو قد ضبطه عليه فرجع وتبعه العدو فعطف عليه فقتل كثيراً من الأرمن ورجع إلى ملطية وعبر قباقب وهو نهر حتى ورد المخاض على الفرات تحت حصن يعرف بالمنشار ، فعبر إلى نهر هنزيط ،وسُمنين ، ونزل بحصن الران ورحل إلى سميساط فورد عليه بها من خبره أن العدو فى بلد المسلمين فأسرع إلى دُلوك ، وعبرها فأدركه راجعاً على جيحان فهزمه وأسر قسطنطين بن الدمستق ، وجرح الدمستق فى وجهه وكان الإيقاع به يوم الاثنين لعشر خلون من ربيع الأول فقال أبو الطيب يصف ما كان فى جمادى الآخرة من هذه السنة :

ليالىّ بعدَ الظاعنين شــكولُ ... طوالٌ وليلُ العاشقين طويل. . .
رمى الدّرب بالجرّد الجياد إلى العِدى ... وما علموا أنّ السهام خيولُ
شوائل تشوال العقارب بالقنــا ... لها مرَح من تحته وصهيــلُ
وما هى إلا خطرةٌ عرضتْ له ... بحــران لبّتها قنا ونصــولُ
فلما تجلّى من دلوك وصنجــة ... علت كلّ طود رايةٌ ورعيــلُ
وأمسى السبايا ينتحــبنَ بعرقة ... كأنّ جيوبَ الثاكلات ذيــولُ
وعادت فظنوها بموزار قفّــلا ... وليس لها إلا الدخول قُفــولُ
فخاضت نجيع القوم خوضاً كأنه ... بكل نجيع لم تخضْه كفيــلُ
تُسايرها النيرانُ فى كل منــزل ... به القومُ صرعى والديار طلــولُ
وكرّت فمرّت فى دماء ملطيــة ... ملطية أمٌّ للبنين ثــكــولُ
وأضعفن ما كلفته من قباقب ... فأضحى كأنّ الماءَ فيه عليــلُ
ورعْن بنا قلب الفرات كأنمــا ... تخــرّ عليه بالرجال سيــولُ
يطارد فيــه موجهُ كلّ سابح ... ســواء عليه غمرةٌ ومسيــلُ
تراه كأنّ المــاء مرّ بجسمــه ... وأقبل رأسٌ وحــدَه وتليــلُ
وفى بطن هنزيط وسِمنين للظُــبى ... وصمّ القنا ممن أبــدن بديلُ
طلعنَ عليهم طلعةً يعرفونهــا ... لها غرَرٌ ما تنقضى وحجــولُ
تملّ الحصونُ الشمُّ طول نزالنــا ... فتلقى إلينا أهلها وتــزولُ

وبتن بحصن الران رزْحَى من الوجى | وكلُّ عزيزٍ للأمير ذليـــلُ
وفى كل نفس ما خلاه ملالـــةٌ | وفى كل سيف ما خلاه فلولُ
ودون سميساط المطامير والمــلا | وأوديةٌ مجهولة وهجـــولُ
لبسنَ الدجى فيها إلى أرض مرعش | وللروم خطبٌ فى البلاد جليلُ
فلما رأوه وحـــده قبل جيشه | دروا أنّ كل العالمين فضـــولُ
وأنّ رماح الخطّ عنه قصيرةٌ | وأن حديد الهند عنه كليـــلُ
فودّع قتلاهمْ وشيـــع فلّهمْ | بضرب حُزونُ البيض فيه سهولُ
على قلب قسطنطين منه تعجبٌ | وإن كان فى ساقيه منه كبول
لعلك يوماً يا دمستق عائـــدٌ | فــكم هاربٍ مما إليه يئولُ
أتسلم للخطيّـــة ابناك هارباً | ويسكن فى الدنيا إليك خليـــلُ
بوجهك مـــا أنساكه من مرشة | نصـــيرك منهـــا رنة وعويـــلُ

غزوة ملاطية وشاطئ الفرات

وقال ابن شداد فى الأعلاق الخطيرة : وفى سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة غزا سيف الدولة ملطية وشاطئ الفرات وقتل من الروم وسبى وأسر قسطنطين ابن الدمستق ولم يزل عنده إلى أن مات فى أسره . وكان كتب إلى أبيه الدمستق بإكرام سيف الدولة، وهو الذى كان يخدمه فى مرضه، فرأى منه الشفقة واللطف الذى فعله، وقيل إن قسطنطين المأسور كان فى غاية الحسن، فبذل أبوه فيه ثمانمائة ألف دينار وثلاثة آلاف أسير فاشتطّ سيف الدولة فسير الدمستق إلى عطار نصرانى بحلب وأمره أن يسقّى ولده سمًّا ، ففعل ومات وعدّت هذه من غلطات سيف الدولة .

(ابن شداد : ١ — ٢٥٩)

بناء قلعة الحَدَث

أحداث سنة ٣٤٣ هـ — ٩٥٤ م

سار سيف الدولة نحو ثغر الحَدَث لبنائها ، وقد كان أهلها أسلموها إلى الدمستق بالأمان سنة سبع وثلاثين فنزل سيف الدولة يوم الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة ، سنة ثلاث وأربعين وبدأ يومه فحطّ الأساس وحفر أوله بيده ، ابتغاء ما عند الله تعالى ذكره ، فلما كان فى يوم الجمعة نازله ابن الفقاس دمستق النصرانية فى نحو خمسين ألف فارس وراجل من جموع الروم والروس والصقلب والبلغر والخزرية ، ووقعت المصافة يوم الاثنين انسلاخ جمادى الآخرة من أول النهار إلى وقت العصر ، وإن سيف الدولة حمل عليه بنفسه فى خمسمائة من غلمانه وأصناف رجاله . فقصد موكبه وهزمه ، وأظفره الله تعالى به ، وقتل نحو ثلاثة آلاف رجل من مقاتلته وأسر خلقاً من اسخلاريته وأراخيته فقتل أكثرهم واستبقى بعضهم وأسر تودس الأعور بطريق سمندوا ولقمندوا وهو صهر الدمستق ، واسر ابن ابنة الدمستق وأقام على الحدث إلى أن بناها ووضع آخر شرافة منها بيده فى يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب فقال أبو الطيب وأنشدها إياه بعد الوقعة بالحدث :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدْر الكرام المكارم

أحداث سنة ٣٤٤ هـ — ٩٥٥ م

ورد على سيف الدولة الخبر آخر النهار يوم الثلاثاء لست خلون من جمادى الأول سنة أربع وأربعين وثلثمائة بأن الدمستق وجيوش النصرانية قد نازلت ثغر الحَدَث فى يوم الأحد ونصبت مكايد الحصون عليه ، وقدّرت أنها فرصة لما

تداخلها من القلق والانزعاج والوصم فى تمام بنائه على يد سيف الدولة ولأن ملكهم ألزمهم قصدها وأنجدهم بأصناف الكفر من البلغر والروس والصقلب وغيرهم، وأنفذ معهم العدد. فركب سيف الدولة لوقته نافراً، وانتقل إلى غير الموضع الذى كان فيه ونظر فيما يجب النظر فيه فى ليلته . وسار عن حلب غداة يوم الأربعاء لسبع خلون فنزل رعبان وأخبار الحدث مستعجمة عليه لضبطهم الطرق وتقديرهم أن يخفى عليه خبرهم فلما أسحر لبس سلاحه وأمر أصحابه بمثل ذلك وسار زحفاً. فلما قرب من الحدَث عادت إليه الطلائع بأن عدو الله لما أشرفت عليه خيول سيف الدولة على عقبة تسمى العبرانى رحل ولم يستقر به دار وامتنع أهل الحدَث من البدار بالخبر خوفاً من كمين يعترض للرسل ، فنزل سيف الدولة بظاهرها وذكر خليفته بها أنهم نازلوه وحاصروه فلم يخلّه الله عز وجلّ من نصرة عليهم إلا فى نقوب نقبوها فى فصيل كان قديماً للمدينة وأتتهم طلائعهم بخبر سيف الدولة فى إشرافه على ثغر رعبان فوقعت الضجة فيهم وظهر الاضطراب وولّى كل فريق على وجهه، وخرج أهل الحدث فأوقعوا ببعضهم وأخذوا آلة حربهم فأعدوها فى حصنهم فقال أبو الطيب :

ذى المعالى فليعلَوَنْ من تعالى ... هكذا هكذا وإلا فلالا ..
لا ألوم ابن لاون ملاك الرو ... م وإن كان ما تمنى محالا
أقلقته بنية بين أذنيـ ... ـه وبانٍ بغى السماء فنالا
كلما رام حطّها اتسع البنـ ... ـىِ فغطى جبينه والقذالا
يجمع الروم والصقالب والبلغـ ... ـار فيها وتجمع الآجالا
قصدوا هدم سورها فبنوه ... وأتوا كى يقصُروه فطالا
واستجرّوا مكايد الحرب حتى ... تركوها لها عليهم وبالا
إن دون التى على الدرب والأحـ ... ـدب والنهر مخلِطاً مزبالا
غضب الدهر والملوك عليها ... فبناها فى وجنة الأرض خالا
فهى تمشى مشىِ العروس اختيالا ... وتثنى على الزمان دلالا . . .

أحداث سنة ٣٤٥ هـ – ٩٥٦ م

سنة خمس وأربعين وثلثمائة ، فيها غزا الأمير سيف الدولة ووطئ من أرض الروم موطناً لم يطأه المسلمون منذ ثلاثين سنة، وكان قد أخذ معه سفناً مخلعة وأطوافاً تعبر عليها نهر أرسناس وقصد مدينة تل بطريق فأحرقها وبلغ من الروم مبلغاً عظيما وقتل منهم نحو أربعة آلاف رجل وغنم ما يفوت الإحصاء من الدوابّ والديباج وعاد سالماً إلى آمد فدخلها وأنشد فى ذلك أبو الطيب قصيدته التى أولها :

الرأى قبل شجاعة الشجعان　　　هو أول وهى المحل الثانى

(ابن ظافر ١ – ٨)

* * *

غزا سيف الدولة إلى بطن هنزيط فى سنة خمس وأربعين وثلثمائة ونزل شاطئ نهر أرسناس وعبر إلى الجانب الآخر فى الزواريق وكان يأنس بن الشمشقيق فى تل بطريق ، فكبسه سيف الدولة فانهزم ابن الشمشقيق ، وفتح سيف الدولة تل بطريق ، وانثنى سيف الدولة قافلاً إلى الدرب الذى يقال له درب الخياطين وألفى الدمستق وابن الشمشقيق قد أخذا الدرب وأشحناه بالرجال، فانتشب القتال بينهم ، واستظهر سيف الدولة عليهما ، وكان سيف الدولة قد خلف بدلوك أبا العشائر الحسين بن على بن الحسين بن حمدان ، ورسم له النزول على حصن عرمدا وبناه وخرج لاون البطريق ابن الدمستق ، ولقبه أبو العشائر فأسره لاون وحمله إلى القسطنطينية ومات فى الأسر . . . وغزا سيف الدولة فى سنة خمس وأربعين وثلثمائة ، وأنفذ سريته إلى سمندو فوجدوا إستراتيغوس بن البلنطس ، وأسروه وقتل وأحرق وأسر وعاد وقصد سيف الدولة حصن زياد وحاصره واتصل به أن الدمستق متوجه إلى الشام فتسرع إلى لقائه ودفعه .

يحيى بن سعيد
(٧٦ – ٧٤) ٧٧٤ – ٧٧٢

* * *

فى هذه السنة فى رجب سار سيف الدولة فى جيوش إلى بلاد الروم وغزاها حتّى بلغ خرشنة وصارخة وفتح عدة حصون وسبى وأسر وأحرق وخرّب وأكثر القتل فيهم ورجع إلى أذنة فأقام بها حتّى جاءه رئيس طرسوس فخلع عليه وأعطاه شيئاً كثيراً وعاد إلى حلب ، فلما سمع الروم بما فعل جمعوا وساروا إلى ميافارقين وأحرقوا سوادها ونهبوه وخربوا وسبوا أهله ونهبوا أموالهم وعادوا . .

وفيها فى جمادى الآخرة سار الروم فى البحر فأوقعوا بأهل طرسوس وقتلوا منهم ألفاً وثمانمائة رجل وأحرقوا القرى التى حولها .

(ابن الأثير ١٧١ – ١٧٢)

آخر قصائد المتنبي
في غزوات سيف الدولة

قال وقد تحدث بحضرة سيف الدولة أن البطريق أقسم عند ملكه أنه يعارض سيف الدولة فى الدرب وسأله أن ينجده ببطارقته وعـدده وعـدَده وفعل فخاب ظنه : أنشد إياها سنة خمس وأربعين وثلثمائة وهى آخر ما أنشده بحلب :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندمُ ... ماذا يزيدك فى إقدامك القسَمُ
وفى اليمين على ما أنت واعــده ... ما دلّ أنك فى الميعاد متّهمُ
آلى الفتى ابن شمشقيق فأحنثـه ... فتًى من الضرب تُنسى عنده الكلِمُ
وفاعل ما اشتهى يغنيه عن حَلِف ... على الفعال حضور الفعل والكرمُ
كلّ السيوف إذا طال الضراب بها ... يمسّها غير سيف الدولة السأمُ
لو كلت الخيل حتى لا تحمله ... تحملته إلى أعــدائه الهممُ
أين البطاريقُ والحلف الذى حلفوا ... بمفرق الملك والزعم الذى زعموا
ولّى صوارمه إكذاب قــولهمُ ... فهن ألسنةٌ أفواههــا القممُ

إلى آخر القصيدة وهى مشهورة . . .

أحداث سنة ٣٤٦ ـ ٣٤٨ هـ : ٩٥٧ ـ ٩٦٠ م

نزل الدمستق على حصن الحدث وفتحه صلحًا فى شهر ربيع الأول سنة ست وأربعين وثلثمائة وآمن أهله وانصرفوا إلى حلب وأخرب الدمستق حصن الحدث وسار بأنس بن الشمشقيق إلى ناحية آمد وأرزن وميافارقين ونزل على حصن يقال له اليمانى من عمل آمد فى سنة سبع وأربعين وثلثمائة وسير إليه سيف الدولة غلامه نجا الكاسكى فى عشرة آلاف والتقاهم ابن الشمشقيق وانهزم نجا وقتل الروم من عسكره زهاء خمسة آلاف وأسروا نحو ثلاثة آلاف واستولوا على

جميع سواد نجا وسار أيضاً بسيل الباركمومنس [١] ويأنس بن الشمشقيق ونزلا على سميساط وفتحاها فى بعض يوم ورحلا عنها إلى رعبان وحاصراها فسار سيف الدولة وتبعه ابن الشمشقيق فأوقع بعسكره وقتل وأسر فى أهله وأصحابه ووجوه غلمانه ما يكثر عدده وذلك فى شعبان سنة سبع وأربعين وثلثمائة، وأدخل إلى القسطنطينية من الأسرى ألفاً وسبعمائة فارس وطوف بهم وهم ركاب خيولهم ولابسون سلاحهم .

وغارت الروم على قورس [٢] وسبوا خلقاً من أهلها وأسرى إليهم سيف الدولة واستخلص الأسرى .

وفى هذه السنة مات قسطنطين بن لاون ملك الروم فى تشرين الثانى سنة ألف ومائتين وإحدى وسبعين وهو شعبان سنة ثمان وأربعين وثلثمائة وكان جملة ما ملك منذ مات عمه الإسكندر وإلى أن شاركه فى الملك رومانوس الشيخ وولداه وصفا له وانفرد به إلى أن مات ثمان وأربعين سنة منها مدة ملكه مع أمه زوى سبع سنين ومع رومانوس حميه ست وعشرين سنة وملك منفرداً خمس عشرة سنة وملك بعده ابنه رومانوس وذلك فى خمس عشرة سنة من خلافة المطيع . وصيّر لاون بن بردس الفقاس دمستق على المشرق وصير نقفور أخاه دمستق على المغرب وسار لاون إلى نحو طرسوس وسبى وقتل وفتح الهارونية فى أول شوال سنة ثمان وأربعين وثلثمائة ... وورد لاون الدمستق إلى ناحية ديار بكر فى سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة وتوجه سيف الدولة من حلب إلى هناك ورحل الدمستق إلى ناحية الشام وقتل من أهله عدداً متوافراً وأخرب حصوناً كثيرة وأسر محمد بن ناصر الدولة .

(يحيى بن سعيد ٧٧٤ – ٧٧٩)

غزوة سنة ٣٤٩ هـ – ٩٤٠ م

فى هذه السنة غزا سيف الدولة بلاد الروم فى جمع كثير فأثر فيها آثاراً كثيرة وأحرق وفتح عدة حصون وأخذ من السبي والأسرى شيئاً كثيراً ، وبلغ إلى

(١) Basile le Parakinaumène

(٢) بين نهر عفرين وكلس .

خرشنة ثم إن الروم أخذوا عليه المضايق فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس : إن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العود منه والرأى أن ترجع معنا ، فلم يقبل منهم وكان معجباً برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحداً لئلا يقال إنه أصاب برأى غيره ، وعاد فى الدرب الذى دخل منه فظهر الروم عليه واستردوا ما كان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف فى أصحابه فأتوا عليه قتلا وأسراً ، وتخلص هو فى ثلثمائة رجل بعد جهد ومشقة ، وهذا من سوء رأى كل من يجهل آراء الناس العقلاء والله أعلم بالصواب .

(ابن الأثير ١٧٣)

* * *

سار نجـــا ، من حضرة سيف الدولة فى جيش كثيف فنزل على حصن ذى القرنين محاصراً لأهله ووافى ميخائيل بطريق بطن هنزيط وترنيق وغيرهم فى جمع عظيم قيل إنهم فى عشرة أمثال المسلمين فلقيهم ، فقتل أكثرهم وهزم باقيهم وأسر ترنيق وغيره والتجأ جماعة منهم إلى جبل ليس له طريق فمضى إليهم وطلعه وقتلهم فيه ورمى أكثرهم نفسه وطلب بعضهم الأمان فلم يؤمنهم نجا ونظروا غرة فخرجوا هاربين وركبوا عليهم فقتلوا منهم وأسروا مائة وخمسين ونجا الباقون .

(ابن ظافر ج ١ ص ٨ — ٩)

أحداث سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م

فيها سار نجا غلام سيف الدولة إلى هنزيط فلقيه عبد الله الملطى والروم فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وانصرف سالماً ومعه من السبى ستمائة رأس ومائتا فرس ، ثم سار إلى بلد ابن مسلمة فسبى وقتل وانصرف فأخذ عليه الروم الدرب فقتل كل من معه من الأسارى واستقبل هو ومن معه ، وقاتل على الدرب حتى ملكه ، وهزم من عليه وخرج ومن معه سالمين ، ثم سار إلى قاليقلا ، فأسر خمسمائة فارس وسبى وأخذ من الأبقار والأغنام ما أعجز المسلمين سوقه ورجع إلى حلب . . .

(ابن ظافر ١ — ٩)

استيلاء الروم على قصر سيف الدولة ونهب أثاثه

ملك الروم دار سيف الدولة بظاهر حلب ، وذرعها ستة آلاف ذراع ، وأخذ له منها ما لا يحصى من الأموال ، شرح ذلك : ثلاثمائة بدرة ، مائة عين ، ومائتين ورق ، وثلاثمائة حمل من البز الفاخر ، ومن الديباج الفاخر مما كان ادخره من عهد رومانوس ، خمسون حملا من أوانى الذهب والفضة ، ما لا يحصى ، ومن الخيل ثمانمائة رأس ، ومن السلاح والمناطق والتجافيف والسيوف مائة حمل ، ومن الجمال نحو ألفى جمل ، ونقل سقوف الدار معه لأنها كانت مذهبة .

(ابن ظافر ١ — ١٠)

مرض سيف الدولة وتمرد غلامه « نجا »

مرض سيف الدولة مرضاً شديداً من استرخاء عرض له ، وآيس الناس منه وأشرف على الموت وأخذ نجا قطعة من عسكره وسار إلى حرّان وصادر أهلها وتوجه إلى ميافارقين وكانت حرمة سيف الدولة أم أبى المعالى بها فلم تمكنه من الدخول وأمرت بغلق الأبواب فى وجهه . وأظهر الخلاف على مولاه والخروج عن طاعته وسار إلى خلاط وملكها وأوقع بأبى الورد صاحبها وهو رجل من العرب فى يده بعض بلدان أرمينية وقتله وملك قلاعه وبلاده وسار إلى منازكرد — وملكها ورجع إلى ميافارقين وحاصر حرمة مولاه وقاتلها وشتمها أقبح شتيمة وكتب سيف الدولة إلى القواد الذين معه يأمرهم بقتله فعصى عليه أهل منازكرد فسار إلى أخلاط وعصى عليه غلامه المقيم فيها ودفعه عن ما كان له فيها من الأموال التى غنمها

وطالبه الجند بأرزاقهم فلم يكن معه ما يعطيهم فشعثوا عليه وتفرقوا عنه . . . وسار سيف الدولة إلى ميافارقين وأرسل إلى نجا يأمره بالمسير إليه وآمنه على نفسه وماله وسار نجا إليه فصفح عنه وأقام عنده وشرب بين يديه فلما سكر شتم الغلمان وغلظ عليهم فى القول فاغتاظوا عليه وكانت حرمة سيف الدولة أشد غيظاً عليه لحصاره لها وشتمه إياها فصاح سيف الدولة على نجا وأمر أن يقام من بين يديه فوثب الغلمان إليه بالسيوف فقتلوه .

(يحيى بن سعيد ٧٩٢ – ٧٩٥)

دخول البيزنطيين حلب

(واقعة حلب من تاريخ على بن محمد الشمشاطى) قال : فى ذى القعدة[1] أقبلت الروم فخرجوا من الدروب فخرج سيف الدولة من حلب فتقدم إلى عزاز فى أربعة آلاف فارس وراجل . ثم تيقن أنه لا طاقة له بلقاء الروم لكثرتهم ، فرد إلى حلب وخيم بظاهرها ليكون المصاف هناك . ثم جاءه الخبر بأن الروم مالوا نحو العمق فجهز فتاه نجا فى ثلاثة آلاف لقصدهم . ثم لم يصبر سيف الدولة فسار بعد الظهر بنفسه . ونادى فى الرعية : من لحق بالأمير فله دينار . فلما سار فرسخاً لقيه بعض العرب فأخبره أن الروم لم يبرحوا من جبريين ، وأنهم على أن يصبحوا حلب فرد إلى حلب ونزل على نهر قويق ، ثم تحول من الغد فنزل على باب اليهود وبذل خزائن السلاح للرعية . وأشرف العدو فى ثلاثين ألف فارس فوقع القتال فى أماكن شتى فلما كان العصر وافى ساقة العدو فى أربعين ألف راجل بالرماح وفيهم ابن الشمشقيق وامتد الجيوش على النهر وأحاطوا بسيف الدولة فحمل عليهم ،فلما ساراهم لوى رأس فرسه وقصد ناحية بالس وساق وراءه ابن الشمشقيق فى عشرين ألفاً . فانكفأ أصحابه وانهزمت الرعية الذين كانوا على النهر عند ما انصرف سلطانهم وأظلهم السيف ، وازدحموا فى الأبواب وتعلق طائفة من السور بالحبال . فقتل منهم فوق الثلاثمائة وقتل من الكبار أبو طالب بن داود بن

---

(١) ١ – ٣٠ كانون الأول سنة ٩٦٢ م

حمدان وابنه وداود بن على وأسر كاتب سيف الدولة الفياضى وأبو نصر إلى ابن حسين بن حمدان ، وكان عسكر الملاعين ثمانين ألف فارس والسواد فلا يحصى ثم تقدم من الغد منتصر حاجب الدمستق إلى السور فقال : أخرجوا إلينا شيخين تعتمدون عليهما . فخرج شيخان إلى الدمستق فقربهما وقال : إنى أحببت أن أحقن دماءكم فتخيروا إما أن تسترّوا البلد أو تخرجوا عنه بأهلكم . وإنما كان ذلك حيلة منه فاستأذناه فى مشاورة الناس ، فلما كان من الغد أتى الحاجب فقال : لتخرج إلينا عشرة منكم لنعرف ما عمل عليه أهل البلد . وكان رأى أهل البلد على الخروج بالأمان ، فخرج العشرة وطلبوا الأمان وتدخل الروم . فقال الدمستق : صح ما بلغنى عنكم . قالوا : ما هو . قال : بلغنى أنكم قد أقمتم مقاتلتكم فى الأزقة مختفين ، فإذا خرج الحرم والصبيان ودخل أصحابى للنهب اغتالوهم . فقالوا : ليس فى البلد من يقاتل . قال : فاحلفوا . فحلفوا له . وإنما أراد أن يعرف صورة البلد ، فحينئذ تقدم بجيوشه إلى قبالة السور ولجأ الناس إلى القلعة . ونصبت الروم سلالم على باب أربعين وعند باب اليهود وصعدوا فلم يروا مقاتلة . فنزلوا البلد ووضعوا السيف وفتحوا الأبواب وقضى الأمر وعم القتل والسبى والحريق طول النهار ، ومن الغد ، وبقى السيف يعمل بها ستة أيام إلى يوم الأحد لثلاث بقين من ذى القعدة فزحف الدمستق وابن شمشقيق على القلعة ودام القتال إلى الظهر فقتل ابن الشمشقيق من عظمائهم ونحو مائة وخمسين من الروم ، وانصرف الدمستق إلى مخيمه ونودى : من كان معه أسير فليقتله . فقتلوا خلقاً كثيراً ثم عاد إلى القلعة فإذا طلائع قد أقبلت من نحو قنسرين وكانت نجدة لهم فتوهم الدمستق أنهم نجدة لسيف الدولة فترحل خائفاً .

رواية ابن مسكويه

فى هذه السنة ورد الخبر بأن الدمستق ورد إلى حلب وملكها وكان الدمستق وافاها ومعه ابن أخت الملك ولم يعلم سيف الدولة ولا أحد بخبره لأنها كانت كبسة

فلما علم سيف الدولة به أعجله الأمر فخرج نحوه وحاربه قليلا فقتل أكثر من معه ، وقتل جميع ولد داود بن حمدان وابن للحسين بن حمدان ، فانهزم سيف الدولة فى نفر يسير وظفر الدمستق بداره وهى خارج مدينة حلب فوجد لسيف الدولة من الورق ثلاثمائة وتسعون بدرة فأخذها ، ووجد له ألف وأربعمائة بغل فتسلمها ، ووجد له من خزائن السلاح ما لا يحصى كثرة فقبض جميعها ، وأحرق الدار والربض ، وقاتل أهل حلب من وراء السور فقتل من الروم جماعة بالحجاره وسقطت ثلمة من السور على قوم من أهل حلب فقتلهم ، وطمع الروم فى تلك الثلمة فأكبوا عليها ، ودفعهم أهل البلد عنها فلما جنهم الليل اجتمع المسلمون عليها فبنوها وأصبحوا ، وقد فرغوا وعلوا عليها ، وكبروا وبعد الروم قليلا إلى جبل هناك يعرف بجبل جوشن . وذهب رجال الشرطة بحلب إلى منازل الناس وخانات التجار ينهبونها ، وقيل للناس : الحقوا بمنازلكم فإنها قد نهبت . فنزلوا عن السور وأخلوه ، ومضوا إلى منازلهم مبادرين ليدفعوا عنها ، فلما رأى الروم السور خالياً وطالت المدة ، وتجاسر الروم ، صعدوا وأشرفوا على البلد ورأوا الفتنة فيه والنهب ، فنزلوا وفتحوا الأبواب ودخلوا فوضعوا السيف فى الناس ، فقتلوا كل من لقيهم ، ولم يرفعوا السيف إلى أن كلوا وضجروا . وكان فى البلد من أسارى الروم ألف ومائتا رجل فتخلصوا وحملوا السلاح على المسلمين ، وكان سيف الدولة قد أعدّ من الروم سبعمائة رجل ليفادى بهم ، فأخذهم الدمستق وسبى من البلد من المسلمين والمسلمات بضعة عشر ألف صبى وصبية ، وأخذ من خزائن سيف الدولة وأمتعة التجار ما لا يحد ولا يوصف كثرة ، فلما لم يبق معه شىء يحمل عليه ، أحرق الباقى بالنار وعمد إلى الحباب التى يحرز فيها الزيت فصب فيها الماء حتى فاض الزيت على وجه الأرض وأخرب المساجد وأقام فيها تسعة أيام .

وكان بذل لأهل البلد قبل أن يفتحه الأمان على أن يسلموا إليه ثلاثة آلاف صبى وصبية ويحملوا إليه مالاً وأمتعة حدّدها ، وينصرف عنهم . فلم يستجيبوا له إلى ذلك . وذكر أن عدة رجاله كانت مائتى ألف رجل ، وأن عدة أصحاب

الجواشن فيهم ثلاثون ألف رجل ، وفيهم ثلاثون ألف صانع للهدم ولتطويق الثلج ، وأربعة آلاف بغل عليها حسك الحديد يطرحه حول عسكره بالليل وخركاهات عليها لبود مغربية . فمن صعد قلعة حلب تخلص بحشاشته . فلما كان بعد تسعة أيام أراد الدمستق أن ينصرف بما فاز به وحصل فى يده . فقال له ابن أخت الملك : هذا بلد قد حصل فى أيدينا وليس بإزائنا من يدفعنا عنه ، ومن كان فيه من العلوية وبنى هاشم والوزراء والكتاب ومن لهم أموال مقيمون فى القلعة ، فبأى سبب ننصرف عنه قبل فتح القلعة فقال له الدمستق : قد وصلنا إلى ما لم نكن نقدره ولا يقدره الملك ، وقتلنا وسبينا وأسرنا وأحرقنا وهدمنا وخلصنا أسراء ، وأخذنا من أردنا أن نفادى به بلا فدية ، وغنمنا غنيمة ما سمع بمثلها ، ومن حصل فى القلعة فهم عراة ، وإذا نزلوا هلكوا لأنهم لا يجدون قوتاً والرأى أن ننصرف عنهم ، فإن طلب النهايات والغايات ردىء ، فأقام ابن أخت الملك على أمره ولح وقال : لا أنصرف أو أفتح القلعة . فلما ألحّ قال له الدمستق : فانزل عليها وحاصرها فإن الصورة والضرورة تقود من فيها إلى فتحها . فقال : لا أفتحها إلا بالسيف . فقال له : شأنك وما تريد . فإنى مقيم فى عسكرى على باب المدينة ففى الغد ترجل وأخذ سيفاً ودرقة وصعد راجلاً والمسلك إلى باب القلعة ضيق لا يحمل أن يسلكه أكثر من واحد ، فصعد وتبعه أصحابه واحداً واحداً . وقد كان حصل فى القلعة الجماعة من الديلم فتركوه حتى إذا قرب فتحوا الباب وأرسلوا عليه حجراً فوقع عليه وانقلب ، ثم وثب وهو مدوخ فرماه واحد من الديلم بخشب فأنفذ صدره وركب رأسه فأخذه أصحابه وانصرفوا إلى الدمستق فلما رآه مقتولا أحضر من كان أسر من المسلمين فضرب أعناقهم بأجمعهم . وسار إلى بلد الروم بما معه ولم يعرض لسواد حلب والقرى التى حولها وقال لأهلها : هذا البلد قد صار لنا فلا تقصروا فى العمارة فإنا بعد قليل نعود إليكم .

(ابن مسكويه ج ٢ ص ١٩٢)

المراجع

الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب : لابن الشحنة، طبعة ، بيروت ١٩٠٩
نهر الذهب فى تاريخ حلب : للشيخ كامل الغزى
محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، الدولة العباسية : لمحمد الخضرى
تاريخ العالم الإسلامى : لعمر رضا كحاله
تاريخ الموصل : للقس سليمان صائغ الموصلى ، المطبعة السلفية مصر ١٩٢٣
معجم البلدان : لياقوت الحموى ، طبعة مصر ١٩٠٦
أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى : لأنيس المقدسى ، طبعة بيروت ١٩٣٢
ديوان المتنبى : شرح اليازجى ، طبعة بيروت سنة ١٨٨٧
ديوان أبى فراس ، طبعة بيروت سنة ١٩١٠
مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام : لمحمد عبد الله عنان، طبعة مصر ١٩٢٩
يتيمة الدهر : للثعالبى ، طبعة مصر سنة ١٩٣٤
تاريخ أبى الفدا المؤيد ، الطبعة الأولى
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك : للمقريزي ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤
تاريخ الإسلام السياسى : للدكتور حسن إبراهيم حسن ، طبعة مصر
دائرة المعارف الإسلامية
دائرة معارف القرن العشرين : لمحمد فريد وجدى
خطط الشام : لمحمد كرد على ، طبعة دمشق ١٩٢٦
تاريخ الكامل : لابن الأثير
تاريخ ابن خلدون
تجارب الأمم : لابن مسكويه ، طبعة مصر ١٩١٤

النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، مطبعة مصر ١٩٣٣

Encyclopédie de l'Islam.
Paul Bourain — Alep, Autrefois et aujourd'hui, Alep 1930.
André Devens — Le Roman de l'Emir Séif, Paris 1935.
Marius Canard — Sayf al daula, Alger 1934.

« بيوك تاريخ عمومى » : لأحمد رفيق ، الجزء الرابع ، القسم الخاص بالبيزنطيين ، وقد اعتمد المؤلف على مصادر بيزنطية قديمة وعلى ما كتبه شلمبرجر ، ورامبو وشارل وغيرهم من كبار مؤرخى الألمان والفرنسيين عن البيزنطيين .

من رسائل بعض رجالات الفكر
عن هذا الكتاب

. . . قرأت كتابك فى « سيف الدولة وعصر الحمدانيين » بكثير من اللذة .

وأحر بك ، وأنت الحلبى القحّ ، والعربى الصادق ، والصحفى الأديب ، أن تكون الأسبق إلى تكريس كتاب لحياة الرجل الذى شرّف حلب والعرب والأدب ببطولته النادرة ، ودفاعه المستميت عن بلاده ، وعطفه المخلص على أبناء الفكر والقيم .

كنت ، حين مطالعتى كتابك ، فى جملة الذين ما عرفوا إلا القليل عن سيف الدولة ، وذلك فى سياق درسهم للمتنبى ، فما كان سيف الدولة عندى غير كوكب متألق يدور فى فلك الشاعر ، أما أنت فقد أظهرته لى فلكاً تدور فيه كواكب ، فكأنك بكتابك عنه ، أعدت له حقوقاً هضمتها ألف سنة ، فبينته حقيقاً بالتجلة والإكرام لأنه سيف الدولة لا لأنه نصير المتنبى ، وأنت فى ذلك على صواب أكيد .

أرجو أن تكون فى خير وعافية ، وعليك أطيب السلام من المخلص

بسكنتا ميخائيل نعيمه

. . . وقد عجبت من قول الدكتور أدهم « إن أسلوب الكتاب تنقصه الدقة التعبيرية وشىء من صقل الألفاظ » ويشهد الله أننى ما لمست من آثارك الماضية ما لمسته اليوم فى أثرك هذا من دقة التعبير وجمال الألفاظ وحسن التسلسل والتصوير . . .

حيم دموس

إننا لا نستطيع إلا أن نعجب بخيال المؤلف الذى صور لنا عصراً فى كتاب واحد تصويراً موفقاً ، إذ وفق بين المواد التى اختارها وبين الأسلوب الذى اتخذه . أما روح الكتاب فهى عربية نبيلة يتمثل فيها ذوق الأدب مضافاً إليه رغبة العالم المحقق . . .

الدكتور عمر فروخ

الفهرس

صفحة

صفحة

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩

سيف الدولة وعصر الحمدانيين

قصة الحمدانيين وما كان لهم من شأن عظيم فى تاريخ العرب السياسى والأدبى والعقلى، وقصة الصراع بينهم وبين بنى بويه، بجانب دراسات عن الشعراء والأدباء والعلماء الذين عاشوا فى ظلال الدولة الحمدانية كالمتنبى وأبى فراس والصنوبرى والفارابى، إلى لمحات واسعة عن الدولة البيزنطية منذ عهد قسطنطين الكبير إلى محمد الفاتح . . .

إنه كتاب يجلو سيرة بطل من أبطال العروبة والإسلام أقام فى بلاد الشام دولة شامخة حمتها من الغزوات البيزنطية وعاش فى كفاح دامٍ من أجل حرية العرب وسيادتهم . . .

•

مكتبة الدراسات التاريخية

* صدر منها :

مصر والسودان	للدكتور محمد فؤاد شكرى
تاريخ الطباعة فى الشرق العربى	للدكتور خليل صابات
الدولة العربية الكبرى	لمحمود كامل المحامى
الهيلينية فى مصر من الإسكندر إلى الفتح العربى	تأليف سير هارولد إدريس بل ترجمة زكى على
تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى	للدكتور على حسنى الخربوطلى
سيف الدولة وعصر الحمدانيين	للأستاذ سامى الكيالى

* يصدر قريباً :

العرب فى صقلية	للدكتور إحسان عباس

دار المعارف للطباعة والنشر

